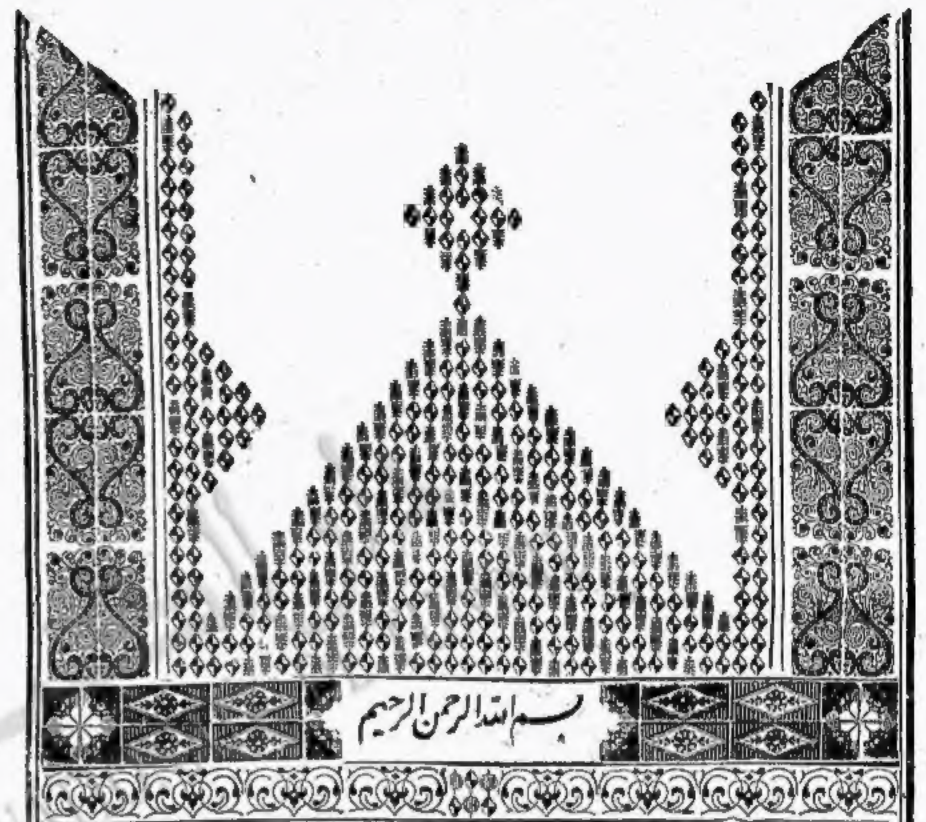
شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح
الامام الهمام من بلغ من العرفان أعلى مقام
من فاق ببراعته الاصاغر والا كابر
المحقق العلامة الشيخ محمد بن
محمد بن عاشور الطاهر
نفع الله به
آمين



هلم أيها اللامع العرفانى وخيم بقذفات تفكرى أيها الساطع الاتقانى واثنيا طوعا بأمر من خولنا جزيل الاحسان فلقد آن لقدح الهداية أن يتعلى وحان لغيهب الضلالة أن يتجلى وتبلج لى من ليل المخاوف صباح الامان أما انى قد تمسكت من العروة الصمدية بالحبل المتين وسكنت من الحصون القيومية بالشامخ الركين واستمطرت فيض نوال الرحمن فيامن ذهبت شوارق آلائه فأخرست شقاشق الشاكرين وتعاظمت بوارق نعمائه فضؤلت لها مصاقع الخطباء والمترسلين وكابهم فى ميدان محامده جواد اللسان كفى دليلا على عجزنا قول نبيك فى حضرة قدسك سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وكيف تحصى ثناء لفصاحة وبيان ﴿صل﴾ على أبهى درة كللت بها للأمة هامه وأبهر مرسل اخترته من لباب تهامة سيد الانبياء ومفخر بنى عدنان وعلى آله وأصحابه وعترته الطاهرة وأحزابه ومن اقتفى أثرهم باحسان ما لمعت بروق صوادق وهمعت سحائب غوادق وطلع تحت غداف الليل الأعزل والرامح وفاز بتقديسك الطائر والسابح وتشرف بخدمة مدائحه يراع وبنان ﴿هذا﴾ وان العبيد القاصر محمد بن محمد بن عاشور الطاهر طهر الله أعماله وأصلح بمنه أحواله يقول قد نزا كم على من حوادث الدهر ما ذهب بالقوى وعرانى من السقم ما أورثنى شديد الجوى أبيت سمير عبرات وأرق وأصبح رهين زفرات وقلق أشتكى من اليوم فاذا انقضى حننت اليه أبكى تارة منه وآونة عليه ولم يزل الامر

سالكا سبيله لم ألف لمدافعته علاجا ولا حيله الى أن وقع فى روعى أن أعالج دائى بالترياق المجرب الصحيح ملازمة القصيدة المباركة الموسومة ببردة المديح فصرفت الهمة نحو ممارستها ونذرت شرحها اذا سلمت عند مدارستها فكأن لم يكن ذلك الداء الاخيال طيف وانجلى والحمد لله انجلاء سحابة صيف

وما سكنت والهم يوما بموضع * كذلك لم يسكن مع النعم الغم

وكيف لا ولنا المن علاثق ممدوحها عليه الصلاة والسلام وهو الملجأ الذى لا يخيب فازع الى بابه ولا يضام كفى حصنا للمستجير أعتابه وحسبه ذلك الجناب الذى ما أخفقت طلابه ولله در منشئ القصيدة اذ يقول

ما سامنى الدهر ضيما واستجرت به * الا ونلت جوارا منه لم يضم

وحين تداركت بركاتها منى الذماء الباقى بعد ما تبين عجز المطبب والراقى وفزت منها بنيل الامان ونجوت بالفريسة من فم الثعبان وقرت لى عين طالما أرخت أرواقها وقلبت نحو مطلع صبح الفجر أحداقها وجب على أن أتمم ما نذرته من التدريس والشرح فطرحت عليل الفكر ليزخرف فيما اشرحها من رياض وسرح فاذا هم لأزهار معانيها يلتقطون وفى بساتين أفنانها يسرحون ولاجتناء ثمراتها من كل حدب ينسلون مختلفة مسالكهم وكل حزب بما لديهم فرحون وكان الجامع لما فى تلك الكتب من الشتات الآتى بما لم يسبق اليه سابق ولا آت الشرح المنسوب لخاتمة المحققين وفريدة عقد العلماء الراسخين البالغ النهاية فى نوعى المعقول والمنقول ومحرز الغاية فى علمى الفروع والاصول من اذا ذكرت المراتب فرتبته تسمو وتفوق ألا وهو الامام المتقن شيخ الاسلام ابن مرزوق لازال غيث الرحمة على جدثه هاميا وصيب الرضوان على روحه رائحا وغاديا فلقد منح القصيدة من فائق فصاحته نظما جوهريا وأودعها من رائق لطائفه روحا عنبريا وطوق جيدها بقلادة من بلاغته وكللها منها بتاج من خالص صياغته فأصبح مكتوبه محط الرحال وغاية مطمح الآمال (هذا) وانه لفرط تبحره كثيرا ما يخرج عن الغرض بشرح المسائل البلاغيه وبسط القول فى بيان الخلافات النحويه ومثل هذا وان شاع وذاع مما تأباه جودة الطباع فان العلوم الآليه انما تراعى فى مثل هذا المقام من حيث رد الكلام اليها لا من حيث شرح خلافاتها والاستدلال عليها فعمدت الى اختصار ما يليق بالنظم من معانيه والاقتصار على ما هو أنسب التخريجات بمبانيه راكبا ان شاء الله مطية الصواب تاركا لما هو بين من أوجه الاعراب كما لم أذكر فيه من البيان والبديع الا ما به اهتمام وبالجملة لم أخرج بهذا الشرح عن مطابقة الكلام لمقتضى المقام وبينما الذهن يسرح فى تلك الرياض ويكرع من عذب هاتيك الحياض تارة فى مسالك معارف يقتفيها وآونة بين زهرات آداب يجتنيها اذ جرى عليه القضاء بتقليد خطة القضاء فصرفت الهمة عن ذلك الطريق وودعت ما اجتنيته ورسمته توديع الصب الشفيق وقابلت ما نزل بالرضا والتسليم وفوضت أمرى للعزيز الحكيم وعاينت من النوازل ما أنحل منى الظاهر والباطن وكاد أن يحرك لى من الجزع ما هو ساكن لولا أن تداركتنى الألطاف الخفيه بظل

الدولة الصادقيه حين استوى على سرير المملكة طودها الشامخ السامى ومليكها العادل الحامى ظل الله الشامل لعباده وغيثه الهاطل على أرضه وبلاده الجامع بين كمال أمه وجده وما أبرزه من المكارم حازم جدّه العلم الشهير مولانا المشير محمد الصادق باشا لازالت أيامه باسمة الثغور مواقعا للنصر والعز والسرور فحفنى بجميل رعايته وأدخلنى حرم حمايته ووضع عنى اعباء تلك الولايه ولحظ حظى بعين الرأفة والعنايه فراجعت ما كنت ودعته وأخذت فى اكمال ما كنت نذرته وصادفتنى الاعانة الصمدية على اتمامه واتصل المبدأ منه بختامه واذا هبت عليه من الفيض الالهى نسمات القبول ونجح اعتلاقه بأكرم مجتبى وأفضل رسول لم تعدم من مطالعته مايشنف السمع ويهذب شكانه وآدابه الطبع وسميته ﴿شفاء القلب الجريح * بشرح بردة المديح﴾ والله المسؤل أن يجعله وسيلة نافعه وعدة لغياهب الأهوال دافعه وأن يكون لى ذمة من خير الانام عليه أزكى الصلاة وأتم السلام

﴿مقدمة تشتمل على ثلاثة مباحث﴾

﴿المبحث الاول﴾ فى الشعر وفضيلته قال ابن رشيق القيروانى فى العمدة كان كلام العرب كله منثورا فاحتاجت الى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحه وأوطانها النازحه وفرسانها الأمجاد وسمحائها الأجواد لتهز أنفسها الى الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين للكلام فلما تمّ وزنه سموه شعرا لانهم قد شعروا به أى فطنوا اه وأوّل من تكلم به على مافى الطليعة الثانية من مقدمة تاريخ الخميس يعرب بن قحطان أبو اليمن * وذلك أنه لما وصلت له المرثية التى رثى بها آدم عليه السلام ابنه هابيل حين قتله أخوه قابيل للسبب المبين فى آية المائدة وكانت كلمات سريانية عليها الابنه شيث وأمره بحفظها لتتوارث عنه فبرق الناس له عرّبها ونظمها شعرا وهو أوّل من تكلم بالعربية كما حكاه فى القاموس ممرّضا له وكان وجهه ما اقتضاه الجمع بين الاوّليتين من قدم الشعر فى اللغة وكلام ابن رشيق السابق اقتضى حدوثه فيها ويمكن الجمع بأن اشتهاره متأخر عن حدوث اللغة وهو الذى عناه ابن رشيق فلا ينافى مقارنة أصله للغة وفيه مافيه كما لا يخفى * وقيل أوّل من تكلم بالشعر آدم عليه السلام رثى به ابنه القتيل قال صاحب الكشاف وهو كذب محض وفى تلك الطليعة عن الامام الرازى أنه وافقه وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال من قال ان آدم عليه السلام قال شعرا فقد كذب على الله ورسوله فان محمدا والانبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم فى النهى عن الشعر سواء ولكن لما قتل قابيل هابيل رثاه آدم وهو سريانى اه وفيه توقف فان السبب المبين للنفى فى قوله تعالى وما علمناه الشعر الآية يقتضى الاختصاص بمحمد عليه الصلاة والسلام كما سيأتى وقول ابن عباس وهو سريانى بيان للواقع لا يتوهم منه أنه تأكيد لنفى الشعر عن آدم عليه السلام لما فى مقدمة ديوان العبر وكتاب المبتدا والخبر لابن خلدون ان الشعر لا يختص باللسان العربى بل هو موجود فى كل لغة وقد كان فى اليونان شعراء ذكرهم اقليدس فى كتاب المنطق اه وأوّل من رقق الشعر وقصد القصائد وغنى بالنسيب وافتتح بالغزل مهلهل بن ربيعة الوائلى خال

امرئ

امرئ القيس الكندى وقد ورث ذلك عنه ابن أخته * هذا وقد أنكر جماعة فضيلة الشعر جانحين نحو تفضيل النثر من الكلام متمسكين بأن المعجز من الكلام من جنس النثر وبأنه تعالى نزه نبيه عليه السلام عن الشعر بقوله عز اسمه وما علمناه الشعر وما ينبغى له وبأنه تعالى ذم الشعراء فى قوله عزت كلمته والشعراء يتبعهم الغاوون وبقوله عليه الصلاة والسلام لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا وبأن ملوك العرب كانت تأنف الاشتهار بالشعر ويعدونه دناءة وفى قصة امرئ القيس الشهيرة ما يبين ذلك وكفاه مذمة ماقيل فيه أنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل مثل ما يضع من قدر الشريف الكامل وقد استقدح ابن رشيق لردها من فكرته زندا وريا وسلت للذب عن منقبة الشعر من بيانه عضبا مشرفيا وخلاصة ماله مع مزيد أن الاستدلال بتلك الادلة مبناه عدم التدبر فى وجوه الكلام وعند التأمل يظهر أن ما عليهم فيها أكثر مما لهم أما كون القرآن نثرا فالسرّ فيه أن الله جل ثناؤه لما بعث نبيه عليه السلام حين استوت الفصاحة واشتهرت البلاغة جعل آية نبوته ذلك الكلام المنثور ليكون أظهر برهانا بحيث كان من نوع النثر وقد علا الشعر وأعجز كل ناثر وشاعر وكان اعجازه الشعراء أشد برهانا ألا تراهم لما غلبوا وتبين عجزهم نسبوه الى الشعر لما فى قلوبهم من هيبته وفخامته وأنه يقع منه ما لا يلحق كما يشهد بذلك تعليق القصائد السبع بالبيت قصدا للتحدى كما هو مشهور وقصة الوليد بن المغيرة شاهدة بذلك أيضا فى النوع الرابع والستين من الاتقان للجلال السيوطى * أخرج الحاكم عن ابن عباس قال جاء الوليد بن المغيرة الى النبى صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال ياعم ان قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه فانك أتيت محمدا تتعرض لما قبله قال قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا قال فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له قال وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذى يقول شيأ من هذا ووالله ان لقوله لحلاوة وان عليه لطلاوة وانه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وانه ليعلو وما يعلى فقال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قال فدعنى حتى أفكر فلما فكر قال هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره انتهى وفى الشفاء وغيره أن الذى قرأ عليه صلى الله عليه وسلم ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية وذلك أن النثر فى متعارفهم ما بين مسجع ملتزم فيه قافية واحدة ومرسل غير مبنى عليها والقرآن الحكيم خارج عن الوصفين ليس مرسلا مطلقا ولا مسجعا كما قال ابن خلدون هو كلام مفصل تنتهى آياته الى مقاطع تشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها من غير التزام حرف ولا قافية وهو معنى قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم الآية اه ولما نسبوه الى الشعر ردّ عليهم بقوله تعالى وما علمناه الشعر وأما قوله وما ينبغى له فمعناه كما فى الكشاف ما يصح له ولا يتطلب لو طلبه أى جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يسهل كما جعلناه أميا لا يهتدى للخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض * وعن الخليل كان الشعر أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثير من الكلام ولكن كان لا يتأتى له اه وأما آية الشعراء فان مذمتها خاصة بالشعراء المشركين الذين مسوا النبى صلى الله عليه وسلم بالأذى أما شعراء الاسلام فهم محط الاستثناء

فى قوله الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا * قال فى الكشاف استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر واذا قالوا شعرا قالوه توحيدا وموعظة ومدحا للنبى صلى الله عليه وسلم وأدبا حسنا وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم قال الله تعالى لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم وقيل المراد شعراء النبى صلى الله عليه وسلم الذين ينصرونه ويجيبون المشركين عنه كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير رضى الله عنهم فقد قال فيهم عليه السلام هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل وقال لحسان اهجهم فوالله لهجاؤك أشد عليهم من وقع السهام فى غبش الظلام اهجهم ومعك جبريل روح القدس وأما حديث لأن يمتلئ الخ فانما هو فيمن غلب الشعر على قلبه وملك نفسه حتى شغله عن اقامة الفروض وذكر الله كما يشعر بذلك لفظ الامتلاء والشعر وغيره فى ذلك سواء وكيف يؤخذ الحديث على عمومه وهؤلاء الخلفاء الراشدون قد نطقوا بالشعر وتبعهم على ذلك من الصحابة والتابعين والفقهاء المشهورين الجم الغفير فمن شعر الصديق رضى الله عنه فيما رواه ابن اسحق وغيره قوله

أمن طيف سلمى بالبطاح الدمائث * أرقت وأمر فى العشيرة حادث
ترى من لؤى فرقة لا يصدها * عن الكفر تذكير ولا بعث باعث
رسول أتاهم صادق فتكذبوا * عليه وقالوا لست فينا بماكث

وهى قصيدة طويلة ومن شعر الفاروق رضى الله عنه قوله

توعدنى كعب ثلاثا يعدها * ولا شك أن القول ما قال لى كعب
ومابى خوف الموت انى لميت * ولكن خوف الذنب يتبعه الذنب

ومن شعر ذى النورين رضى الله عنه قوله

غنى النفس يغنى النفس حتى يكفها * وان عضها حتى يضر بها الفقر
وما عسرة فاصبر لها ان لقيتها * بكائنة الا ويتبعها يسر

ومن شعر على رضى الله عنه وكرم وجهه قوله يوم صفين

لمن راية سوداء يخفق ظلها * اذا قلت قدمها حصين تقدما
فيوردها فى الصف حتى تردها * حياض المنايا تقطر الموت والدما

فهذا وأمثاله مما جرى من أئمة الهدى الذين حث على اتباعهم صاحبهم عليه الصلاة والسلام مما ينادى بالعويل على أرباب تلك الأقاويل ويستوجب تأويلا للمروى عن الشافعى رضى الله عنه من قوله

ولولا الشعر بالعلماء يزرى * لكنت اليوم أشعر من لبيد

فان المراد صرف الهمة اليه حتى يغلب على القلب كما تقدم بدليل الجواب أما أخذه أدبا وفكاهة فلا حرج فيه والا فأين مقام العلماء من مرتبة الخلفاء وقد روى عنه من الشعر ما هو مشهور ومما ينسب اليه كما فى شرح بديعية ابن حجة وغيره قوله

خذوا بدمى هذا الغزال فانه * رمانى بسهمى مقلتيه على عمد

ولا تقتلوه اننى أنا عبده * وفى مذهبى لا يقتل الحر بالعبد

وأما تأنف ملوك العرب من الاشتهار به فمن حيث ان سوقتهم اتخذوه مكسبة وتجارة وذلك مما تأباه أنفة الملك على أنك اذا تتبعت غالب الاغراض الجاهلية تجدها متنافية مع صولة الملك ان كنت ذا نباهة وقصة امرئ القيس شاهدة لنا فان أباه ما فعل معه ما فعل الا لما أداه اليه الشعر من الغى والضلالة والاشتغال بالخمر والزنا عن الملك والرياسة وكيف ينسب الى عربى انه أنف من الشعر وفى ديوان العبر أن الشعر كان ديوان العرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم وكان رؤساء العرب متنافسين فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لانشاده وعرض كل واحد بباحته على فحول الشعراء وأهل النظر حتى انتهوا فى تعليق أشعارهم الى المباهاة بأركان بيت الله الحرام موضع حجهم ومقام أبيهم ابراهيم عليه السلام اه وفى باب احتماء القبائل بشعرائها من كتاب العمدة كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل بهنائها وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس ويتباشر الرجال والولدان لانه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم واشادة لذكرهم وكانوا لا يهنون الا بغلام يولد أوشاعر ينبغ أوفرس ينتج اه وأما ما قيل فيه فليس معناه ما توهموه من المثلبة وانما هو بيان لماله من المنقبة وذلك أن الشعر لجلالته عند أربابه يرفع من قدر الخامل اذا مدح به مثل ما يضع من قدر الشريف اذا اتخذه مكسبة فقد رفع قدر المحلق من حضيض الثرى الى أوج الذرى حسن مدحه الأعشى بعكاظ بقصيدته التى يقول فيها

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة * الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها * وبات على النار الندى والمحلق
رضيعى لبان ثدى أم تحالفا * بأسحم داج عوض لا نتفرق
ترى الجود يجرى ظاهرا فوق وجهه * كما زان متن الهندوانى رونق

ووضع قدر النابغة الذبيانى وهو أشرف بنى ذبيان بامتداحه النعمان بن المنذر وتكسبه به وكفاه فضيلة قوله عليه الصلاة والسلام ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمة وأنه عليه السلام بنى لحسان منبرا فى المسجد ينشد عليه الشعر وأنه كان يرتاح اليه ويجازى عليه وناهيك بواقعة كعب بن زهير المشهورة فلقد نال فيها بقصيدته المباركة ما نال وقد سعد به حسان بن ثابت * روى أنه لما أنشد قصيدته التى رد بها على أبى سفيان وانتهى الى قوله

هجوت محمدا فأجبت عنه * وعند الله فى ذاك الجزاء

قال له عليه الصلاة والسلام جزاؤك الجنة يا حسان فلما انتهى الى قوله

فان أبى ووالده وعرضى * لعرض محمد منكم وقاء

قال له وقاك الله من النار * وروى أن النابغة الجعدى قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأنشدته قصيدة انتهيت فيها الى قولى

أتيت رسول الله اذ جاء بالهدى * ويتلو كتابا واضح الحق نيرا
بلغنا السما مجدا وجودا وسؤددا * وانا لنبغى فوق ذلك مظهرا

فقال لى عليه الصلاة والسلام الى أين يا أبا ليلى فقلت الى الجنة بك يا رسول الله فقال الى

الجنة ان شاء الله فلما أتيت الى قولي

ولا خير في حلم اذا لم تكن له * بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل اذا لم يكن له * حليم اذا ما أورد الامر أصدرا

قال النبي صلى الله عليه وسلم صدقت وأحسنت لا فض الله فاك فقضيت عمري أحسن الناس ثغرا وعمرت عمرا طويلا وكنت كلما سقط لي سن نبت مكانه آخر اه ومن هذا المجرى ما وقع للناظم وغيره ممن غرس أصول شعره في رياض مدائحه عليه الصلاة والسلام ولنكف عنان اليراع عن الجولان في هذا الميدان فلقد كفى ما جرى في المطلوب والله أعلم

﴿المبحث الثاني﴾ في ذكر شيء من أغراض الشعر على وجه اجمالي * اعلم أن صنوف الشعر الكثيرة التداول تسعة أحدها النسيب وهو والتشبيب والتغزل بمعنى واحد عند القدماء وعليه اقتصر في العمدة وفي نزهة الابصار في رقائق العلوم والاشعار أن المتأخرين على تقسيم النسيب الى تشبيب وتغزل وغرام فالاول يرجع الى محاسن الذات والثاني يرجع الى أحوال المحب وما يشكوه ويقاسيه من أهوال الهوى كالسهر والرقيب والهجر والوشاة وما يرتاح اليه من الوصال والطيف وهبوب الصبا والوقوف بالديار والثالث يرجع الى ما يهيج الاشواق ويثير الغرام كتذكار العهود والمنازل والاجتماع والمواعيد وحنين الابل ونحو ذلك وقد جمع الناظم في نسيبه بين القسمين الأخيرين كما ترى وللنسيب طريقتان بدوية وحضرية ومبنى كل على ما يلائم طبع صاحبه فالاولى تبنى على ذكر نحو الرحيل والانتقال وتوقع البين والاشفاق منه وذكر الطلول والرسوم والتشوق لحنين الابل وهبوب النسيم ولمع البروق وذكر الرياحين البرية من أقحوان وعرار وغيرهما والثانية تبنى على ذكر نحو الصدود والهجران والواشين والرقباء وذكر الرياحين البستانية وغير ذلك مما يناسب رقة الحاضرة * وشرط قبول كل أن يكون رقيق الالفاظ حلوها قريب المعاني يطرب الحزين ويلين ما قسا من القلوب ويرتاح اليه سامعه * قال الاصمعي أغزل بيت قالته العرب قول امرئ القيس

وما ذرفت عيناك الا لتضربي * بسهميك في أعشار قلب مقتل

وقال الحاتمي أغزل ما قالته العرب قول أبي صخر

فيا حبها زدني جوى كل ليلة * ويا سلوة الايام موعدك الحشر

(ثانيها) المديح وشرط قبوله أن لا يكون نسيبا لما فيه من الاشعار بالنقيصة وأن يراعى فيه مقتضى الطباع من الطناب والايجاز * كان أبو عبادة البحتري اذا مدح الخليفة قلل الأبيات لما في طباع الملك من السآمة والضجر واذا مدح الكتاب عمل طاقته وبلغ مراده وجماع الأمر مطابقة الكلام لمقتضى الحال ومن شروطه أن لا يتجاوز حد الممدوح جدا وأن لا ينقصه عما يستحقه ومن هنا لم يتعاط فحول الشعراء المتقدمين كأبي تمام والبحتري مدح النبي عليه الصلاة والسلام وكان أصعب ما يحاولونه اذ كل علو في حقه تقصير ولله در ابن الفارض اذ يقول

وعلى تفنن واصفيه بمدحه * يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وروى أنه رؤى في المنام فقيل له لم لم تصرح بمدح النبي صلى الله عليه وسلم فقال

أرى كل مدح في النبي مقصرا * وان بالغ المثني عليه وأكثرا

اذا

اذا الله أثنى بالذي هو أهله * عليه فما مقدار ما يمدح الورى

وقول الناظم في همزيته

ان من معجزاتك العجز عن وصفك اذ لا يحده الاحصاء

كيف يستوعب الكلام سجايا * ك وهل تنزح البحار الركاء

ومن سلك طريق المدح كالناظم فالغرض الاصلي له التشبث بأذياله والمقيل تحت ظلاله والتقرب اليه بما في المقدور فان الكريم يقبل من المتقرب اليه ما دق وجل على أنه اذا تعذر مدحه بالتفصيل لا يتعذر بالاجمال كما قال الناظم رحمه الله

دع ما ادعته النصارى في نبيهم * واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

وقال بعده فمبلغ العلم فيه أنه بشر * وأنه خير خلق الله كلهم

(ثالثها) الافتخار وهو من المديح الا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه قال دعبل أفخر الشعر قول كعب بن مالك

وقتيبدر اذ يرد وجوههم * جبريل تحت لوائهم ومحمد

وقال ابن رشيق أفخر بيت صنعه محدث قول بشار

اذا ما غضبنا غضبة مضرية * هتكنا حجاب الشمس أو تقطر الدما

اذا ما أعرنا سيدا من قبيلة * ذرى منبر صلى علينا وسلما

(رابعها) الرثاء وشرطه أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والاسف والاستعظام اذا كان الميت رئيسا (خامسها) الاقتضاء وشرطه التلطف ليوجب العطف والاجابة قال في العمدة ومن جيده قول أمية بن أبي الصلت لعبد الله بن جدعان

أأذكر حاجتي أم قد كفاني * حياؤك ان شيمتك الحياء

وعلمك بالحقوق وأنت فرع * لك الحسب المهذب والسناء

خليل لا يغيره صباح * عن الخلق الجليل ولا مساء

وله طرق كثيرة نتعرض لبعضها ان شاء الله عند الكلام على آخر النظم (سادسها) العتاب وهو حياة المودة وشاهد الوفاء وداعية الالفة وقريب المحبة وشرطه التقليل فاذا كثر خشن جانبه وثقل صاحبه والناس فيه على اختلاف فمنهم مازج له بالاستعطاف والاستئلاف ومنهم مدخل فيه الاحتجاج والانتصاف والاول أبقى للمودة ومن جيده قول بعضهم

وكنت أظن أن جبال رضوى * تزول وأن ودك لا يزول

ولكن القلوب لها انقلاب * وحالات ابن آدم تستحيل

(سابعها) الوعيد والانذار قال في العمدة كان العقلاء وذوو الحزم من الشعراء يتوعدون بالهجاء ويحذرون ولا يمضون القول الا ضرورة حيث لا يحسن السكوت ومن الوعيد قول جرير يخاطب بني حنيفة

أبني حنيفة احلموا سفهاءكم * اني أخاف عليكم أن أغضبا

(ثامنها) الهجاء وأشده ما كان بتفضيل وهو المسمى بالاقذاع الذي ورد فيه قوله عليه الصلاة والسلام من قال في الاسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود وترك الفحش فيه أصوب الا جريرا فانه أوصى بنيه بتطويل الهجاء وقصر المديح

(تاسعها) الاعتذار وطريقه أن يذهب الشاعر مذهبا لطيفا تاركا للاحتجاج واقامة الدليل داخلا تحت عفو المعتذر اليه حتى يأخذ بقلبه ويستوجب رضاه وأن لا يعترف بما لم يؤده الى تكذيب المعتذر اليه ومن جيده قول محمد الأصبهانى

العذر يلحقه التحريف والكذب * وليس فى غير ما يرضيك لى أرب

وقد أسأت وبالنعما التى سلفت * الا مننت بعفو ما له سبب

(واعلم) ان افتتاح المديح بالنسيب أمر جرى عليه عمل المتقدمين من الشعراء والمتأخرين تحريكا لنشاط السامع لترتاح نفسه به ويقبل على ما بعده من المديح ومن هنا شبهه مالك بن المرحل بمقدمة العود قبل الانشاد تهيجا للنفس لتتهيأ لتلقى الانشاد فقال

لذلك يجعل المحبون الاشاعر غزلا * يطارد المدح بالتشبيب أطوارا

كما ترى ناقر العود يثنى فيه توشية * وبعد ذلك غنى فيه أشعارا

وقد سلك هاته الطريقة شعراء النبى صلى الله عليه وسلم فافتتحوا امداحهم بالتشبيب وأنشدوها بين يديه عليه السلام دون نكير منه من ذلك قول كعب بن زهير

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول * متيم اثرها لم يفد مكبول

وقول حسان بن ثابت يوم بدر

عرفت ديار زينب بالكثيب * كخط الوحى فى الورق القشيب

وعلى ذلك جرى الناظم رحمه الله ومن البين ان التشبيب غير مصروف للممدوح فلا يدخل ذلك الصنيع تحت ما أنكره الأمير من استعمال ما يقال للمعشوق فى المقام المحمدى مما يأنف أحدنا أن يخاطب به قال وما وقع لعارف من ذلك كابن الفارض فانما ساغ من حيث استيلاء الوجد على قلبه وخروجه عن التمييز فلا يقتدى به غيره اه نعم تأدب المشافهة بالخطاب يقضى بالتحشم فى النسيب واجتناب الفحش كذكر محاسن المرد والنساء ولذا قال ابن حجة فى شرح بديعيته ينبغى أن يكون نسيب المديح النبوى بذكر الاماكن والمياه العربية التى كثر ذكرها فى الكلام العربى كسلع ورامة والعذيب وبارق فيتم بذلك براعة الاستهلال ومن جيده براعة البردة ﴿المبحث الثالث﴾ فى التعريف بالناظم وبيان سبب انشاده هذا النظم الشريف وذكر شئ من عجائب خواصه قال ابن حجر الهيتمى فى شرح الهمزية للناظم هو الشيخ الامام العارف الكامل الهمام المتفنن المحقق البليغ الأديب المدقق امام الشعراء وأشعر العلماء وبليغ الفصحاء وأفصح الحكماء شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن محسن ابن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجى كان أحد أبويه من بوصير الصعيد والآخر من دلاص فركبت النسبة منهما وقيل الدلاصيرى ثم اشتهر بالبوصيرى ولد سنة أربع وتسعين وستمائة وتوفى سنة احدى وثمانين وسبعمائة على ما صوبه العسقلانى * وسبب نظم هذه القصيدة أنه أصابه فالج أعيا الاطباء ففكر فى اعمال قصيدة يتشفع بها اليه صلى الله عليه وسلم ويتوسل به الى ربه فلما تم انشادها رآه عليه السلام فى المنام ماسحا بيده الكريمة عليه فعوفى لوقته ثم لما خرج من بيته لقيه رجل صالح فطلب منه سماعها فتعجب منه اذ لم يخبر بها أحدا فقال سمعتها البارحة تنشد بين يديه صلى الله عليه وسلم وهو يتمايل كتمايل القضيب فأعطاه

اباها وقيل انه اشتد به رمد بعد نظمها فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقرأ عليه شيأ منها فتفل فى عينيه فبرأ لوقته اه كلام ابن حجر * ومن عجائب بركتها ما حكاه ابن فضل الله فى كتابه مسالك الابصار أنه حكى له غير واحد ممن يثق به أن رجلا من كتاب مصر كان مغرما بها متتبعا لمنافعها وكان له رفيق نصرانى فهزأ به فرمد ابن لذلك الرجل وأتاه به غلام والنصرانى الى جنبه فقال الرجل للغلام اذهب به الى الكحال ودعه يطببه فقال له النصرانى لا حاجة بك الى الكحال ألم تزعم أن فى البردة شفاءه قال نعم والله لا أطببه بغيرها فوضعها على عينى الصبى فما مضى له يومان الا وقد زال ذلك الرمد بتمامه فقال النصرانى لا ظلمة بعد عيان وأسلم وحسن اسلامه اه وفى شرح الانطاكى أن بعض الشيوخ كان يوصى تلامذته بتلاوتها ويقول انها من أعظم الوسائل الى الله وانه فاز بها من الرجال من فاز وان تلاوتها تؤمن الخائف وتزيل الهموم وتفرج الكروب وان المكان الذى تتلى فيه تنزل فيه الرحمة والبركة وكان يقول اذا لم تتيسر تلاوتها بأسرها كفت هاته الابيات وهى من قوله واستفرغ الدمع البيت الى قوله وكيف تدعو الى الدنيا البيت اه قال بعض تلامذته وقد رأيت من بركتها الأمر العجيب وكل ذلك قليل فى بركة ممدوحها عليه الصلاة والسلام كيف وانه الوسيلة العظمى والملاذ الأحمى فلا جرم أن المتمسك بجنابه الرفيع الفوز بمطلوبه والمتوسل به الى ربه الاسعاف بمرغوبه وقد قال عليه الصلاة والسلام توسلوا بجاهى فان جاهى عند الله عظيم * وأما التوسل بعلائقه فأول من سنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى عام الرمادة فانه لما اشتد بهم الأمر ولم ينجع الاستسقاء خرج بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ومسك أطواقه وقال اللهم انا كنا نستسقى بنبيك فتسقينا وها نحن نستسقى بعم نبيك فاسقنا فما رجعوا الا وقد أمطرت السماء بمثل أفواه القرب وفى ذلك يقول عباس بن عتبة

بعمى سقى الله البلاد وأهله * عشية يستسقى بشيبته عمر

توجه بالعباس فى الجدب راغبا * اليه فما ان راح حتى أتى المطر

ومنا رسول الله فينا تراثه * فما بعد هذا للمفاخر مفتخر

وقد حان وقت الشروع فى شرح القصيدة فأقول مستعينا بالله ﴿قال الناظم﴾ رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين

﴿أمن تذكر جيران بذى سلم * مزجت دمعا جرى من مقلة بدم﴾

تقرر عند علماء البيان أنه اذا بولغ فى قيام صفة بمحلها انتزع منه موصوف بها دلالة بالاتيفية على بلوغها الحد ويسمونها التجريد كما تراه فى قوله عز اسمه لهم فيها دار الخلد * وله أنواع منها مخاطبة الانسان نفسه كما فى التلخيص ومنه قول أبى الطيب المتنبى

لا خيل عندك تهديها ولا مال * فليسعد النطق ان لم تسعد الحال

ومنه بيت القصيدة فان الناظم جرد من ذاته الطريحة فى معركة الهوى ذاتا أخرى مبالغة فى صفة الحب وتجرع غصصه وكثرة البكاء وخاطبها خطاب مستفهم عن سببه من تكاملية الشكل التى هى من ملح الشعر وطرف الكلام ناسجا كلامه بذينك الامرين على منوال قول علقمة بن عبدة

هل ما علمت وما استودعت مكتوم * أم حبلها اذ نأتك اليوم مصروم

ومن جيد التشكيك قول أبي الطيب

أريقك أم ماء الغمامة أم خمر * بفي برود وهو في كبدي جمر

(ومن فوائد التجريد) في مثل بيت الناظم الدلالة على كتمان الحب وحفظ سر أحبابه بحيث لم يطلع عليه غير نفسه وذلك شأن الحب وقد بالغ في اخفائه ابن الفارض قدس سره حتى ادعى اخفاءه عنه فقال

أخفيت حبكم فأخفاني أسى * حتى لعمري كدت عني اختفي

وكتمته عني فلو أبديته * لوجدته أخفى من اللطف الخفي

ومنها الاشارة الى أنه غير مظهر الاسى والجزع متكلف لاظهار التجلد والصبر بحيث لم يطلع أحد على بكائه وذلك شان أرباب النفوس الكريمة لا يظهر منهم الا التصبر واذا رجعوا الى أنفسهم حكموا الحب في دموعهم وأظهروا ما كان خفيا من أثر سطوته ولله در أبي فراس الحمداني اذ يقول

أراك أبي الدمع شيمتك الصبر * أما للهوى نهي عليك ولا أمر

بلى أنا مشتاق وعندي لوعة * ولكن مثلي لا يذاع له سر

اذا الليل أضواني بسطت يد الهوى * وأذللت دمعا من خلائقه الكبر

وعلى ذلك جاء قولي في طالع قصيدة

لك الله راع أيها القمر العالي * وان كنت قد أهملت مدمعي الغالي

ومما بيننا يجمع بين قول أبي فراس ذلك وقوله في قصيدة أخرى

فلا وأبي العشاق ما أنا عاشق * اذا هي لم تلعب بصبري الملاعب

واذ قد علمت أن خطاب النفس من التجريد المبني على الاثنينية علمت أن لا التفات الى دعوى الالتفات في البيت بناء عليه وأنه لا تنافي بينه وبين خطاب النفس كما قيل والتذكر تفعل من الذكر القلبي المقابل للنسيان والصيغة اما بالمعنى الاصلي واما الدلالة على المعالجة للاشارة الى أنه أمر تأباه حقيقة الحب لان موجبه الشوق الى المحبوب وهو حجاب عنه ولولاه لما غاب عن قلب المحب وما زال التصور به من نظره وهي الدرجة التامة فيه كما قال أبو الطيب

ما الخل الا من أود بقلبه * وأرى بطرف لا يرى بسوائه

وقال غيره

ولا معنى لشكوى الشوق يوما * الى من لا يزول من العيان

وبهذا يعلم أنه لم يجد الخليل بن أحمد فيما ينسب اليه

ان كنت لست معي فالذكر منك معي * يراك قلبي وان غيبت عن بصري

العين تبصر من تهوى وتفقده * وناظر القلب لا يخلو من النظر

أو الى غلبة الغيبة على قلبه لكونه مكبولا بالاسى والهوان غارقا في بحار الوجد هائما في فلاة الهوى وهو الملائم لقوله بعد * وما لقلبك ان قلت استفق يهم * وهذا المراد مما شاع في كلام الشعراء من سلب الحبيب للقلب وبقاء المحب خاليا منه مبالغة في استيلاء سلطان المحبة عليه كما قال ابن الفارض

أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي * يضركم لو كان عندكم الكل

وعليه قول بعضهم

قد كنت أجزي بالصدود ومثله * لو أن قلبي بات بين ضلوعي

وقال قيس بن الملوح مجنون العامرية

يقولون لو عذبت قلبك لارعوى * فقلت وهل للعاشقين قلوب

وهو كثير جدا في كلامهم * وجيران جمع جار وهو من قربت داره من دارك وحد بعضهم الجوار بأربعين دارا من كل ناحية ويجمع على جيرة أيضا وعليه قول ابن عبد العزيز الكاتب

يا جيرة السفح كم قلب بكم تعبا * لم يقض من حبكم نحبا ولا أربا

وذو سلم موضع بين مكة والمدينة والمزج خلط شيئين فأكثر بحيث لا يمكن التمييز بعده كخلط الخمر بالماء ومن ثم يسمى قتلا لها كما قال حسان رضي الله عنه

ان التي ناولتني فرددتها * قتلت قتلت فهاتها لم تقتل

كلتاهما حلب العصير فعاطني * بزجاجة أرخاهما للمفصل

ويعجبني قول أبي قلاقس

لا تقتلاها بالمزا * ج غداة أشربها شفاها

ما في المروءة أنها * تحيي النفوس وتقتلاها

والدمع ماء مالح يخرج من العين بسبب مضاعفة الحرارة الغريزية بالحرارة الغريبة التي تحدث بانفعال النفس عند مصادمة حزن أو فرح فتصعد تلك الحرارة المتضاعفة الى الدماغ فتسيل رطوباته المائية فاذا نفدت خرج الدم لانه أقرب اليها من غيره * ثم تلك الحرارة مع الحزن أشد تأثيرا في الدمع منها مع الفرح لانها في الاول تصعد على صوب واحد لانقباض النفس بخلافها في الثاني فان النفس تنبسط بالملائم فتتبدد الحرارة في جميع الجسد فيضعف فعلها في الدماغ ولذلك يكون بكاء الفرح باردا وكان من الكناية عنه قرور العين كما هو معلوم والمقلة شحمة العين التي فيها السواد والبياض وسوادها الحدقة وما فيه كصورة المقابل الانسان والناظر * والدم أحد الاخلاط الاربعة ومحله الكبد وينفذ من عروقها الى الجسد وقد علمت بما بيناه أن مزج الدمع بالدم كناية عن كثرة البكاء وفي معناه يقول بعضهم

بكيت دما حتى بقيت بلا دم * بكاء فتى فرد على سكن فرد

أأبكي الذي أهواه بالدمع وحده * لقد جل قدر الدمع فيه اذا عندي

هذا اذا كان موجب المزج ما ذكرناه وعليه يكون قوله من مقلة دفعا لتوهم أن يكون مجراه غيرها اذ لم يعهد جريان الدم منها ويحتمل أن يكون المزج بعد انفصال الدمع من محله وجريانه من المقلة بسبب حر الخراج الحاصلة فيها بكثرة سيلان الدمع الشديد الحرارة أو بكثرة السهاد والأرق كما يأتي له فيكون محوكا على منوال قول الفارضي

كلم السهاد جفونه فتبادرت * عبراته ممزوجة بدماء

وعليه فمن مقلة حال من دم * وحاصل معنى البيت الاستفهام عن كون ذكر الأحبة النازلين بذي سلم سببا لكثرة البكاء لصلوحيته لذلك أما تراه يمثل منازل الحبيب ويثير الشوق وما خمد من لهيبه فتحن النفس الى عهوده المتقادمة ويضاعف تحسرها على ما فات من زفراتها المتراكمة ولله در الفارضي اذ يقول

واها على ذاك الزمان وطيبه * أيام كنت من اللغوب مراحا

حيث الحمى وطنى وسكان الغضى * سكنى وورد الماء فيه مباحا

وأوّل من ذكر البكاء لذكر الاحبة والمنازل امرؤ القيس اذ قال فى معلقته

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقد تناولته أيدى الشعراء بعده فمنه ما حكاه الجاحظ فى المحاسن والاضداد لبعضهم

اذا ما ذكرت الثغر فاضت مدامعى * وأضحى فؤادى نهبة للهماهم

حننت الى أرض بها اخضر شاربى * وحلت بها عنى عقود التمائم

وألطف قوم بالفتى أهل أرضه * وأرعاهم للمرء حق التقادم

ومنه منتزعا من بيت الناظم قول قتيل الشوق البرعى

أمن تذكر أهل البان والبان * أم من تبدل جيران بجيران

جعلت دمعك وقفا فى محاجرهم * يفيض فى الخد هتانا بهتان

ولما اشتهر أمره فى باب الحب حتى صار مبتذلا أخذ المتأخرون فى التصرف فيه بما يخرجه الى الغرابة فمنهم من نحا فى ذلك منحا المزج بالدم كالناظم ومنهم من ارتقى الى درجة فناء الدمع بحيث لم يبق الا الدم الخالص كما قال المرتضى

نظرت بطرف لا يعنف فى الهوى * وعين متى ما استمطرت أمطرت دما

وعليه قولى

أرق بزيد وحر وجد متلف * وتوقد بين الحشا لا ينطفى
وتدفق من مقلة سكابة * تبكى الدماء من الدموع الذرف

ومنهم من سلك طريق الاشارة الخفية الى الكثرة فاستملح لخفائه كقول القائل

يا لائمى وفى الاحشاء جمر غضى * لا ماء دمعى يطفيها ولا النيل

فأشار بالعطف الى ما يقتضيه من المناسبة بين النيل ودمعه وقريب منه قولى

عذرا لها فى تحاقيها فلو وصلت * غارت عيون مغانيها من البلل

فان فيه ادعاء أن ماء عيون المغانى من الدمع فلو وصلت وانكف الدمع لغارت العيون هذا وحديث براعتى المطلع والاستهلال شهير لا يعزب عن علمك فلا نطيل بذكره

﴿أم هبت الريح من تلقاء كاظمة * وأومض البرق فى الظلماء من اضم﴾

عطف على قوله تذكر بتقدير حرف مصدرى أى أن هبت الريح وأن أومض البرق وقد يستغنى عن التقدير بناء على ارادة مجرد الحدث من لفظ الفعل فيلحق بالمصادر كما هو مقرر فى العربية واعتبار التأويل فى المعطوف عليه بأن يعتبر منحلا الى أن والفعل ويكون العطف على الفعل كما قيل غير تام كما لا يخفى على أنك ان كنت نسابة للمعانى لم ترض الا بالعطف على المعنى وهو ما تدل عليه الصيغة من الاختيار والمعنى أمن ذكرك باختيارك أم ذكرك بهبوب الرياح ولمع البرق مزجت الخ وهذا وجه آخر لاختيار صيغة التفعل فيما تقدم وذلك ان هبوب الريح ولمع البرق من نواحى الاحبة انما يوجبان البكاء من حيث انهما يثيران الذكر وينبهان القلب من غفلته أما هما فى ذاتهما بلا نظر لما يترتب عليهما من ذلك فلا يظهر لهما وجه فى البكاء وستقف على ذلك بالشواهد وعلى كل تقدير فأم متصلة والحمل على الانفصال مفسد للمعنى كما هو بين للمتأمل * والهبوب ثوران الريح كما فى القاموس والريح عند الحكماء تموج

الهواء بسبب اندفاع السحاب اذا ثقل من أعلى الى أسفل واندفاعه من جانب الى آخر وقد يكون لانبساط الهواء أى ازدياد قواه واندفاعه من جهة الى جهة كما هو مبسوط فى الكتب الحكمية وعند السفيين أنها خلق من أعظم مخلوقات الله كما فى حديث الصدقة مسكنها تحت الارض الثانية عليها خزنة من الملائكة * روى أنه لما أراد الله اهلاك عاد أمر الخازن أن يرسل اليهم مقدار الخاتم ولو أرسل عليهم بمقدار منخر الثور لهلك كل من فى الارض جميعا (وأصول الرياح أربعة) أحدها الصبا قال الزمخشرى فى ربيع الابرار وهى موصوفة بالطيب والروح لانخفاضها عن برد الشمال وارتفاعها عن حر الجنوب اه ومهبها كما فى القاموس من مطلع الثريا الى بنات نعش وقد ربت على بقية الاقسام اذ اختصت بسيرها بالرعب فى قلوب أعدائه صلى الله عليه وسلم مسيرة شهر كما ورد فى حديث أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لى الغنائم وأوتيت جوامع الكلم وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا وكان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس كافة وفى حديث آخر نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور * ومما اختصت به أنها سارت الى يعقوب بريح يوسف عليهما السلام قبل أن يأتيه البشير * ذكر ابن خلكان فى ترجمة أبى نصر محمد الارغيانى أنها استأذنت ربها فى ذلك فأذن لها فلذا يستريح كل محزون بها ولقد أجادت أعرابية نجدية تزوجها تهامى فلما أصابها حر تهامة قالت ما فعلت ريح كانت تأتينا ونحن بنجد قبيل لها عنها جبلا نعمان فأنشدت

أيا جبلى نعمان بالله خليا * نسيم الصبا يخلص الى نسيمها
أجد بردها أو تشف منى حرارة * على كبد لم يبق الا صميمها
فان الصبا ريح اذا ما تنفست * على نفس محزون تجلت همومها

وقال ابن نباتة وتلطف ما شاء

يداوى أسا العشاق من نحو أرضكم * نسيم صبا أضحى عليه قبول
بروحى من ذاك النسيم اذا سرى * طبيب يداوى الناس وهو عليل

ولها تأثير فى تنعم الابدان واثارة الحنين الى الاوطان ويقابلها الدبور وهو الاصل الثانى (ثالثها) الشمال ومهبها من مطلع الشمس الى مسقط النسر الطائر ويقابلها الجنوب وهو الاصل الرابع من مطلع سهيل الى مطلع الثريا * وللريح أقسام أخر متفرعة عن هذه الاصول قالوا والريح اذا أفرد كان للشر واذا جمع كان للخير الا لقرينة وعليه استعمال القرآن ولذا كان عليه الصلاة والسلام اذا رأى ريحا قال اللهم اجعلها رياحا لا ريحا قالوا ولذا أفردها الناظم لانها هيجت أحزانه وفيه نظر وتلقاء كاظمة ناحيتها وهى موضع بقرب المدينة المشرفة قاله ابن مرزوق وفى معجم ما استعجم لابى عبيدة كاظمة اسم ماء قال الاصمعى تخرج من البصرة فتسير الى كاظمة ثلاثا وهى طريق المنكدر لمن أراد مكة من المنكدر ثم تسير الى النعمان ثلاثا وهو جبل أحمر ينقاد ثلاث ليال وليس له ارتفاع ثم قال وقال يعقوب ماء كاظمة ملح صلب يصلح عليه الحديد ولذلك قال البعيث

فأرسل مهرا كاظميا كأنه * ذنوب عراك فعمته الترائر

أى الشدة * وكاظمة من مياه بنى شيبان * روى الطبرانى عن أبى عمرو الشيبانى أنه قال أذكر أنى سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أرعى ابلا لاهلى بكاظمة * وايماض البرق لمعانه الخفى ويقال ومض ثلاثيا فان اعترض فى نواحى الغيم فهو الخفق فان استطال فى وسط السماء ولم يعترض يمينا ولا شمالا فهو العقيقة والبرق عند أهل السنة سوط ملك يسوق السحاب الى الجهات التى يريدها الله سبحانه والرعد صوته * روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال أقبلت يهود الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم أخبرنا عن الرعد فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من النار يسوق بها السحاب حيث شاء الله فقالوا ما هذا الصوت الذى نسمع فقال زجره السحاب اذا زجره حتى ينتهى الى حيث أمره قالوا صدقت وعند الحكماء دخان يتصاعد مع البخار فاذا ارتفع فوق السحاب أو نزل تحته مزقه تمزيقا عنيفا فحصل منه صوت هائل هو الرعد ويشتعل ذلك الدخان بسبب الحركة العنيفة المقتضية للحرارة فان لطف وانطفأ بسرعة فهو البرق وان غلظ ولم ينطفئ حتى وصل الى الارض فهو الصاعقة كذا فى الهداية * والظلماء الظلمة وهى ذهاب النور ويقال ليلة ظلماء أى شديدة الظلمة كما فى القاموس وهو أولى بالارادة فى البيت * واضم كعنب الوادى الذى فيه المدينة وفى معجم ما استعجم اضم بكسر أوله وفتح ثانيه واد دون المدينة قاله الطوسى وقال أبو عمرو والشيبانى وابن الاعرابى اضم جبل لاشجع وجهينة وقيل واد لهم قال النابغة

بانت سعاد فامسى حبلها انجذما * واحتلت الشرع فالاجزاع من اضما

(وقال الزبير) أقطع المهدى المغيرة بن حبيب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير عينا باضم يقال لها عين النبق ولما أجليت جرهم من مكة خرج بهم رئيسهم الحرث بن مضاض الاظفر الجرهمى الى اضم من أرض جهينة فجاءهم سيل فذهب بهم وفى ذلك يقول أمية

وجرهم دمنوا تهامة فى الدهـــــر فسالت بجمعهم اضم

(ومعنى البيت) على ما اخترناه فى العطف هل كان سبب التذكر الموجب للبكاء هبوب الرياح ولمع البروق فى الليلة الظلماء من منازل الاحبة فذكرك أولئك الجيران وانما خص الليلة الظلماء بذلك لان البرق أشد ظهورا بها وأقوى فعلا فى النفس لشدة الوحشة فيها * فان قلت قدمت أن من خواص الصبا استراحة المحزون بها فكيف تكون موجبة للتذكر الموجب للبكاء قلت لم يخص الناظم التذكر بالصبا ولو فعله لم تحصل المنافاة لان الحزن كما فى الربيع عن ابن عباس سببه وقوع الامر على خلاف المحبة وغير خفى أن الشوق والحنين والبكاء الناشئ عنهما محبوب للمحب يتلذذ به * قال حسام الدين فى ذخيرة السلاطين قال بعضهم المحبة تقتضى اللذة بالبلاء ومن لم يلتذ بالعذاب لم يعرف المحبة انتهى ولله در سلطان العاشقين اذ يقول

وتعذيبكم عذب لدى وجوركم * على بما يقضى الهوى لكم عدل

وقال أيضا

بالائمى فى حب من من أجله * قد جد بى وجدى وعز عزائى

هلا نهاك نهاك عن لوم امرئ * لم يلف غير منعم بشقاء

هذا ومما قيل فى الحنين لهبوب الرياح قول الفارضى

نعم بالصبا قلبى صبا لاحبتى * فيا حبذا ذاك الشذا حين هبت

سرت فأسرت للفؤاد عرية * أحاديث جيران العذيب فسرت

تذكرنى العهد القديم لانها * قريبة عهد من أهيل مودتى

وقوله أيضا

أرج النسيم سرى من الزوراء * سحرا فاحيا ميت الاحياء

أهدى لنا أرواح نجد عرفه * فالجو منه معنبر الارجاء

وما أحسن قول عبد الله بن الدمينة وينسب لمجنون العامرية

ألا يا صبا نجد متى سرت من نجد * فقد زادنى مسراك وجدا على وجدى

ألا حبذا نجد وطيب ترابها * وأرواحها ان كان نجد على العهد

(وقلت) فى تشبيب تهنئة بختم صحيح البخارى

أحن وأصبو كلما هب من نجد * نسيم رباه يفوق شذا الند

يمثل لى تلك الاباطح والربا * وعهدا مضى يا حبذا ذاك من عهد

فهاج لى الشوق الأثيل ولم أكن * سلوت ولكن زاد وجدا على وجدى

وقد نحت الناظم صدر البيت من قول النابغة الذبيانى فى غير مقصده

هلا سألت بنى ذبيان ما حسبى * اذا الدخان تغشى الأشمط البرما

وهبت الريح من تلقاء ذى أرل * تزجى مع الليل من صرادها صرما

ينبيك ذو علمهم عنى وجاهلهم * وليس جاهل شئ مثل من علما

(ومما قيل) فى الحنين للبروق قول شيخ المعرة

طربن لضوء البارق المتعالى * ببغداد وهنا ما لهن ومالى

تمنت قويقا والصراة حيالها * تراب لها من أينق وجمال

فيا برق ليس الكرخ دارى وانما * رمانى اليه الدهر منذ ليالى

فهل فيك من ماء المعرة شربة * تغيث بها الظمآن ليس يبالى

ومن السحر فى ذلك قول شيخنا أبى عبد الله محمد الخضار

أأن شمت برقا بين رامة فالحرا * أرقت أسى أم أنت ذو كبد حرا

(ومن اللطيف) فى ذلك مع ملاقاة بيت الناظم قول حفصة الركونية احدى شاعرات الاندلس

سلوا البارق الخفاق والليل ساكن * أظل باحبابى يذكرنى وهنا

لعمرى لقد أهدى لقلبى خفقه * وأمطرنى منهل عارضه الجفنا

(ومن العجيب) فى هذا المعنى ما نقله شيخ الاسلام ابن مرزوق عن صاحب كتاب نظم الفريد فى منتخب الأدب التليد عن الفضل بن محمد الضبى قال لما قدم بغاة بنى نمير أسرى كنت أذهب اليهم لأسمع منهم فأتيتهم يوما وهم فى عقب مطر فاذا بفتى حسن الوجه قد نهكه المرض وهو ينشد

ألا يا سنا برق على قلل الحمى * لهنك من برق على كريم

لمعت ابتداء الصبح والقوم هجع * فهيجت أسقاما وأنت سليم

فهل من معير طرف عين خلية * فانسان عين العامرى كليم

رمى قلبه البرق الهلالى رمية * بذكر الحمى وهنا فبات يهيم

فقلت له يا هذا انك لفى شغل عن هذا فقال صدقت ولكن أنطقنى البرق فما كان ساعة حتى دفناه

﴿فما لعينيك ان قلت اكففا همتا * وما لقلبك ان قلت استفق يهم﴾

أنبأت الفاء عن مقدر استغنى عن ذكره باقتضاء الكلام السابق اياه وذلك شأن البلاغة تنزل الموهوم المقتضى منزلة الواقع فتبادر بذكر ما يترتب عليه ومقام استفهام المحب عن أمر يفضح سره مظنة انكاره محافظة على الكتمان الذى هو اكسير المودة فالتقدير ان لم يكن لك حب وشوق يهيجه التذكار فما لعينيك الخ ولذا تسمى هذه الفاء الفصيحة لافصاحها وانبائها بذلك المقدر وقد يصرح به زيادة فى الافصاح كما قال أبو الطيب

ان كنت تسأل شكا فى معارفها * فمن بلاك بتسهيد وتعذيب

والكف عن الشئ الحبس عنه حذف متعلقه فى البيت لوضوح الدلالة عليه أى عن البكاء وهمت العين صفت دمعها على العينين كذا عن ابن السيد وقيل الهميان السيلان وعليه فالاسناد مجازى * والقلب العضو المعروف وهو شكل صنوبرى غشاؤه الفؤاد فهما متغايران خلافا للجوهرى نعم قد يطلق عليه لفظ الفؤاد والصدر مجازا بين العلاقة كما فى قوله تعالى ألم نشرح لك صدرك وكما فى قول الأخطل

ان الكلام لفى الفؤاد وانما * جعل اللسان على الفؤاد دليلا

كما أطلق القلب على العقل مجازا لتلك العلاقة كما فى قوله تعالى ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد والقلب متبوع الجسد صلاحا وفسادا كما ورد فى الحديث ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب ومن ثم قيل ان القلب كالملك والجسد والاعضاء كالرعية فكما أن صلاح الرعية وفسادها بصلاح الملك وفساده كذا صلاح الجسد وفساده بصلاح القلب وفساده وهام يهيم بمعنى تحير ومنه الهيام لشبه الجنون من العشق * واعلم ان القول يحتمل الحقيقة بناء على ما هو الشائع من خطاب القلب والعين تجاهلا وتولها كما فى قوله

أيا أيها القلب الذى قاده الهوى * أفق لا أقر الله عينك من قلب

وقوله

تمتعتما يا مقلتى بنظرة * فأوردتما قلبى أمر الموارد

أعيناى كفا عن فؤادى فانه * من البغى سعى اثنين فى قتل واحد

ويحتمل وهو الاظهر التمثيل بأن شبه حاله عند ارادة الكف عن البكاء وتيقظ القلب من غفلة الهوى بحال الآمر لهما بذلك واستعمل اللفظ الدال على الثانى فى الاول * والمعنى ان لم تكن ذا حب فأى سبب قضى بعدم تمكنك من الكف عن الدمع وافاقة القلب وبانعكاس ارادتك من قلبك وجوارحك وماذاك الا لذى سطوة وسلطان وما هو الا الحب فانه غالب كل غالب ﴿حكى﴾ عن المظفر بن يحيى أنه قال عذل محب فقال ليس الهوى الى الرأى فيملكه ولا الى العقل فيدبره بل قدرته أغلب وجانبه أعز من نفوذ حيلة حازم فيه ولطف محتال اه والى هذا يشير ذو الذلتين فى قوله

كم ليلة تها والنجم يشهد لى * صريع شوق اذا غالبته غلبا

وخص ظهور سلطانه بالعين والقلب لان أثره التام بهما كما قال أعرابى فى وصف الحب داء تدوى به النفوس الصحاح وتسيل منه الارواح وهو سقم مكتتم وجمر مضطرم فالقلوب به منضجه والعيون به ساكبه اه ووصف آخر محبا فقال كان يستر عينا قد أدت ما فيها ويحنو على كبد قد أعيت مداويها اه ولذا جعل البكاء والسقم الناشئ عن تفكر القلب من علاماته كما قيل

علامة ذل الهوى فاعلمن * على العاشقين الضنى والبكا

وفى ذلك سر لطيف فان سبب الحب فى الغالب النظر ومنه يفساق حسن المنظور اليه الى القلب فيشتغل بالتفكر فى لطف شمائله الى أن يسطو الحب على القوى ويذكو جمر الصبابة والجوى ولقد أحسن من قال

وأنت اذا أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذى لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فجعل الهميان والهيام عقوبة لهما على ما تسببا فيه وقد صرح بذلك بعض فى البكاء فقال

لاعذبن العين غير مفكر * فيما جرت بالدمع أو سالت دما

ولاهجرن من الرقاد لذيذه * حتى يعود على الجفون محرما

سفكت دمى فلاسفحن دموعها * وهى التى ابتدأت فكانت أظلما

وسلك بعضهم مسلكا آخر فقال

والله يا طرفى الجانى على بدنى * لتطفئن بدمعى لوعة الحزن

هذا ولا يخفى لطف الطباق فى البيت بين اكففا وهمتا واستفق ويهم * ومن أعذبه قول الفارض رضى الله عنه

فهم هم صدوا دنوا ودوا جفوا * غدروا وفوا هجروا رثوا الضنا بى

وفى البيت نوع من أنواع المذهب الكلامى وهو افحام السائل بذلك السؤال حيث لا يجد منه مخلصا الا الاقرار بالحب * ومن جيد هذا النوع ما يحكى ان أبا دلف قصده شاعر تميمى فقال له ممن أنت قال من تميم فقال أبو دلف

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا * ولو سلكت طرق المكارم ضلت

فقال التميمى نعم بتلك الهداية جئت اليك فأفحمه

﴿أيحسب الصب أن الحب منكتم * ما بين منسجم منه ومضطرم﴾

لما كان الغرض من البيت السابق افحام المسؤل ليرتدع عن انكاره بين له فى هذا البيت انه لا يتأتى لذى صبابة مثله الانكار مع هميان الدمع وهيام القلب اذ لا يستتر ما أنكره بين منسجم من الدمع ومضطرم من القلب وفيه اشارة الى تقريعه على ذلك الانكار كما سيصرح به فى قوله فكيف تنكر حبا الخ والصب فعل بكسر العين من الصبابة وهى رقة الهوى كما فى القاموس والمنكتم المستتر والانسجام السيلان والاضطرام الالتهاب * وأما الحب فهو فى اللغة صفاء المودة وبمعناه صفاء الحال بين الحبيب وحبيبه وأما عند الحكماء فقال بقراط هو امتزاج النفس بالنفس كالماء بمثله والنفس ألطف من الماء وأرق مسلكا فلذا لا يزيله مر الليالى دق عن الاوهام مسلكه وخفى عن الابصار موضعه وحارت العقول دون

كيفية تمكنه غير أن ابتداء حركته وعظم سلطانه من القلب ثم يعم الاعضاء فتبدو رعدة الأطراف وصفرة الألوان ولجلجة الكلام وضعف الرأى وثقل اللسان حتى ينسب صاحبه الى النقص اه فان اشتد ذلك كان عشقا غير أنه فى الغالب مقرون بالشهوة * وفى معارج النور للشيخ لطف الله المحبة فينا هيجان طبيعى يحصل من استحسان أمر عيانا أو سماعا وأشار بالثانى الى ماصرح به أبو مدين فى قوله

وكم من محب قد أحب وما رأى * وعشق الفتى بالسمع مرتبة أخرى

ولذا كانت مرتبة الزاهدين فى الدنيا المتشوقين الى الآخرة من أعلى المراتب كما قال الجنيد وقال كثير من الطبيعيين العشق طمع يتولد فى القلب وكلما قوى ازداد صاحبه فى التمادى فى الفكر والهيمان وضيق الصدر فاذا فسد الفكر أدى الى الجنون فربما قتل العاشق نفسه أو مات غما وحزنا أو تنفس الصعداء فتخفى روحه فى تامور قلبه وينضم القلب فلا ينفرج حتى يموت * ثم الحب له أقسام أعلاها قدرا حب الله ورسوله وعلامته فعل المأمورات واجتناب المنهيات واتباع السنة كما هو مبين فى كتب الأحاديث وهذا حب العامة من المؤمنين لحديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وفى حديث آخر ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه الا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار اه وحب الخاصة مشروح فى كتب القوم ومثاله ما قيل مواطأة القلب بمرادات الرب وقال بعض العارفين الحب أوله يحبهم وآخره يحبونه وبينهما مهج تذوب وأرواح تطير الى المحبوب وأعلى من ذلك حب خواص الخواص المشار اليه بقول بعضهم الحب فناء المحب فى بقاء المحبوب ومعناه أن لا يشاهد فى الوجود سوى الذات العلية وهو مقام الفناء عندهم قال الشيخ لطف الله فى المعارج هو مرتبة للنفس يتلاشى لديها وجود سائر الكائنات فتختلف عنها آثار الحواس الظاهرة والباطنة وتقول تارة والقائل هو الحق على لسان العبد * اذا ما أزال الستر لم ترغيره * وأخرى وليس معى فى الملك شئ ولم يكن * قلت لواصله هل كنت فى يقظة وكامل شعور قال نعم ولكنى لم أحس من جواهر العالم وأعراضه شيأ بل ونفسى التى بين جنبى * وقال آخر كنت فى مراقبة والليل مقمر فاذا بتجل محق نوره وخرّ له المحسوس من الجهات الست والكل يصرخ هو هو قلت كيف ذلك فخرس اه ومن ثمت ترى واصليه يجرى على ألسنتهم ما يقضى بسببه عليهم بالقتل كما فى قضية الحلاج الشهيرة واذا وقفت على تائية ابن الفارض قدس سره رأيت من ذلك العجب العجاب * القسم الثانى من أقسام الحب حب العبد لا لغرض وانتفاع بل لله وعلامته ان لا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء نقله الشهاب الخفاجى عن ابن معاذ وهو ممدوح شرعا لحديث سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل وشاب نشأ فى طاعة الله تعالى ورجل تعلق قلبه بالمساجد ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال انى أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه * القسم الثالث العشق مع التعفف وكف النفس وهو ممدوح أيضا لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد (القسم الرابع) المذموم شرعا وعقلا وهو الحب مع اتباع الهوى الموجب للنقص والدناءة (واعلم) ان مراتب الحب كثيرة الاولى الهوى والثانية العلاقة وهى الحب اللازم والثالثة الكلف وهو شدة الحب والرابعة العشق والخامسة اللوعة واللاعج وهو احراق الحب للقلب مع لذة يجدها المحب والسادسة الشغف وهو أن يبلغ الحب شغف القلب أى جلدته والسابعة الجوى وهو الهوى الكامن والثامنة التتيم وهو أن يستعبد الحب صاحبه ومنه تيم الله أى عبد الله والتاسعة التبل وهو فناء المحب بالهوى والعاشرة التوله وهو ذهاب العقل والأخيرة الهيام وهو تمام الحيرة وانعدام العقل والحواس فيلحق صاحبه بالمجانين وما ألطف ما قال بعضهم حرفا الحب حتف وبلاء وقد أنذر الفارضى حيث يقول

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل * فما اختاره مضنى به وله عقل
وعش خاليا فالحب راحته عنا * فأوله سقم وآخره قتل

هذا ومما قيل فى معنى بيت الناظم قول أحمد بن يحيى

الحب أغلب للفؤاد بقهره * من أن يرى للستر فيه نصيب
واذا بدا سر الحبيب فانه * لم يبد الا والفتى مغلوب
انى لأبغض عاشقا متسترا * لم تتهمه أعين وقلوب

(ومنه قول ليلى العامرية)

وأسرار الملاحظ أين تخفى * وما فى القلب تظهره العيون

ومنه قول على بن الجهم فى رائيته المشهورة

بما بيننا من حرمة هل رأيتما * أرق من الشكوى وأقسى من الهجر
وأفضح من عين المحب لسرها * ولاسيما ان أطلقت عبرة تجرى

وما ألطف قول ابن سهل فى هذا المعنى

خضعت وأمرك الأمر المطاع * وذاع السر وانكشف القناع
وهل يخفى لذى وجد حديث * أتخفى النار يحملها اليفاع

وبما أشرنا اليه صدر التقرير يعلم أن لا التفات فى البيت كما قيل بناء على أن المراد بالصب خصوص المخاطب وبنوا عليه الالتفات فى خطاب البيت بعده

﴿لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل * ولا أرقت لذكر البان والعلم﴾

احتجاج على المخاطب المفروض انكاره بدليل انسجام الدمع الذى تقدم أنه فاضح لسر الهوى وبالارق للذكر على طريقة البرهان الاقترانى كقوله

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته * لما رأيت عليها عقد منتطق

وحاصله الاستدلال باراقة الدمع وبالارق لذكر البان والعلم على كونه ذا هوى وبهذا يعلم ان ليس الغرض اخبار المخاطب بمضمون البيت حتى يقال انه من باب قصد اللازم أو من تنزيل العالم منزلة الجاهل كما قيل فانه خروج عن مقام الاستدلال والمحاجة كما لا يخفى * والهوى أول مراتب الحب كما تقدم يقال هوى بكسر العين يهوى هوى وأما هوى بالفتح هويا فمعناه سقط

قال شيخ الاسلام سمعت الامام محب الدين ابن الامام جمال الدين بن عبد الله بن هشام يقول اتقوا المكسور فانه يؤدى الى المفتوح والاراقة الصب والطلل الشاخص من آثار الديار وما لا شخص له من آثارها كملاعب الصبيان يقال له الرسم وأراد به الناظم ما بقى من آثار الجسم الذى نهكه الضنى والاسف على طريقة الاستعارة التصريحية للمشابهة البينة فيكون مشيرا الى غلبة السقم على جسمه توطئة لما يذكره فى البيت بعده ومثله كثير فى كلام الشعراء ومن أبلغ ما قيل فيه قول أبى الطيب

أبلى الهوى أسفا يوم النوى بدنى * وفرق الهجر بين الجفن والوسن
روح تردد فى مثل الخلال اذا * أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمى نحولا أننى رجل * لولا مخاطبتى اياك لم ترنى

وهو مع ما فيه من المبالغة أعذب منه صنيع المصنف وأرق فان جسم المحب لما كان منزلا للحبيب معنى كان حكمه حكم المنازل الحسية فناسب أن يكون طللا عند بلاه كما تكون المنازل الحسية وما أعذب ما اعتذر به بعض المحبين عن عدم النحول فى قوله

وقائلة ما بال جسمك لا يرى * سقيما وأجسام المحبين تسقم
فقلت لها قلبى بحبك لم يبح * لجسمى بجسمى بالهوى ليس يعلم

هذا وحمل الشراح الطلل فى البيت على طلل ديار الأحبة وصرف على الى معنى التعليل وتقدير المضاف أى لاجل ذكر ديار الأحبة خروج عن مذاق الكلام وما تقتضيه صياغة النظام مع ما فيه من المناقضة لما بنى عليه صدر كلام المصنف كما لا يخفى عليك ان كنت ذا تيقظ * وأرق من باب فرح من الأرق وهو كما فى القاموس السهر بالليل لما قيل ان فى البيت ايجازا الحذف والتقدير أرقت ليلك فحذف المتعلق وقد لا يعلق أرقت بمفعول وهو أولى ليعم السهر أوقاته ويفيد أنه لا ينام ليلا ولا نهارا فضول من الكلام وان وقع من شيخ الاسلام وعلى منواله قوله فى دمعا وطلل حذف أيضا والتقدير دمعا من عينيك على طلل لأحبابك اه والبان شجر يسمو ويطول فى الاستواء ليس لعوده صلابة والعلم مطلق جبل وقيل الطويل * ومعنى البيت انك لو لم تكن ذا هوى لما أرقت دمعك على جسمك البالى * ولما فرقت بالأرق ديباج الليالى لكنك أرقت وأرقت فانبأت عن وجد متقادم وهوى متراكم وانما كان الارق ناشئا عن الذكر لانه يوجب كما تقدم مضاعفة الحرارة فتفنى رطوبات الدماغ الناشئة عن صعود أبخرة المعدة اليه * وذلك أن سبب النوم وجود تلك الرطوبات بالدماغ والسبب فيه كثرة الطعام والشراب فتشتغل الحرارة بهضمها ويضعف ما يصل منها الى الدماغ فتجمد الرطوبات ويحصل النوم والسبات ومن أعذب ما قيل فى الجمع بين الأرق والبكاء قول ابن الفارض

فسهدى حى فى جفونى مخلد * ونومى بها ميت ودمعى له غسل

وحديث الارق كثير فى كلام الشعراء ونصر فوا فيه تصرفات كثيرة واشتكوا من طول الليل ووقوف النجوم كما هو شهير * ومن أعذب ما قيل فى ذلك قول بعضهم

لما رأيت النجم ساه طرفه * والقطب قد ألقى عليه سباتا
وبنات نعش فى الحداد سوافر * أيقنت أن صباحهم قد ماتا

وفى معناه قول ابن الفارض

ونومى مفقود وصبحى لك البقا * وسهدى موجود وسقمى نامى

وما ألطف قول بعضهم مظهر التجلد مخاطبا الليل

ياليل طل أولا تطل * لابد لى أن أسهرك * لو بات عندى قمرى * ما بت أرعى قمرك *

هذا وقد سلك الناظم بالبيت طريقة عربية بدوية فحسن له عطف العلم على البان لاجتماعهما فى خيال سكان الخيام وان لم يكونا كذلك عند أرباب الحاضرة * ومن المعجز فى ذلك قوله عز اسمه أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت * قال امام صناعة الأدب أبو يعقوب يوسف السكاكى فى مفتاح العلوم اذا علم أن الكلام فى الآية مسوق لأهل الوبر ظهرت حلاوة التنزيل وذلك أن الصور الاربع متقارنة فى خيالهم وذلك أن مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشى ذكانت عنايتهم مصروفة لا محالة الى أكثرها نفعا وهى الابل ثم اذا كان انتفاعهم بها لا يحصل الا بأن ترعى وتشرب كان جل مرمى غرضهم نزول المطر وأهم مسارح النظر عندهم السماء ثم اذا كانوا مضطرين الى مأوى يأويهم والى حصن يتحصنون به ولا مأوى ولا حصن الا الجبال لنا جبل يحتله من نجيره * منيع يرد الطرف وهو كليل لما ظنك بانبعاث خاطرهم اليها ثم اذا تعذر طول مكثهم فى منزل ومن لأصحاب مواش بذلك كان عقد الهمة عندهم بالتنقل من أرض الى أرض من عزم الامور

*ولا أعارتك لونى عبرة وضنى * ذكرى الخيام وذكرى ساكنى الخيم*

أعارتك أعطتك على وجه العارية وهو واوى العين ومن ثم وهموا الجوهرى اذ قال ان العارية منسوبة الى العار لان طلبها عار وعيب اه فان العار يائى العين كما فى القاموس وانما وجه التسمية هو أن العارية متداولة بين المعير والمعار والتداول التعاور ولونى تثنية لون وهو احدى الكيفيات المحسوسة * قال الامام الرازى اللون بأنواعه متصور تصورا أوليا فلا يعرف بحد ولا رسم واختلف فى أصل الالوان فقيل البياض والسواد وقيل والصفرة والحمرة والخضرة والبقية تحصل بالتركيب منها وعليه فما فى البيت من الاصول لان لون العبرة الحمرة من حيث المزج بالدم كما تقدم ولون الضنى الصفرة والعبرة سيلان الدمع وتطلق على الدمعة السائلة أخذا من العبور بمعنى المجاوزة لمجاوزة الدمع العين الى الخد والضنى المرض والصفرة ناشئة عنه وبهذا تعلم أن الاضافة ليست على نسق واحد والخيام جمع خيمة وهى بيت تبنيه العرب من العيدان ويجمع على خيمات وخيم * وعن أبى منصور أن الخيمة خباء من صوف ونقل شيخ الاسلام عن بعض مشايخه أن خيام العرب محل اقامتهم ومنه خيم بالمكان اذا أقام به اه ومعنى البيت لولا الهوى لم تعرك ذكر الخيام وساكنيها حمرة الدمع وصفرة الضنى ومن البين أنه لا حقيقة للاعارة فى المقام فاما أن يقال شبه اثارة الذكرى لمزج الدمع بالدم وللضنى وصفرته بالاعارة بجامع أن كلا يوجب حصول الشئ لا على وجه الاستقرار فتكون فى الفعل تبعية أو يقال شبه الهيئة المنتزعة من اثارة الذكرى لهما بالهيئة المنتزعة من اعارة المعير للشئ واستعمل اللفظ الموضوع للثانى فى الاول على طريقة التمثيل والغرض

من الاستعارة التنبيه على عدم أصالة اللونين فيه فيتم بهما الاستدلال وعلى شدة تأثير الذكرى فيهما حتى كأنهما من أملاكها وعلى أن حمرة الدمع وصفرة الضنى مما يتزين بهما المحب كما هو الشأن في المستعار وفي رواية عن المصنف ثوبي عبرة الخ وعليها فالاضافة اضافة مشبه الى مشبه به بجامع الاشتمال * ومثله كثير في الشعر قال ابن سهل

وانى لثوب السقم أجدر لابس * وموسى لثوب الحسن أملح مرتدى

وقال أيضا وجدت بثوب التبر فوق مورّس * وضن بثوب الدر فوق مورّد

وقال القاضي الارّجاني

غالطتني من كست جسمي ضنى * كسوة أعرت من اللحم العظاما

ثم قالت أنت عندي في الهوى * مثل عيني صدقت لكن سقاما

وما ألطف قول ابن العفيف

* سهر الجفون يلذ للمشتاق * والسقم خير ملابس العشاق

فاختر سهادك في الكرى عوض الكرى * واختر ضناك في الجمال الباقي

ومما قررناه يعلم أن ليس في اسناد الاعارة مجاز عقلي ولا في لوني عبرة وضنى مكنية كما ظنه شيخ الاسلام هذا وفي الجمع بين ذكرى الخيام وذكرى الساكنين واعادة المضاف مع الثاني ايماء الى أن لذات ديار الاحبة نصيبا من الحب لانها مطالع شموس المودة * قال المناوي في شرح الجامع الصغير علامة صدق المحبة أن يحب كل ما ينسب الى المحبوب اه وقد خرج المصنف بذلك عن طريق من يقول أمرّ على الديار ديار ليلى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا

وتقلد مذهب أبي فراس اذ يقول

على ربع العامرية وقفة * يمل عليه الشوق والدمع كاتب

ومن مذهبي حب الديار وأهلها * وللناس فيما يعشقون مذاهب

وهو منتزع من قول البحتري

فسقى الغضى والساكنيه وانهم * شبوه بين جوانحي وضلوعي

﴿فكيف تنكر حبا بعدما شهدت * به عليك عدول الدمع والسقم﴾

كيف استفهام تعجبي والانكار ضد الاعتراف ويستعمل ثلاثيا كقول الأعشى

وأنكرتني وما كان الذي نكرت * من الحوادث الا الشيب والصلعا

وشهدت بمعنى أخبرت من شهد عند القاضي اذا أخبر بما يعتقد في حق المشهود له وعليه وعدول جمع عدل وأصله المصدري ضد الجور وقد كثر استعماله في الشاهد المرضي المقنع في الشهادة اما بملاحظة مضاف أي ذو عدل أو مبالغة في الاتصاف حتى جعل عين الوصف كما قيل في قوله * فانما هي اقبال وادبار * وعليهما يلتزم افراده كما هو شأن المصادر واما باعتبار التأويل باسم الفاعل فيصح فيه التثنية والجمع والافراد وعلى ذلك قولهم عدل وعدول كما في شيخ الاسلام والسقم المرض وهو في البيت بفتحتين ويضم أوله ويسكن ثانيه قال صاحب العدة وكثيرا ما تتعاقب الصيغتان كالبخل والبخل والعرب والعرب والعجم والعجم وكلمة

ما مصدرية صلتها الفعل بعدها كما قاله ابن القصار وقول شيخ الاسلام انه بعيد لذكر العائد في صلتها فهي اسمية موصولة أو موصوفة غفلة بينة فان ضمير به يرجع الى الحب المشهود به المتقدم كما هو بين * وفي قوله شهدت استعارة تبعية تشبيها للدلالة البينة بالشهادة واضافة العدول الى الدمع والسقم على طريق قوله

والريح تعبث بالغصون وقد جرى * ذهب الاصيل على لجين الماء

وفيه ترشيح للاستعارة * والمعنى كيف يتأتى لك انكار الحب وقد قام باعبائه شاهدان لا ترد شهادتهما في شرعة الهوى هما الدمع والسقم ومما قيل في معناه قوله

وعندي شهود للصبابة والأسى * يزكون دعواي اذا جئت أدعي

سقامي وتسهيدي وشوقي وأنتي * ووجدي وأشجاني وحزني وأدمعي

وفي الجمع بين الانكار والشهادة والعدول مراعاة النظير ومن جيدها قوله

أصح وأقوى ما سمعناه في الندى * من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث ترويها السيول عن الحيا * عن البحر عن كف الأمير تميم

وقد ذكرني معنى البيتين ما انتزعه منهما بعض أهل فاس على عهد السلطان مولاي محمد وذلك أنه اجتمع في مجلس السلطان فأنشد بعض الحاضرين قول الشاعر

سألت الندى هل أنت حر فقال لا * ولكنني عبد ليحيى بن خالد

* فقلت شراء قال لا بل وراثة * توارثني عن والد بعد والد

فقال السلطان ان ذلك لغاية في بابه فقال ذلك البعض لو شئت لقلت أحسن منه وأنشد

ولما رأيت الجود في البحر فاشيا * ومن جوده الدر النظيم المنضد

فقلت ومن في الناس علمك الندى * فقال أمير المؤمنين محمد

فتعجب السلطان والحاضرون لارتجاله وجودة مقاله وأعطاه السلطان جائزة عظيمة * ومن جيد مراعاة النظير قول ابن الفارض رحمه الله

بانكساري بذلتي بخضوعي * بافتقاري بفاقتي بغناكا

ومنها على طريق الشاهد الاول قول أحمد الخطابي

روت لي أحاديث الغرام صبابتي * بأسنادها عن بانة العلم الفرد

عن الدمع عن طرفي القريح عن الجوى * عن الشوق عن قلبي الجريح عن الوجد

﴿وأثبت الوجد خطي عبرة وضنى * مثل البهار على خديك والعنم﴾

الوجد الحزن وخطي تثنية خط وهو معروف والبهار ورد أصفر * وفي مفردات الفاسي نقلا عن الصقلي أنه النرجس البستاني والعنم شجرة حجازية لها ثمرة حمراء تشبه البنان المخضوب كذا في القاموس والمراد بالخطين الاثر الناشئ عن كل من العبرة والضنى فأثر الاول جراحات الخد بكثرة جريان الدمع عليه وأثر الثاني صفرته * ومعنى البيت أن الحزن أثبت ذينك الخطين على الخد تتميما لشهادة الدمع والسقم كما يفعل الحاكم بوثائق الشهادة دلالة على قبولها وثبوت الحق بها وقد أجاد في ذلك كل الاجادة وناسب بين البيتين غاية المناسبة (هذا) ومن أعذب ما قيل في الخط على الخد قول ابن سهل

رشأ يهيم بحسن منظره الرشا * يروى ويرعى فى المدامع والحشا
قلم الجمال بعض خده قد وشى * احكم على أهل الغرام بما تشا
* وقد الملاح وأنت فيهم والى *

﴿ نعم سرى طيف من أهوى فأرّقنى * والحبّ يعترض اللذات بالألم ﴾

جواب من المسؤل بالاقرار والاعتراف بالهوى بعد انكشاف حاله بالأدلة المتقدمة ورجع فى الجواب الى التكلم لبيان كون المسؤل هو المتكلم فى المعنى ولأنه لا يتأتى الاقرار مع الخطاب وليس الكلام من الاستئناف البيانى جوابا لسؤال تقديره ماقال لك المسؤل والتقدير قال نعم كما زعم شيخ الاسلام فان المقام لانشاء السؤال والجواب لا لحكايتهما كما لا يخفى وكلمة نعم حرف أفاد التصديق فيما ادّعاه السائل من كون المسؤل ذا هوى وهو محصول كلامه السابق وعليه فقوله سرى استئناف بين به سبب أرقه وما يتبعه من البكاء والضنى حتى انكشفت حاله وقد يجعل تصديقا لدعوى أنه أرّق فيكون تصريحا بما دلت عليه كلمة نعم لزيادة الايضاح ودفعا لتوهم كون الجواب منوطا بالاستفهام على حد قول ابن الفارض
يقولون لى صفها فأنت بوصفها * خبير أجل عندى بأوصافها علم
فان المناسب أن تكون كلمة أجل تصديقا للخبر وصرح به بعدها دفعا لتوهم كونها عدة للآمر ولذا اختارها على نعم لغلبتها فى التصديق حتى قال الزمخشرى وابن مالك وغيرهما انها لا تكون الا له وقد يخرج على التوزيع فتكون عدة وقوله عندى الخ تصديق الا أن المقام لا يناسب الوعد كما هو بين والاظهر أن تكون نعم فى النظم لمجرّد التأكيد نقله شيخ الاسلام عن بعض وأكثر ما يكون ذلك اذا افتتح بها الكلام فمقصود المحب شرح حاله على سبيل الاجمال بقوله سرى وبه يحصل جواب ضمنى مقنع للسائل فيما أراده وسرى وأسرى بمعنى سار ليلا فحدثه خاص بالليل الا أنه مطلق فيه كما هو شأن الحدث الفعلى فاذا قصد الاخبار بذلك المطلق استغنى بالفعل واذا أريد التقييد بالعدة أو الوصف احتيج الى التصريح بالليل محلى بما يفيد المراد وعلى ذلك جاء قوله تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا الآية فان المراد بيان الوحدة من الليل المدلولة للتنوين وأما توجيه صاحب الكشاف والقاضى بأنه صرح به للدلالة بالتنوين على البعضية أى فى بعض من الليل فغير تام اذ لا يدل تنكير الاسم على ارادة بعض منه كما لا يخفى والطيف الخيال فى النوم ويعترض بمعنى ينقص من قولهم اعترض فلان عرضى اذا وقع فيه وأنقصه كما فى الاساس أو بمعنى يمنع من الاعتراض بمعنى المنع كما فى القاموس * واللذة والألم من الكيفيات الوجدانية وفى الاشارات للشيخ تعريفهما فاللذة ادراك ونيل لوصول ماهو كمال وخير عند المدرك من حيث انه كمال وخير والألم ادراك ونيل لوصول ماهو آفة وشرّ عند المدرك من حيث انه آفة وشرّ اه وجمع بين الادراك والنيل لان مجرّد الادراك الذى هو حصول مثالى لا يوجب لذة ولا ألما ونيله من غير ادراك وصوله لا يحصل به شئ منهما * ومعنى البيت أنه سرى طيف من هو يته فايقظنى فرحا به فتبين أنه أمر خيالى وثار الحزن والتفكر وحصل الارق وكذا عادة الحب ينقص اللذة بالالم ويمنعها وقد منع لذة الوصال الخيالى واستبدلها بالارق والحزن وقد أتى بقوله والحب الخ

جاريا مجرى المثل متضمنا لكون الحب ذلك ديدنه فيتسلى به المحب بعض تسل * قال ابن حجة ضرب المثل نوع لطيف من البديع منه قول النابغة
ولست بمستبق أخا لا تلمه * على شعث أىّ الرجال المهذب
ومنه قول بشار فى معناه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى * ظمئت وأىّ الناس تصفو مشاربه
وأكثر الشعراء ضربا للمثل أبو الطيب فمن جيد أمثاله قوله
والهجر أقتل لى مما أراقبه * أنا الغريق فما خوفى من البلل
ومن أمثاله الحكمية قوله
اذا غامرت فى شرف مروم * فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير * كطعم الموت فى أمر عظيم
هذا وحديث الطيف شهير فى كلام الشعراء من ذلك فى معنى كلام الناظم قول بشار
لم يطل ليلى ولكن لم أنم * ونفى عنى الكرى طيف ألم
ومن أعذب ما قيل فيه قول بعضهم
عاتبت طيف الذى أهوى وقلت له * كيف اهتديت وجنح الليل مسدول
فقال آنست نارا من جوانحكم * يضئ منها الذى السارين قنديل
فقلت نار الجوى معنى وليس لها * نور يضئ فهذا القول مقبول
فقال نسبتنا فى الأمر واحدة * أنا الخيال ونار الشوق تخييل
ولما قطع المسؤل لجاج السائل باقراره وأظهر ما كان يكتم من أسراره وكشف عن وجهه القناع وأقرّ الخصم وارتفع النزاع
أشاعوا أننى عبد لموسى * نعم صدقوا على ّ بما أشاعوا
وقد حكت الوشاة اليوم عنى * أقرّ الخصم فارتفع النزاع
وكان احتجاجه فى السؤال ينبئ عن كونه لائما خاطبه بذلك العنوان على الطريقة السابقة من التجريد فقال

﴿ يا لائمى فى الهوى العذرىّ معذرة * منى اليك ولو أنصفت لم تلم ﴾

اللائم العاذل وبمعناهما اللاحى والعذرىّ نسبة الى بنى عذرة قبيلة من العرب تنتسب الى عذرة بن سعد بن هذيم بن زيد بن كعب بن سود بن أسلم بن الحرث بن قضاعة وكان لهذه القبيلة فى الحب شأن عظيم وشهرة طبقت الآفاق وتهالك خارج عن المعتاد فى أوان الصبا وزمن الشبيبة أفضى بهم الى سكنى القبور واختصوا بهذا الامر وصار شعارا لهم حتى قال بعض شعرائهم
اذا خلص العذرىّ من ميتة الهوى * فذاك ورب العاشقين دخيل
ومن هذا القبيل جميل صاحب بثينة ومن قوله فيما يناسب بيت الناظم مارواه الاصمعى
لا خير فى الحب وقفا لا تحرّكه * عوارض اليأس أو يرتاحه الطمع
لو كان لى صبرها أو عندها جزعى * لكنت أملك ما آتى وما أدع

اذا دعا باسمها داع ليحزننى * كادت له شعبة من مهجتى تقع

لأجل اللوم فيها والغرام بها * ما حمل الله نفسا فوق ما تسع

وعروة بن حزام صاحب عفراء وخبرهما مشهور فى الدواوين * ومعذرة مصدر ميمى منصوب عما تقديره أعذرك معذرة والانصاف العدل * ومعنى البيت أيها اللائم فى الهوى الذى لا يمكن زواله وانفصاله انى أعذرك عذرا منى اليك بجهلك حقيقة الهوى وعدم مكابدتك الشوق والجوى ومع ذلك لو ارتكبت طريقة الانصاف والعدل لم تلم فان من غلب عليه الشوق والهيام وصارت حاله بين انسجام واضطرام لا يخاطب بالملام كما قال أبو مدين رضى الله عنه

فلا تلم السكران فى حال سكره * فقد رفع التكليف فى سكرنا عنا

وفى وصف الهوى بكونه عذر بالسكنى به عن عدم زواله كما بينا ايماء الى وجه عدم الانصاف فى اللوم لانه اذا علم أن الحب لا يزول فلا معنى للوم فيه كما قال قيس بن الملوح مجنون العامرية

يلومون قيسا بعد ما شفه الهوى * فتى دنفا أمسى من الصبر خاليا

وفى معنى قوله معذرة منى اليك على ما بينا مقول ابن الفارض

قل للعذول أطلت لومى طامعا * أن الملام عن الهوى مستوقفى

دع عنك تعنيفى وذق طعم الهوى * فاذا عشقت فبعد ذلك عنف

وفى قوله لو أنصفت الخ اشارة الى أن لومه فضول من حيث اشتغاله بمليمة غيره وما لا يعود عليه منه ضرر فان ضرر المحب على نفسه كما قال بعض المشايخ التونسية مضمنا

قالوا بكاؤك ضرنا فأجبتهم * الدمع دمعى والعيون عيونى

وما ألطف ما احتج به ابن الفارض فى قوله

وقال اسل عنها الائمى وهو مغرم * بلومى فيها قلت فاسل ملامى

وقد أخذه أبو عبد الله الورغى فقال

ان أبت نفسك من نعمى لها * فأنا ذا عاذل فى العذل

واذا لم تذق المعنى فلا * تنفرد بالقول فيه وسل

هذا واللوم من لوازم الحب غالبا وسببه فى الغالب دخل فى قلب اللائم اما من جهة المحب واما من جهة المحبوب كما قال أبو الطيب

عواذل ذات الخال فى حواسد * وان ضجيع الخود منى لماجد

وقد يكون لمجرد الرأفة بالمحب الا أنه ملحق بالاول فى الكراهة عنده لما فيه من معارضة الصبابة ومضاعفتها كما قال على بن العباس الرومى

لا تكثرن ملامة العشاق * فكفاهم بالوجد والاشواق

ان البلاء يطاق غير مضاعف * فاذا تضاعف كان غير مطاق

لا تطفئن جوى بلوم انه * كالريح تغرى النار بالاحراق

وقد يستعذب لما يتضمنه من ذكر الحبيب فترتاح اليه نفس المحب وعليه جاء قول ابن الفارض رحمه الله

أدر ذكر من أهوى ولو بملامى * فان أحاديث الحبيب مدامى

ليشهد قلبى من أحب وان نأى * بطيف ملام لا بطيف منام

ومنه قول بعضهم

أجد الملامة فى هواك لذيذة * حبا لذكرك فليلمنى اللوم

وعليه قول أمين الدين

أصغى الى قول العذول بجملتى * مستفهما منه بغير ملال

لتلقطى زهرات ورد حديثكم * من بين شوك ملامة العذال

ولله در الهبرى اذ يقول

راحتى فى مقالة العذال * وشفائى سؤالهم عن حالى

لا يطيب الهوى ولا يحسن الحب لخلق الا بخمس خصال

بسماع الاذى وعذل نصيح * وعتاب وهجرة وتعالى

وهو مأخوذ من قول العباس بن الاحنف مع زيادة

وأحسن أيام الهوى يومك الذى * تروع بالهجران فيه وبالعتب

اذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضا * فأين حلاوات الرسائل والكتب

﴿عدتك حالى لا سرى بمستتر * عن الوشاة ولا دائى بمنحسم﴾

عدتك جاوزتك وهو كناية عن عدم الاصابة والحال ما عليه الانسان من خير وشر والسر ما يكتم كالسريرة وجمع الاول أسرار والثانى سرائر ومستتر مغطى من سترت الشئ غطيته والوشاة جمع واش وهو النمام الذى ينقل الحديث للافساد بين الناس سمى بذلك لانه يشى كلامه أى يزينه ليقبل منه وأصل الداء المرض وقد كثر استعماله فى البلية مطلقا والحمل عليه هنا أولى والمنحسم المنقطع من الحسم بمعنى القطع ومنه الحسام للسيف القاطع * ومعنى البيت ان حالى بينة لمن الشأن المبالغة فى الاخفاء عنه وهو الواشى فانه لاستراقه السمع ليدخل به بين المحب وحبيبه يكون أهم غرض المحب التحفظ من اطلاعه على ظاهر حاله فاذا بلغ بى الامر الى ان اطلع الوشاة على خفيات أسرارى فقد اتسع الخرق على الراقع ولم يبق لسلطان صبابتى مدافع وتبين أن هواى لا ينحسم داؤه ولا ينجع لطبيبه دواؤه كما هو شأن الهوى العذرى فلم يكن لومى حينئذ من الانصاف وبهذا تبين أن الغرض من قوله لا سرى الخ بيان الشرطية فى البيت قبله وأما قوله عدتك حالى فهو دعاء للائم قدمه على الاخبار توطئة له واستقباحا للكلام على ما هى طريقة الملاطفة فى الخطاب كقولهم أصلحك الله انه كان من الامر كذا * ومن المعجز فى تلك الطريقة قوله عز اسمه عفا الله عنك لم أذنت لهم فالمراد بقوله عفا الله عنك التلطف فى الخطاب تطمينا لنفسه عليه الصلاة والسلام قبل قوله لم أذنت لهم المقصود منه نهاية ذمهم وانهم ليسوا أهلا للرأفة والرحمة والبناء على ظواهرهم كما يقول الحبيب لحبيبه وقد فعل الخير مع من ليس له أهلا محسنا به الظن يهديك الله لم فعلت ما فعلت بفلان وليس أهلا له ومن كان ذا فطرة سليمة علم أن مثل ذلك شهادة للمخاطب بالرأفة وحسن الظن وعلى المظنون به بسوء الصنيع وشناعة الحال ومن لم تصل به الهداية الى مثل هذا قال فى الآية ما قال وتشدق بعبارات توجب له النكال أعوذ بالله من الزيغ والضلال وفى ذلك الدعاء ايماء الى أنه على شفا جرف من الوقوع لان الغالب أن من عير بشئ وقع فيه كما قال أبو الطيب

وعذلت أهل الحب حتى ذقته * فعجبت كيف يموت من لا يعشق

فعذرتهم وعرفت ذنبى أننى * عيرتهم فلقيت منه ما لقوا

(ومن ذلك) قول محمد الفراء الضرير النحوى

قيل لى قد تبدلا * فاسل عنه كاسلا

لك سمع وناظر * وفؤاد فقلت لا * قيل غال وصاله * قلت لما غلا حلا
أيها العاذل الذى * بعذابى توكلا * عد صحيحا مسلما * لا تعير فتبتلى

وما ألطف ما قالت علية بنت المهدى

ياعاذلى قد كنت قبلك عاذلا * حتى ابتليت فصرت صبا ذاهلا
الحب أوّل مايكون لجاجة * فاذا تمكن صار شغلا شاغلا

ثم ان الدعاء يحتمل الخبر بناء على مقتضى لومه من الكراهة للمحب ويحتمل الشر بناء على مايراه المحب من التلذذ بالهوى فهو على حدّ قوله خاط لى عمرو قباء * ليت عينيه سواء واعلم أن قوله لاسرّى بمستتر مأخوذ من قولهم فى المثل مايوم حليمة بسرّ يضرب للامر الظاهر وهى حليمة بنت الحرث بن أبى شمر كان أبوها وجه جيشا الى المنذر بن ماء السماء فاخرجت لهم طيبا فى مركن وطيبتهم به فنسب اليوم اليها * قال المبرد هو أشهر ايام العرب يقال ارتفع فى هذا اليوم من العجاج ماستر عين الشمس حتى ظهرت الكواكب واليه يشير النابغة فى قوله يصف سيوفا تخيرن من أزمان عهد حليمة * الى اليوم قد جربن كل التجارب

﴿محضتنى النصح لكن لست أسمعه * ان المحب عن العذال فى صمم﴾

محض الشئ وأمحضه أخلصه ومنه المحض للبن الخالص الذى لاماء فيه والنصح كالنصيحة ضد الغش مصدر نصح وتعديته باللام أفصح ولست أسمعه كناية عن عدم القبول والصمم سدد فى الاذن ومنه صمام لما تسدّ به يقال صممتها بمعنى سددتها وأصممتها جعلت لها صماما قال الخليل وسمى رجب بالاصم لانه لايسمع فيه صوت مستغيث ولاحركة قتال ولا قعقعة سلاح لانه من الاشهر الحرم والمعنى أخلصت لى نصحك أيها العاذل ولكنى لاأسمعه لانى محب وكل محب فى صمم عن العذال لقد أسمعت لوناديت حيا * ولكن لاحياة لمن تنادى ولايخفى ان جعل عذله نصحا غير حقيقى كما يشير اليه فى البيت بعده وفى البيت زيادة بيان لعدم انصافه وذلك أن النصح لايكون عذلا الا اذا كان مظنة للقبول والا كان هذرا من الكلام فان قلت عدم سماعه تبين بعد العذل فلا يكون من عدم الانصاف قلت جوابه قوله ان المحب الخ المسوق جوابا السؤال مقدّر عن السبب الخاص لانه لما نفى عن نفسه السماع كان مظنة لان يقال هل المحب أصم عن سماع العذل فقال ان المحب الخ على حدّ قول بشار بكرا صاحبىّ قبل الهجير * ان ذاك النجاح فى التبكير والمعنى أنا محب وكل محب شأنه ذلك وأتى بالقضية العامة جنوحا الى تقوية الحكم وكونه ضابطة كلية وبه يعلم ان لا التفات فيه كما زعموا وقد تلطف فى قوله ان المحب الخ حيث جعل الصمم كالحصن يحتمى به المحب للسلامة من العذال وقد تقدّم توجيه تحصن المحب عن العذل ولله در أبى الطيب اذ يقول القلب أعلم ياعذول بدائه * وأحق منك بجفنه وبمائه

فومن أحب لأعصينك فى الهوى * قسما به وبحسنه وبهائه
أأحبه وأحب فيه ملامة * ان الملامة فيه من أعدائه

﴿انى اتهمت نصيح الشيب فى عذلى * والشيب أبعد فى نصح عن التهم﴾

انتقل من حديث التشبيب الى ذكر شئ من المواعظ مقتصرا على أصلها وهو قهر النفس

الامارة على أكمل أوجه الانتقال حيث كان بأسرع مايكون مرتبطا لاحقه بسابقه أتم الارتباط مشيرا فيه الى اتهامه العاذل بالطريق الأولى * والاتهام الارتياب وأصله من الوهم ونصيح الشيب بمعنى ناصح هو الشيب وهو بياض الشعر والمشيب الدخول فى حدّ الشيب قال الاصمعى والعذل بالتحريك اسم من العذل باسكان الذال * ومن التهم يتعلق بأبعد من حيث أصل المادّة والمعنى انى استربت الشيب فى نصحه والحال أنه بعيد من الاتهام فكيف حال من هو أهل للاتهام من العذال فان لهم أغراضا بينة تحملهم على العذل ومعنى اتهامه تتوقف على بيان نصحه فنقول انه اذا حل المشيب أمر بلسان حاله بالاقلاع عن الملاهى واتباع أحوال الشيبة ومقتضى حرارة الفتوة لبعد التناسب وعدم الملاءمة كما قال الكميت

طربت وماشوقا الى البيض أطرب * ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب

وقال أبودلف نظرت الىّ بطرف من لم يعدل * لما تمكن حبها من مقتلى
لما رأت وضح المشيب بلمتى * صدت صدود مجانب متجمل
فجعلت أطلب وصلها بتلطف * والشيب يغمزها بأن لا تفعلى

وعليه قول بعضهم ولى الشباب وكنت تسكن ظله * فانظر لنفسك أى ظل تسكن
ونهى المشيب عن الصبا وأنه * بدلى بجمته الى من يلقن

ولذلك ورد فى الحديث الشريف خير شبابكم من تشبه بكهولكم وشر كهولكم من تشبه بشبابكم وآذن بضعف القوى وقرب المنية والارتحال الموجب لاشتغال النفس اليقظى بالتزوّد من التقوى والاعمال الصالحة والندم على الفائت وان شئت يقينا فى ذلك فانظر ماتحكيه علت كلمته عن زكرياء عليه السلام ربى انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا وما ألطف قول يحيى بن خالد البرمكى

الشيب احدى الموتتين تقدمت * أولاهما وتأخرت أخراهما

واتهامه مغالطته وادعاء أنه حصل قبل ابانه لعلة بدنية أو توالى كدرات كما قال تميم بن خزيمة

قالت تغيرت قلت الدهر غيرنى * والهم شيبنى ماشبت من كبر

وقد أكثر الشعراء من مغالطته وارتكاب مطايا التوجيه الشعرى قال الكاتب العمانى

وقالوا أفق عن سكرة اللهو والصبا * فقد لاح شيب فى دجاك عجيب
فقلت أخلائى دعونى ولذتى * فان الكرى عند الصباح يطيب

وقال غيره فى معناه وقائلة خل الهوى لرجاله * فان الهوى بعد المشيب جنون
فقلت لها ان الهوى فيه راحة * ألذ الكرى عند الصباح يكون

وما ألطف قول بعضهم نظرت الى رأسى فقالت ماله * قد ضم فوديه قناع أدكن
ياهذه لولا النجوم وحسنها * لم تألف الليل البهيم الأعين
فتضاحكت عجبا وقالت يافتى * نقصان عقلك فى قياسك بين
الليل يحسن بالنجوم وانما * ليل الشباب بلا نجوم أحسن

(واعلم) أن الشيب نور للمؤمن يوم القيامة لحديث من شاب شيبة فى الاسلام كانت له نورا يوم القيامة * وعن أنس رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى

وعزتي وجلالي وفاقة خلقي الي اني لأستحي من عبدي وأمتي يشيبان في الاسلام أن أعذبهما ثم بكى صلى الله عليه وسلم فقيل له ما يبكيك يا رسول الله فقال أبكي ممن يستحي الله منه وهو لا يستحي من الله * وعن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ان من حق اجلال الله اكرام ثلاث ذو الشيبة المؤمن وذو السلطان المقسط وحامل القرآن غير الجافي فيه ولا الغالي

﴿فان امارتي بالسوء ما اتعظت * من جهلها بنذير الشيب والهرم﴾

الفاء لتفصيل السابق والحمل على التعليل يأباه جزالة المعنى والأمارة فعالة من الامر والمراد بها النفس من حيث ميلها للشهوات واتباع الهوى وأصله ان النفس التي هي حقيقة المشار اليه بقولك أنا لطيفة ربانية روحانية لها تعلق بالقلب وهي المسماة بالروح الروحاني على رأي تنقسم باعتبار أحوالها الى أقسام ثلاثة أعلاها المطمئنة المخاطبة في قوله عز اسمه يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية * وحالتها أن تسكن تحت الامر وتثبت لها العصمة من المعاصي بسابقة السعادة من الله تعالى وتليها اللوامة المقسم بها في قوله جل ثناؤه لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة وحالتها أن لا يتم لها السكون وأن تكون مانعة للشهوات راجعة على نفسها بالملام اذا وقعت في مخالفة بسابق القضاء وأدنى الاقسام الامارة وحالتها أن تذعن لامر الشهوات ولا تميل الى طريق رشاد ويكون غالب أمرها الانبعاث الى السوء وهو اسم جامع لجميع القبائح * والاتعاظ مطاوعة الوعظ وهو النصح وتذكير العواقب وقد قيل السعيد من وعظ بغيره والشقي من اتعظ به غيره والجهل ضد العلم وقد يطلق على المعاصي كما هنا لكونها تنشأ عنه قال الفخر في تفسير قوله تعالى انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة الآية ان المعصية لا تصدر من العالم لان الداعي لفعلها اقتضى ترجيحها فان كان المكلف حينئذ عالما بانها معصية وان تركها أرجح من فعلها وتعمد فعلها فهو جاهل لتقديمه المرجوح على الراجح فلا بد أن يكون ذلك بداع اقتضى عنده ترجيح المرجوح وترجيح المرجوح جهل اه وفي تفسير الأبي عن شيخه الامام ابن عرفة رضي الله عنه انه بحث فيه بانه يلزم عليه اجتماع النقيضين لان علمه اقتضى ان الترك راجح والداعي اقتضى ان الفعل راجح فيجتمع النقيضان اه ولا يخفى ان اختلاف الجهة يدفع التناقض وان الجهل بتقديم مقتضى الداعي على مقتضى العلم وفي تفسير القاضي أن ارتكاب المعصية سفه وتجاهل ولذا قيل من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع من جهالته اه والجار متعلق باتعظت على تضمين معنى التنبه والتيقظ وبنذير يتعلق به وباؤه للسببية أو الاستعانة وهو من الانذار بمعنى التخويف والهرم بالتحريك كبر السن * والمعنى ان نفسي الامارة لم تتنبه من جهلها وغفلتها وانهماكها في اتباع الشهوات بالشيب وكبر السن وهما نذيران مخوفان من حيث انهما يقربان الموت المفوت للتوبة والاعمال الصالحة وبفوات الرفق من الحفظة والدخول تحت ربقة ضبط الامر وتحقيقه * ففي مسند الامام احمد عن عبادة بن الصامت مرفوعا يقول الله للحافظين ارفقا بعبدي في حداثة سنه فاذا بلغ الاربعين قال احفظا وحققا اه وقد قرر كلام الناظم على وجه من التعسف بمكان فراجع شيخ الاسلام

ان شئت الاطلاع عليه * هذا والهرم هو أرذل العمر المعلوم حاله من قوله عز اسمه ومن نعمره ننكسه في الخلق ولذا كان من دعائه عليه الصلاة والسلام اللهم اني أعوذ بك من أن أرد الى أرذل العمر وقال عبد الرحمن بن الصديق رضي الله عنهما من تمنى طول العمر فليوطن نفسه على المصائب أقلها فقد الأحبة والقرابة ولقد أحسن لبيد بن الاعصم

المرء يأمل أن يعيش وطول عيشه قد يضره
تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره

ولذا كان من كرامة هذه الامة على نبيها أفضل الصلاة والسلام قصر أعمارها بالنسبة الى الامم السالفة * قال حذيفة قالوا يا رسول الله ما أعمار أمتك قال مصارعهم ما بين الخمسين والستين قالوا يا رسول الله فابناء السبعين قال قل من يبلغها من أمتي فرحم الله أبناء السبعين ورحم الله أبناء الثمانين * وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أعمار أمتي في أعمار من مضى الا كما بين العصر الى مغرب الشمس * قلت وبه يفسر ما رواه البخاري انما زمانكم فيمن سلف قبلكم من الامم كما بين صلاة العصر الى غروب الشمس أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا بها الى الظهر ثم عجزوا فاعطوا قيراطا قيراطا ثم أوتي أهل الانجيل الانجيل فعملوا به الى صلاة العصر ثم عجزوا فاعطوا قيراطا قيراطا ثم أوتينا القرآن فعملنا به الى غروب الشمس فاعطينا قيراطين قيراطين فقال أهل الكتاب أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطا قيراطا ونحن أكثر عملا منهم فقال الله سبحانه هل ظلمتم من أجركم شيأ قالوا لا فقال ذلك فضلي أوتيه من أشاء اه فالمقصود من الحديث الدلالة على قصر أعمار أمته بالنسبة الى من قبلهم وان عملهم في ذلك العمر يترتب عليه ضعف ثواب عمل من قبلهم وليس المقصود تقدير زمن بقاء ملته عليه السلام بالنسبة الى زمن بقاء الملل السالفة كما ذكره شهاب الدين في اليواقيت (واعلم) أن من العقل عدم الرضا عن النفس واتهامها في جميع الاحوال ومخالفتها في جميع مطالبها وأن لا ينظر اليها نظر استحسان وكمال كما فعل الناظم اقتداء برابع الكرماء المحكي عنه في قوله عزت كلمته وما أبرئ نفسي ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي

﴿ولا أعدت من الفعل الجميل قرى * ضيف ألم برأسي غير محتشم﴾

عطف على سابقه وأعدت هيأت والقرى بالكسر الضيافة التي تصنع للضيف وهو يقال للواحد والجمع وقد يجمع على أضياف وضيوف وضيفان وهي ضيف وضيفة كذا في القاموس وفي الاساس ضاف اليه ومنه مال وضافت الشمس وضيفت وتضيفت مالت الى الغروب وألم نزل ومحتشم اسم فاعل من الاحتشام في القاموس الحشمة بالكسر الحياء والانقباض احتشم منه وعنه وحشمه واحتشمه أخجله اه والمعنى أن نفسه للؤمها لم تهيئ ضيافة الشيب النازل بالرأس ضيفا من أفعال البر والاعمال الصالحة ووصف الضيف بعدم الاحتشام كناية عن كرمه لان موجب احتشام الضيف عدم الاختلاط بالمضيف وظنه ادخال الكلفة عليه والكريم لا يرى من نفسه ذلك كما هو بين ولذا قيل لا يأبى الكرامة الا لئيم وفي ذلك زيادة بيان للؤم نفسه فان عدم الاعتناء بالضيف الكريم أدل عليه * وقد

جاء الحث على اكرام الضيف فى قوله عليه الصلاة والسلام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن تسمية الشيب ضيفا قول بعضهم

أناخ الشيب ضيفا لم أرده * ولكن لا أطيق له مردّا
رداء للردى فيه دليل * تردّى من به يوما تردّى

وسبيله سبيل الاستعارة المصرّحة والقرى والالمام وعدم الاحتشام فى بيت الناظم ترشيح ومن أبلغ ما قيل فى اللؤم مع الاضياف قوله

مات الكرام وولوا وانقضوا ومضوا * ومات من بعدهم تلك الكرامات
وخلفونى فى قوم ذوى بخل * لو أبصروا طيف ضيف فى الكرى ماتوا

هذا والمصراع الثانى أصله لأبى الطيب فى مطلع قصيدة وهو

ضيف ألمّ برأسى غير محتشم * والسيف أحسن فعلا منه باللمم
ابعد بعدت بياضا لا بياض له * لأنت أسود فى عينى من الظلم

نظمه المصنف فى سلك بيته على ما هى طريقة التضمين الشعرىّ غير أنه غير اعرابه ولا ضير فيه قال الخطيب التضمين أن يضمن الشعر شيأ من شعر الغير مع التنبيه عليه ان لم يكن مشهورا كقول الحريرى

على أنى سأنشد يوم بيعى * أضاعونى وأىّ فتى أضاعوا

وأحسنه ما زاد على الاصل بنكتة كالتورية أو التشبيه فى قوله

اذا الوهم أبدى لى لماها وثغرها * تذكرت ما بين العذيب وبارق
ويذكرنى من قدها ومدامعى * مجرّ عوالينا ومجرى السوابق

ولا يضرّ التغيير اليسير وربما سمى تضمين البيت بما زاد استعانة وتضمين المصراع بما دونه ايداعا ورفوا اه ومن شواهده مطابقة المقتضى المقام ما أنشده ابن رشيق لمحمود بن الحسين كشاجم

يا خاضب الشيب والايام تظهره * هذا شباب لعمر الله مصنوع
أذكرتنى قول ذى لب وتجربة * فى مثله لك تأديب وتوبيخ
ان الجديد اذا ما زيد فى خلق * تبين الناس أن الثوب مرقوع

*(لو كنت أعلم أنى ما أوقره * كتمت سرّا بدا لى منه بالكتم)*

أوقره أعظمه من التوقير بمعنى التعظيم ومنه ما لكم لا ترجون لله وقارا أى لا تخافون لله عظمة قاله الاخفش* والكتم بالتحريك والكتمان بالضم نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر فيبقى لونه وأصله اذا طبخ كان منه مداد للكتابة كذا فى القاموس والمعنى لو كنت أعلم أنى لا أعظم الشيب لاخفيت أول ما بدا منه وهو سرّه لخفائه بالخضاب حتى لا يظهر غير موقر وقد أخذ توقيره مما روى ان أول من رأى الشيب ابراهيم عليه السلام فقال ما هذا يا رب فقال وقار يا ابراهيم فقال يا رب زدنى وقارا فأصبح وقد عمه الشيب* قال شيخ الاسلام وقد اختلف العلماء فى الخضاب فقيل هو أفضل من تركه وقيل تركه أفضل وقيل ان كان الغرض منه اظهار بقاء الشباب ارهابا بالعدوّ فهو أفضل والا فالترك أفضل ومذهب مالك كراهته وفى الاكمال للقاضى عياض عن بعضهم ان حكمه تابع للعوائد فمن كان فى بلد عادة أهله الصبغ فهو أولى ومن كان فى بلد عادة أهله عدمه كان الترك أولى لان الخروج عن العادة مكروه وقيل

من

من كانت شيبته نقية فالترك له أولى ومن كانت شيبته تستبشع فالصبغ له أولى اه وفى معنى البيت قول بعضهم

شبت والشيب فناء والفتى * نفسه أدعى الى دعوى الكرم
فترامبت الى صوب الصبا * وكتمت الشيب فى قلب الكتم

وفى معناه قول الشيخ ابن عصفور

لما تدنست بالتفريط فى كبرى * وصرت مغرى بشرب الراح والعس
رأيت أن خضاب الشيب أجدر بى * ان البياض قليل الحمل للدنس

وقال ابن الرومى فى عدم انجاح صناعة الخضاب

يا أيها الرجل المسوّد شيبه * كيما يعدّ به من الشبان
أقصر فلو سوّدت كل حمامة * بيضاء ما عدّت من الغربان
هبك استعرت من الشبيبة حسنها * هل تستطيع نشاطة الصبيان

وما ألطف ما قال بعضهم

قالت أراك خضبت الشيب قلت لها * سترته عنك يا سمعى ويا بصرى
فاستضحكت ثم قالت من تعجبها * تكاثر الغش حتى صار فى الشعر

*(من لى بردّ جماح من غوايتها * كما يردّ جماح الخيل باللجم)*

الردّ الصرف والجماح بالكسر مصدر جمح الفرس كمنع جمحا وجماحا وجموحا اعتز فارسه وغلبه فهو فرس جموح كذا فى القاموس وفى الأساس من المجاز جمحت المرأة الى أهلها ذهبت اليهم من غير اذن بعلها وفلان جموح وجامح راكب لهواه قال الشاعر

خلعت عذارى جامحا ما يردّنى * عن البيض أمثال الدمى زجر زاجر

لولوا اليه وهم يجمحون أى يجرون اه والغواية الضلالة والخيل اسم جمع واحده فرس من غير لفظه وقيل جمع واحده خائل كركب وراكب واللجم جمع لجام فارسى معرّب والمعنى أنه يطلب على وجه التضرع والاستعطاف من يتكفل له بردّ نفسه من غوايتها بردّ قوى كما يردّ جماح الخيل باللجم والاظهر أن يكون الطلب استبعادا فانها لما لم ترعو بالشيب وقرينه المؤذنين بقرب الرحيل استبعد أن يحصل على متكفل له بردها وهذه الكلمة شائعة فى الاستبعاد وتتبع كلام الشعراء شاهد له ومن أعذبه قول بعضهم

من لى بسلمى وفى أجفان مقلتها * للحرب بيض حداد قط ما صفحت

وقوله من غوايتها بيان لجماح تشبيها لها به بجامع الاعتزاز بكل وغلبته وبذلك البيان خرج الجماح عن طريق الاستعارة الى التشبيه كما خرج به الخيط الابيض والخيط الاسود عنها اليه فى قوله تعالى وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الأسود من الفجر أى ومن ظلام الليل ثم الغرض من ذلك الاستبعاد الايماء الى صعوبة الامر وشدة مقاساة الأهوال فى ردّ النفس عن غوايتها ومن ثم سمى جهادا بل أعظم الجهاد كما قال عليه الصلاة والسلام أفضل الجهاد جهاد نفسك وهواك *وكان الصحابة رضوان الله عليهم اذا رجعوا من قتال العدوّ قالوا رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ومن ثم رتب عليه الثواب الجزيل فى قوله عز اسمه وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة

هي للأوى وأجلّ ذلك كله احتقارها ولذا كان جلّ أمر الاكابر قهرها واهانتها واذا عرض لهم أمر هو مظنة الرضاع عنها بادروا الى كسر سورته بنقيضه روى أن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى عاتقه قربة ماء فقلت يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا فقال لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخل نفسي شئ فأحببت أن أكسرها ومضى بالقربة الى حجرة امرأة من الانصار فأفرغها في انائها اه ولقد أحسن أبو العتاهية حيث يقول

أشدّ الجهاد جهاد الهوى * وما كرم المرء الا التقى
واخلاق ذي الفضل معروفة * ببذل الجميل وكف الأذى

﴿فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها * انّ الطعام يقوّي شهوة النهم﴾

لما كان الغرض من ذكر هذا النزر من التصوّف تنبيه الغافل ووعظ السامع ارتكابا لنصيحة الائمة الواجبة بقوله عليه الصلاة والسلام الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولرسوله ولكتابه ولائمة المسلمين وعامتهم استفتح ذلك بتذكير نفسه وذمها خروجا من مذمة قوله تعالى أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون وجه خطابه هنا لكل من يصلح للخطاب تعميما للموعظة كما هو شائع في الكلام وكم له من شاهد في التنزيل واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا * ونكتة الخطاب الاعتناء بشأن الامر والتحريض على القبول فان للمشافهة مدخلا في تأثير مقاصد الكلام لا ينكر * والفاء تحتمل ان تكون الفصيحة أي اذا تبين لك أن النفس أمّارة وأنها مائلة الى الشهوات فلا ترم الخ لا يقال ان الذي تبين حال نفسه فلا يظهر اللزوم لانا نقول لكل انسان نفس أمّارة الا المعصوم وتحتمل العطف والدلالة على التراخي الرتبي كما علمت وترم مضارع رام الشئ روما اذا طلبه والمعاصي جمع معصية من العصيان ضدّ الطاعة وهو فعل محرم أو ترك واجب والكسر مصدر كسرت الرجل عما يريده كسرا صرفته عنه كذا في شيخ الاسلام ولم يذكره صاحب القاموس والاساس والمعروف أنه تفريق أجزاء الشئ الصلب يقال كسرته وكسرته فانكسر وتكسر ولا يخفى لطف استعارته هنا والشهوة ميل النفس والنهم بالكسر اسم فاعل من النهم بالتحريك في القاموس النهم محركة والنهامة كسحابة افراط الشهوة في الطعام وأن لا تمتلئ عين الآكل ولا يشبع نهم كفرح فهو نهم ونهيم ومنهوم اه ومن الاخير حديث منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال وليس من نهم بكذا فهو منهوم ولع به لعدم ملاءمته للشبع ولا يخفى أن الالفاظ الثلاثة بمعنى اسم الفاعل وان كان ثالثها على صيغة المفعول وسبب النهم عند الاطباء استيلاء الحرارة الغريزية في المعدة على ما يقع فيها والمعنى لا تطلب صرف النفس عن شهوتها بارتكاب المعاصي ظنا منك أنها اذا اقضت وطرها منها صدّت عنها وملتها فيكون صرف عنانها الى المعاصي راد الها بلين ورفق ثم ضرب لذلك مثلا وهو النهم فانه اذا أكل من الطعام تقوّت شهوته وربما كانت ساكنة قبل فكذا حال النفس اذا أخذت في المعاصي قويت شهوتها وصعب اقلاعها عنها لالفها بها ولأن بعض الشرّ يقود الى بعض ولذا نهى عن الوقوع في مشتبهات الامور كما ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في

الشبهات وقع في المحرّمات كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألا وان لكل ملك حمى ألا وان حمى الله محارمه ألا وان في القلب مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب اه وبما قرّرناه ظهر قياس المصنف واتضح دليله واندفع عند التأمل ما قيل عليه من أن دليله غير ظاهر فان النهم انما تقوى شهوته الى الطعام اذا لم يشبع منه أما اذا شبع فقد أخذ حاجته منه اه وكذا ما قال بعضهم ان الدليل أخص من المدّعى لان قوله لا ترم الخ يدل على أن الشهوة لا تنكسر بل تتضاعف وعلى أنه اذا لم يتدارك نفسه كما شهد له الدليل الثاني والاوّل لا يدل عليه اه وقد تبين لك مما بيناه أن ليس غرض الناظم النهي عن ارتكاب المعاصي بل النهي عن سياسة النفس بها فلا يتجه قول شيخ الاسلام واتيانه بالنهي دون أن يقول أقلع عن المعاصي ليفيد من أول الأمر أنها مطلوبة الانتفاء بحيث لا يصح أن يتلبس بها وأورد أن النهي عن اتيانها على وجه خاص والنهي عن الخاص ليس نهيا عن العام وأجاب بما ينافي صدر تقريره كما يعلم بمراجعته * هذا وفي معنى البيت ما قيل

خف الله واحذر من عواقب شهوة * مسرّتها تفنى ويبقى لك الوزر
ولا تحقرن ذنبا صغيرا تضيفه * الى مثله فالسيل أوّله قطر

﴿والنفس كالطفل ان تهمله شبّ على * حبّ الرضاع وان تفطمه ينفطم﴾

تمثيل ثان لحالة النفس يتقرر به أمر ذلك النهي والطفل المولود فاذا فطم فهو فطيم وجمعه أطفال وقد يقال الطفل للجمع وعليه قوله تعالى أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء واهماله تركه ونفسه ومنه الهمل بالتحريك وهي الابل بلا راع ومنه قول الطغرائي

قد رشحوك لأمر ان فطنت له * فاربأ لنفسك أن ترعى مع الهمل

وعليه المثل اختلط المرعيّ بالهمل وشب يشب بكسر الشين اذا كبر والرضاع مصدر رضع في القاموس رضع أمه كسمع وضرب رضعا ويحرك ورضاعا ورضاعة ويكسران ورضعا ككتف فهو راضع والجمع كركع ورضع ككتف والجمع كعنق امتص ثديها اه وتفطمه تفصله عن الرضاع وينفطم مطاوعه والمعنى أن النفس اذا تركتها وشهواتها تمادت عليها وألفتها واذا صرفتها عنها انصرفت كما هي حالة الطفل وفيه شهادة لتضاعف شهوتها بالمعاصي وعدم انكسارها وايماء الى جبلها على حب الشهوات حيث كانت لها كالرضاع للطفل الذي به قوامه والى أنها في طوع صاحبها وتحت رعيه بحيث لا تمييز لها بين النافع والضارّ وأصل هذا المعنى لأبي دلف في قوله

والنفس راغبة اذا رغبتها * واذا تردّ الى قليل تقنع

وتصرّف فيه الناظم بالتشبيه فعذب وزاده حسنا باجمال وجه الشبه ثم تفصيله * ومن المجز في هذا قوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ وعليه قول بعضهم

الصبر كالصبر مرّ في مذاقته * لكن عواقبه أحلى من العسل

وليس منه قول ابن المعتز

والليل كالحلة السوداء لاح به * من الصباح طراز غير مرقوم

كما يعلم بالتأمل هذا وقد تفنن الناظم فيما أراده من التمثيل فأتى به في هذا البيت ظاهرا

مصرّحا بالتشبيه وأتى به فى البيت قبله على صورة الدليل رامزا الى التشبيه على حدّ قوله

فان تفق الأنام وأنت منهم * فان المسك بعض دم الغزال

وعليه قول شيخ المعرّة فان كنت تبغى العيش فابغ توسطا * فعند التناهى يقصر المتطاول

توقى البدور النقص وهى أهلة * ويدركها النقصان وهى كوامل

﴿فاصرف هواها وحاذر أن توليه * ان الهوى ماتولى يصم أو يصم﴾

تفريع على ماتقدم والصرف الدفع والهوى بمعناه المصدرى وقد تقدّم ولا يصح جعله بمعنى المفعول كقوله هواى مع الركب اليمانين مصعد * جنيب وجثمانى بمكة موثق

لان الغالب والوالى الاوّل دون الثانى كما لا يخفى وحاذر من الحذر وهو الخوف والتحرّز والصيغة للمبالغة اذ أصلها أن تكون من أكثر من واحد وأن توليه تقدير من وهو مضارع من التولية وهى جعل الشئ واليا وأميرا وفى رواية أن تواليه من الموالاة بمعنى المتابعة وعليهما ماتولى أو توالى وما بمعنى أى تولية أو موالاة ويصم بضم أوّله من أصمى اذا قتل تقول العرب أصميت الصيد بمعنى رميته فمات بمرأى وعليه الحديث كل ما أصميت ودع ما أنميت أى مارميت من الصيد فمات بمرأى منك لا مارميت فمات غائبا ويصم بفتح أوّله من الوصم وهو العيب يقال وصمه اذا عابه ومنه مافى فلان وصمة أى عيب وعار والمعنى ادفع هوى النفس عنها وتحرّز من أن تجعله أميرا عليها تتصرّف على طاعته وتمتثل أوامره فان الهوى ملك سوء اذا تولى قتل بسرعة أو أحدث العيب والعار وذلك فساد لأمر الرعية فبالحرى أن لا تولى ومن الأمثال من استرعى الذئب فقد ظلم أو تحرّز من متابعة النفس اياه واصرفه عنها من أوّل الأمر لانّ متابعته تحدث أحد الأمرين كما هو شأن قرين السوء * ثم المراد التكنية عن عدم طاعته واتباعه كما هو شأن الآمر والمتابع أى الذى تكرّرت تبعيته فلا مزية لاحدى الروايتين على الأخرى باعتبار المقصود وبالنظر الى تمام التحذير ببيان صولة الهوى المزية للاولى واعلم أن الأمرين يحتملان الحقيقة فيراد بالاوّل قتل الحدود كرجم الزانى المحصن ونحوه ويراد بالثانى وقوع الناس فى عرضه وسقوطه من أعين الناس ورميه بالرذائل والدنائس وبالجملة انه تطلق فيه مقيدات الألسن ويصير غرضا لكل سهم من القبائح * روى أن هشام بن عبد الملك لم يقل بيتا من الشعر الا قوله

اذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى * الى بعض مافيه عليك مقال

ولما سمعه أبو عمرو قال لو قال الى كل مافيه عليك مقال لكان أبلغ وأحسن ومن ثم نهى عن الوقوف بباب التهم فانه مظنة للقول والأخذ فى العرض واذا وقعا فلا مردّ لهما كما قيل

قد قيل ماقيل ان صدقا وان كذبا * فما اعتذارك من قول اذا قيلا

واما أن يكون المراد بذلك التكنية عن نوعى الهلاك الأكبر والاصغر وهذا أولى ليعم هلاك الدنيا والآخرة فيراد بالاوّل شدّة العذاب أو الخلود فى النار نسأل الله السلامة منهما فانه شاع التعبير عن الأمر العظيم بالموت الأحمر ودليل أن الهوى يؤدّى الى ذلك مافى الحديث ان العبد اذا عصى نكت فى قلبه نكتة سوداء ثم لا يزال يزداد الأمر ان توالى حتى يعم السواد قلبه وذلك هو الران قال تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا انهم

عن ربهم يومئذ لمحجوبون ويراد بالثانى ماهو دونه هذا ومن مستملح مايحكى فى طاعة الهوى وعصيانه ماروى عن ابراهيم الخواص رضى الله عنه قال رأيت رمانا فاشتهيته فأخذت منه فوجدته حامضا فتركته ورأيت رجلا مطروحا وعليه الزنابير فقلت السلام عليك فقال عليك السلام يا ابراهيم قلت كيف عرفتنى فقال من عرف الله لا يخفى عليه شئ فقلت لك حال مع الله فلو سألته يصرف عنك الزنابير فقال وأنت لك حال معه فلو سألته يصرف عنك شهوة الرمان فان لذع الرمان فى الآخرة ولذع الزنابير فى الدنيا * قال شيخ الاسلام ومصداقه قوله تعالى ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم ورؤى رجل فى الهواء فقيل له بم نلت هذا فقال تركت الهوى فسخر لى الهواء والأخبار فى هذا المعنى كثيرة

﴿وراعها وهى فى الأعمال سائمة * وان هى استحلت المرعى فلا تسم﴾

عطف على اصرف وراعها بمعنى لاحظها وانظر الى ماتصير اليه والأعمال جمع عمل بمعنى الفعل * فى الامنية لشهاب الدين القرافى قيل معنى عمل فعل فعلا له شرف وظهور ولذلك تعلق به لما اذا اشتدّ ظهوره للحس ولذا قال تعالى ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم تر كيف فعل ربك بعاد ولم يقل عمل لانه أثر فيه عقاب واستهضام لا شرف وتعظيم وقال تعالى مما عملت أيدينا أنعاما وأكثر ماورد فى القرآن من ذكر أفعال الخير بلفظ عمل قال تعالى بما كنتم تعملون فنعم أجر العاملين من عمل صالحا فلنفسه ومن ثم جاء فى الحديث انما الاعمال بالنيات دون الافعال اه وسائمة من السوم وهو الرعى يقال سامت الماشية والابل وغيرهما تسوم سوما رعت فهى سائمة واستحلت استفعلت من الحلاوة والسين والتاء للحسبان والفعل تفسير لمقدر رافع للضمير على المذهب البصرى المختار والمرعى كالرعى بكسر الراء اسم لما يرعى وتسم مضارع أسمت الناقة ونحوها اذا أخرجتها الى الرعى قال تعالى فيه تسيمون والمعنى لاحظ النفس فى حال تقلبها فى الاعمال الصالحة وانتقالها من عمل الى عمل وان عذب لها عمل والتذت به فاصرفها عنه الى عمل آخر عليها فيه كلفة ومشقة فانها لا ترتاض الا بالمشاق وقد استعار تقلبها فى الاعمال معنى الرعى أخذا من الحديث الشريف وهو قوله عليه الصلاة والسلام ان الحلال بين الحديث هذا اجمال مافى البيت وأما تفصيله فينبغى أن نقدّم له مقدّمتين ﴿أولاهما﴾ ماذكره الامام أبو اسحق الشاطبى فى المسئلة الاولى من النوع الرابع من كتاب المقاصد من الموافقات وهو أن القصد الشرعى من وضع الشريعة اخراج المكلف من داعية هواه حتى يكون عبد الله اختيارا كما كان عبد الله اضطرارا وينبنى على ذلك قواعد منها ان كل عمل كان المتبع فيه الهوى باطلاق من غير التفات الى الامر أو النهى أو التخيير فهو باطل باطلاق لانه لا بدّ للعمل من حامل عليه وداع اليه فاذا لم يكن لتلبية الشارع فى ذلك مدخل فليس الا مقتضى الهوى والشهوة وما كان كذلك كان خلاف الحق فيكون باطلا اذ ما بعد الحق الا الضلال وكل عمل كان المتبع فيه باطلاق الامر أو النهى أو التخيير فهو صحيح وحق لانه قد أتى به من طريقه الموضوع له ووافق فيه صاحبه قصد الشارع فكان صوابا وان امتزج فى العمل الامران فالحكم للغالب والسابق وعلامة غلبة تلبية الشارع أو الهوى أن العامل ان كف عند نهى الشارع فالغالب

والسابق الشرع وان لم يكف عند ورود النهى فالغالب الهوى والشهوة ومنها أن اتباع الهوى طريق الى المذموم وان جاء فى ضمن المحمود لانه لذا تبين أنه مضاد بوضعه لوضع الشريعة فحيثما زاحم مقتضاها فى العمل كان مخوفا لانه اذا اتبع واعتيد ربما أحدث للنفس أنسا به حتى يسرى معها فى أعمالها ولاسيما وهو مخلوق منها ملصق بها فقد يكون مسبوقا بالامتثال الشرعى فيصير سابقا له واذا صار سابقا له صار العمل الامتثالى تابعا له وفى حكمه فبسرعة ما يصير صاحبه الى المخالفة ودليل التجربة حاكم هنا * ومنها ان اتباع الهوى فى الاحكام الشرعية مظنة لأن يحتال بها على أغراضه فتصير كالآلة المعدة لاقتناص أغراضه وهو نهاية الذم ﴿المقدمة الثانية﴾ ما ذكره شهاب الدين فى الثامن والخمسين من فروقه أن الفعل السالم عن المفسدة اذا كان وسيلة اليها منع وذلك معنى سد الذرائع وهو على الجملة مجمع عليه لقوله تعالى ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم وان اختلفوا فى بعض صورها بناء على قرب التوسل وعدم تحققه كما أجمعوا على عدم اعتبار ما فيه عدم القرب كزراعة العنب اذا تمهد هذا فنقول ان الاعمال فى كلام المصنف تشمل الطاعة واجبها ومندوبها والمباحات أما اذا قلنا بان العمل كالفعل فالامر بين وأما اذا قلنا باختصاصه بماله شرف فهو فى الواجب والمندوب بين وكذا فى المباح من حيث كونه مأذونا فيه من الله كما سيتبين لك فاذا أخذت النفس فى فعل الواجب من العبادات من حيث امتثال الامر والدخول تحت ربقة الاستخدام والتكليف متحملة لمشاق العبادة واظهار الحق العبودية فتلك الدرجة العليا التى لا يخشى منها ضرر وان استحلته متلذذة به فلا يخلو الحال من أن يكون تلذذها من حيث هواها وهو القسم الباطل أو من حيث التعود فهو وان كان منحطا عن الدرجة الاولى مقبول فى الجملة لكنه يخشى منه داعية الهوى فتصرف عن تلك الجهة فى الفعل الى الجهة الاولى سدا لذريعة الفساد وان أخذت فى المندوبات فكذلك الا أن الامر فيها بين فانما بالاستحلاء تصرف من فعل الى فعل لعدم التعيين فيها والتعيين فى الواجب امتنع هذا الطريق وتعين صرف الهمة والنية لا غير وان أخذت فى المباحات التى هى محض حظ العبد فان تلقيها من حيث اذن الله فيها وكونها هدية منه لعبده صارت مجردة من الحظ فألحقت بما لا حظ فيه وسلوك تلك الطريقة فيها غير مخوف وان تناولت المباح من حيث حبه والشهوة النفسانية ردت عنه خوف اتباع الهوى فى غيره وان لم يكن فيه مفسدة من حيث ان أذن الشارع فيه لحظ المكلف لا غير ﴿واعلم﴾ أن الاستحلاء المذموم هو ما كان باعثا على المناولة أما اذا لم يكن الباعث عليها وانما حصلت المناولة امتثالا للامر أو قبولا للاذن فلا ذم فيه وبهذا يجاب عما قيل على ذم السعى الى الحظ من أنه جاء عن سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم انه كان يحب الطيب والنساء والحلوى والعسل وكان يعجبه الذراع ويستعذب له الماء فان ذلك لا يقضى بان تناوله عليه الصلاة والسلام لتلك الاشياء من حيث محبته لها بل نقول انه يحبها ولا يتناولها الا من حيث قبول الأذن وامتثال الندب وعلى قياس ذلك ما جاء عن العلماء والصالحين المقتدين به صلى الله عليه وسلم قاله الشاطبى رحمه الله هذا ما انقدح لى فى بيان مراد الناظم ودونك ما فى شيخ الاسلام وغيره من الشروح واختر

لنفسك ما يحلو والله أعلم

﴿كم حسنت لذة للمرء قاتلة * من حيث لم يدر أن السم فى الدسم﴾

تعليل فى المعنى للنهى عن تركها سائمة اذا استحلت المرعى وكم خبرية فى موضع النصب على الظرفية بحسنت محذوفة التمييز أى كم زمن أو على المفعولية المطلقة أى كم تحسين وقول شيخ الاسلام انها مفعول لحسنت ولذة تمييزها غفلة عن وجوب جر تمييزها بالاضافة وحسنت من التحسين بمعنى التزيين والمرء الرجل وقاتلة صفة للذة وللمرء متعلق به أو بحسنت والنصل للضرورة ومن حيث يتعلق بقاتلة على معنى الابتداء والسم بضم السين وفتحها القاتل والدسم الودك والمعنى أن النفس شأنها المكر والخديعة فتبرز الامر المهلك فى صورة المحسن فيغتر بظاهر الزينة ويفعل الفعل ولا يلتفت الى ما فيه من اللذة فيسرع له الهلاك الدنيوى والاخروى من حيث جهله بوضع المكر فى ذلك المزين كوضع السم فى الدسم بحيث لا يظهر له فيه أثر فالمعنى على التشبيه واذا كان ذلك شأنها وجب رعيها وعدم اهمالها وصرفها عما تشتهيه من الاعمال مخافة دسائسها الدقيقة وبما قررنا علم أن القتل على طبق ما سبق وسياق هذا البيت التعليل للنهى السابق كما قدمنا فيجب أن يراد باللذة هو العمل المستحلى وبمعنى تحسينه تزيينه بكونه عبادة الموجب عدم النفرة عنه ظاهرا فيغتر الجاهل بذلك ويتمادى على الفعل مع أن ما فى ضمنه من الهوى وسيلة الى الهلاك كما تقدم وأما حمله على لذة المعصية الموجبة للعقوبة فبعيد من حيث عدم الملاءمة للسابق واللاحق أما الاول فظاهر وأما الثانى فلعدم ملاءمة التشبيه كما لا يخفى * ومأخذ ذلك المعنى الذى قصده الناظم على ما بينا مع بعض الالفاظ ما حكاه القشيرى عن الواسطى أنه قال اياكم واستحلاء الطاعات فانها سموم قاتلة اه ومن الدسائس الخفية التى تدسها النفس فى صورة الطاعة أن تأمر صاحبها بالارتقاء الى مقام أعلى من مقامه الذى أراده الله فيه كما قال الشيخ ابن عطاء الله فى الحكم ارادتك التجريد مع اقامة الله لك فى الاسباب من الشهوة الخفية وارادتك الاسباب مع اقامة الله تعالى لك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية اه فان التجريد عن الاسباب والتوجه الى العبادة مرتبة علية فى ذاته الا أنه لما تعلقت الارادة الازلية فى حق ذوى الاسباب بالتسبب كانت ارادة التجريد مع ذلك شهوة خفية معارضة للارادة * فى شرح ابن زكرى على النصيحة الزروقية سئل العارف ابن العربى أيجوز للرجل أن يدخل بيتا ويطين عليه بابه وينتظر رزقه من عند الله فقال ان كان مثل أبى حمزة الخراسانى فنعم والا فحرم عليه فقال السائل وما حال أبى حمزة قال كان ماشيا ذات ليلة فى برية فاذا به وقع فى حفرة فحاول الخروج فلم يستطع فاذا بجىء بقربه فأراد أن يستغيث بهم فاذا بوارد على قلبه يقول أما تستحى أن تستغيث بالمخلوق وانت بين يدى الخالق وتعلم أنه مطلع عليك وقادر أن يخلصك مما أنت فيه فأمسك ولم يستغث واذا برجلين مارين فنظر أحدهما الى باب الحفرة فقال لصاحبه والله ما هذه الا مضرة لخلق الله والرأى عندى أن أسدها فوافقه صاحبه وأخذا فى سدها حتى سوياها بالارض فلما علم الله صدق نيته فى الثقة به بعث اليه من يخلصه فبينما هو ماكث واذا بالحس على باب الحفرة فلما كشف عنها اذا بأسد عظيم يهمهم ويدلى ذنبه فى الحفرة ففهم أن الله أراد خروجه وتعلق بذنبه حتى أخرجه ثم انصرف الأسد وسمع هاتفا يقول أنجيناك من التلف بالتلف اه والجملة

يجب على الانسان التمسك بالحديث الشريف كل ميسر لما خلق له

﴿واخش الدسائس من جوع ومن شبع * فرب مخمصة شر من التخم﴾

عطف على قوله فاصرف هواها واخش أمر من الخشية وهى الخوف والدسائس جمع دسيسة وهى المكر الخفى ويروى الدواخل جمع داخلة وهى باطن الأمر ويحتمل أخذها من الدخل وهو المكر والخديعة وعليه قوله تعالى ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها والجوع والشبع عرضان يخلقهما الله تعالى فى مجارى عادته عند خلاء المعدة من الطعام وعند وجوده فيها ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف معرفة صفة للدسائس أى الحاصلة من الجوع والشبع كما قرره الجلال المحلى وتقدير المتعلق معرفة لمناسبة المعنى أجازه التفتازانى فى شرح التلخيص والدمامينى وغيرهما وأما جعلها بيانية متعلقة بحال فيقضى بأن الدسائس هى الجوع والشبع والمعنى ليس عليه كما سيظهر وكذا تعلقه باخش فانه يفيد كون الجوع والشبع مبدأ خشية جميع الدسائس وليس كذلك والفاء لتعليل كون الجوع منشأ للدسائس والمخمصة المجاعة والتخم جمع تخمة وهى فساد المعدة بالطعام والمعنى خف ما ينشأ عن الشبع من الدسائس وما ينشأ عن الجوع منها ولتسكن حالتك على التوسط بينهما ولا تتوهم أنه لا دسيسة من الجوع فرب جوع يكون أكثر شرا من نهاية الشبع الموجبة لفساد المعدة بالطعام وبهذا التعليل الأخير يعلم ان المراد بهما حقيقتهما لا ما قاله شيخ الاسلام من قليل العبادة وكثيرها كما لا يخفى فهو وصية أخرى توجب ارتياض النفس وتهذيبها بعد الفراغ من الوصية بصرف هواها ومراعاة حالها فى العبادة ولذا قلنا بالعطف على اصرف مع بعده دون راع مع قربه ﴿واعلم﴾ أن دسائس الشبع كثيرة اجمالها أنه يحرك الشهوة الداعية الى كسب الدنيا والميل اليها وحب الدنيا رأس كل خطيئة كما فى الحديث وتفصيلها أنه يذهب الفطنة ويورث البلادة ويعمى القلب ويعين على المعاصى ومن ثم قيل البطن اذا جاع شبع سائر الجسد واذا شبع جاع سائر الجسد * قال ابن زكرى قالت عائشة رضى الله عنها أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع ان القوم لما شبعت بطونهم جمحت نفوسهم الى الدنيا وشهوة الفرج لا تخفى غائلتها فمن شبع لم يملكها وان منعته التقوى لم يملك عينه وجميع معاصى الاعضاء السبع سببها القوة الحاصلة بالشبع اه وفى شيخ الاسلام أقل مفاسد الشبع أن تكسل عن الطاعات ان لم تقع فى المعاصى ففى الخبر لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيرا اه وفى هذا الخبر اشارة الى أن كثرة النوم من الماء ووجهه ابن زكرى بأن كثرة الماء تورث كثرة الدم فتثقل الحواس وتجلب النوم ومن مفاسده كثرة الاسقام الناشئة من غلبة بعض الاخلاط الناشئة من كثرة الغذاء * وأما دسائس الجوع فهى فساد القلب والألم المشوش للفكر وضعف البدن فلا يتيسر لصاحبه القيام باصابة النظر ووظائف العبادات ومن دسائسه أنه ربما أدى الى الهلاك بسبب جفاف رطوبات البدن فتنحل أجزاؤه بالحرارة التى لا تجد ما تشتغل فيه من الغذاء فيحصل الهلاك وبه يتبين أن مفسدته أشد من التخم ومأخذ مفاسد الجوع قوله عز اسمه ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع الآية واذا تبين ما فى الجوع والشبع من المفاسد كان الواجب

التوسط * وضابطه ما رواه أحمد والترمذى من قوله عليه الصلاة والسلام حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان ولا بد فثلث للطعام وثلث للماء وثلث للنفس

﴿واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت * من المحارم والزم حمية الندم﴾

لما أوصى بما يفيد سياسة النفس فيما يستقبل من أمرها بين هنا ما يفيد فى جبر ما فات منها وهو التوبة والبكاء واستفراغ الدمع من العين اراقته على زيادة السين والتاء وتقديرا دبهما الطلب لحديث ان لم تبكوا فتباكوا والمحارم جمع محرم بمعنى الحرام والحمية الامتناع من المضار من حميت المريض الطعام اذا منعته منه والندم التكره يقال ندم بالكسر بمعنى كره والمعنى أرق دمعك أو اطلب اراقته من عين قد امتلأت من المحارم أى كثر نظرها الى ما لا يحل اليه النظر حتى كأنها امتلأت بذلك والزم التوبة فانها وقاية من العقوبة وفى وصف العين بالامتلاء من المحارم ايماء الى وجه بناء اراقة الدمع ثم لما كان أول المعصية غالبا النظر كما قدمنا جعله مقدما على التوبة مبدأ لها واقتصر على الندم من أركان التوبة وهى الندم والاقلاع والعزم على عدم العود لما أن الندم جماعها اذ مع الندم لا يتيسر عدم العزم ولا يتيسر البقاء على العمل ولذا ورد فى الحديث الندم التوبة * وأدلة كون الندم حمية ووقاية كثيرة فى الكتاب والسنة ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقال عليه الصلاة والسلام التائب من الذنب كمن لا ذنب له وأما أدلة فضل البكاء فكثيرة منها ما فى الحديث القدسى انا عند المنكسرة قلوبهم وقال عليه الصلاة والسلام لعقبة بن عامر حين سأله ما النجاة املك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك وورد أن الله تعالى قال لموسى عليه الصلاة والسلام يا موسى حرمت على النار ثلاثة أعين عين سهرت فى سبيلى وعين غضت عن محارمى وعين دمعت من خشيتى ولكل شئ جزاء غير الدمعة فلا جزاء لها غير المغفرة والرحمة اه واعلم ان المحارم النظرية كثيرة منها نظر المرأة والصبى بالشهوة ومنها النظر فى كتاب الرجل من غير اذنه ومنها التطلع الى ما ستر عنك لانه تجسس ومنها اطالة النظر فيما أذن لك فى دخوله من بيت ونحوه من غير اذن ومنها التطلع الى عورة ولو عورة نفسه وقيل بالكراهة فى الأخير ومنها النظر الى الجبابرة بعين الرضا والتعظيم ومنها النظر بعين الاحتقار لأحد من خلق الله ومنها النظر بالشزر والغضب لغير متكبر ولا ظالم ومنها النظر للضعفاء من المؤمنين بعين السخرية والاستهزاء ومنها النظر فيما لا يحل كتبه ولا تعلمه بقصد كتبه أو تعلمه كذا فى النصيحة الكافية

﴿وخالف النفس والشيطان واعصهما * وان هما محضاك النصح فاتهم﴾

المخالفة ضد الموافقة وتقدم معنى النفس وأما الشيطان فمعروف وخلقته من النار * فى شرح الجوهرة لناظمها عليه رحمة الله نقلا عن السعد أن الشياطين أجسام نارية شأنها القاء الناس فى الغواية بتذكير أسباب المعاصى وانشاء موانع الطاعة والجن أجسام هوائية تتشكل بأشكال مختلفة منهم المطيع والعاصى والملائكة أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكل كاملة فى العلم والقدرة شأنها الطاعات ومسكنها السموات قيل تركيب الانواع الثلاثة من امتزاج العناصر الاربعة الا أن الغالب على الشياطين عنصر النار وعلى الآخرين

عنصر الهواء، وذلك أن امتزاج العناصر قد لا يكون على القرب من الاعتدال بل على قدر صالح من غلبة أحدها فان كانت الغلبة للارضية يكون الممتزج مائلا الى الارض وان كانت المائية فالى الماء أو الهوائية فالى الهواء أو النارية فالى النار ولكون الهواء والنار فى غاية الشفوف واللطافة كانت الملائكة والجن والشياطين بحيث يدخلون المنافذ والمضايق ولا يرون الا اذا اكتسوا من الممتزجات الأخر التى تغلب عليها الارضية أو المائية جلابيب وغواشى فيرون فى أبدان كأبدان الناس أو غيرهم من الحيوانات قال الشارح يجوز أن يكون تشكلهم تابعا لارادتهم والفاعل هو الله وأن يكون عن أسماء علمها الهم اه ولعتو الشيطان وتمرده سمى كل عات متمرد من الجن والانس والدواب شيطانا وسمت العرب الحية شيطانا وقيل فى قوله تعالى طلعها كأنه رؤس الشياطين المراد الحقيقة لان رأس الشيطان موصوفة بالقبح وقيل المراد رؤس الحيات لقبحها وقيل المراد به نبت قبيح يسمى بذلك اه وبقية المفردات تقدمت والمعنى خالف النفس والشيطان فيما طلباه منك ولا توف لهما المطلوب واعصهما ان أمراك بشئ فلا تمتثل لهما أمرا واذا أظهرا لك خالص النصح فاحملهما على الاتهام ولا تغتر بظاهر الحال وكيف يظن عاقل نصح النفس بعد كونها أمارة بالسوء صاحبة مكر وخديعة أو يرى نصحا من الشيطان وقد ظهر أمر نصيحته مع أبينا آدم مع قسمه على كونه ناصحا كما فى نص القرآن وتقديم النفس على الشيطان يشعر به الى شدة مخالفتها وذلك ان دعوة النفس الى أمر تابعة لهواها وشهوتها وليس لها غير ذلك من الاغراض فاذا دعت الى أمر ألحت فى طلبه كالطفل فلا تزال تعاود الطلب وتكرره حتى تصل الى مرادها أو يقضى لها التوفيق من الله تعالى عند صدق المجاهدة وأما الشيطان فان غرضه الاغواء بزلة كيفما كانت فاذا دعا الى زلة وزينها وخولف فيها تركها وانتقل الى أخرى ولا شك أن المخالفة مع الالحاح أشد ومما قيل فى هذا المعنى قول بعضهم

اذا ما دعتك النفس يوما لشهوة * وكان عليها للخلاف طريق
فخالف هواها ما استطعت فانما * هواك عدو والخلاف صديق

﴿ولا تطع منهما خصما ولا حكما * فأنت تعرف كيد الخصم والحكم﴾

الطاعة الانقياد والفعل طاع وأطاع والخصم المجادل وأصله مصدر خصم بكسر الصاد اذا كثر جداله ثم أطلق على الموصوف ومن ثم أفرد وذكر ولو واقعا على الاثنين والجماعة والمؤنث وقد يثنى وعليه قوله تعالى هذان خصمان والحكم الحاكم ومنه المثل فى بيته يؤتى الحكم والكيد المكر والمعنى أن النفس والشيطان اذا أتياك من حيث المحاجة واقامة الدليل على حسن الفعل أو من حيث الأمر والحكم عليك بالفعل فلا تطعهما بأن تميل مع المحاجة فى الاولى وتمتثل الحكم فى الثانية لانك تعرف كيد الخصم ومكره بصاحبه بتمويه الامر عليه وتزيينه له توصلا الى غلبته وتعلم كيد الحاكم اذا جار فى حكمه توصلا لاغراضه فانه أقوى من مكايد الخصم حيث كان مكرا مصحوبا بالسطوة والسلطان هكذا ينبغى تقرير البيت حتى يكون على طبق ما قبله مبينا لمقام المخالفة ومقام العصيان وأما ما قرره به شيخ الاسلام من أنهما اذا كانا فى بداية الامر فهما خصمان واذا استوليا كانا

حكمين والمعنى اعصهما قبل الوقوع بان لا تفعل وبعده بان لا تتمادى على الفعل ممتثلا لامرهما بذلك وحمل الخصم والحكم على العهد غير مقبول عند ذى الفطرة السليمة هذا وقد أورد شيخ الاسلام هنا كلاما لا بأس بذكره قال فان قلت قوله ولا تطع تأكيد يغنى عنه واعصهما قلت أما عند من يرى أن الامر بالشئ ليس عين النهى عن ضده ولا يتضمنه فليس تأكيدا وأما على مذهب من يرى أنه يتضمنه فالمطابقة أولى من التضمن وأما على مذهب من يرى أنه عينه ففائدته عموم العصيان فى جميع الاحوال فان قوله اعصهما فعل مثبت وهو لا يدل على العموم فى أقسامه على الصحيح بل هو مطلق وقوله لا تطع نهى والنهى نفى والفعل المنفى يعم على الصحيح وأيضا اختلف فى الأمر هل يدل على التكرار أو المرة وهل يقتضى الفور أو التراخى ولم يختلف أن النهى يفيد التكرار والفور فان قلت لم يقتصر على النهى قلت لان المختار أيضا أنه ليس عين الامر ولا يتضمنه أو لان المطابقة أولى ومثل هذا الى قوله تعالى لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون اه كلامه أقول أصل المسئلة ما فى جمع الجوامع قال الشيخ الاشعرى والقاضى الباقلانى الامر النفسى بشئ معين نهى عن ضده الوجودى وعن القاضى يتضمنه وعليه عبد الجبار وأبو الحسن والامام والآمدى وقال امام الحرمين والغزالى لا عينه ولا يتضمنه على الاصح اه وبذلك تعلم ما فى قوله وأما على مذهب من يرى أنه عينه الخ من الخلل لانه نظر فى الامر والنهى اللفظيين كما هو بين ولا قائل بالعينية فيهما كما رأيت وعلى ارخاء العنان فما أبداه من الفائدة غير تام لان الدلالة على العموم تابعة للنهى واذا قلنا ان الامر عين النهى عن الضد كان اعصهما دالا على عموم عدم الطاعة فى جميع الاحوال فلا فائدة فى النهى وبعد ذلك كان الصواب أن يقول الفائدة عموم عدم الطاعة لا عموم العصيان كما هو بين فالاصوب فى الجواب تسليم السؤال والاقرار بالتكرير والتوكيد ولا ضير فيه فان مقام المواعظ والتنبيه جدير بذلك على أن لك أن تقول طبق ما مر فى البكاء ان المذكور فى البيت السابق عصيانهما من حيث مجرد الطلب وفى هذا البيت من حيث المحاجة والحكم وهما معنيان متغايران باعتبار الطريق متحدان باعتبار المآل وأما الآية الكريمة فمعنى الجملتين فيها متغاير * قال فى الكشاف أليست الجملتان فى معنى واحد قلت لا فان معنى الاولى انهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها ومعنى الثانية أنهم يؤدون ما يؤمرون به لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه

﴿أستغفر الله من قول بلا عمل * لقد نسبت به نسلا لذى عقم﴾

الاستغفار طلب المغفرة وهى ستر الذنوب والتجاوز عنها أخذا من الغفر وهو الستر ومنه المغفر الساتر للهامة والجم الغفير أى الساترون للارض لكثرتهم قال الشيخ لطف الله فى المعارج والمغفرة مما يختص به تعالى اذ لا يتصور الغفران من غيره ولذا أتى بالحصر فى قوله ومن يغفر الذنوب الا الله وتجاوز المحسن منا عن المسئ عفو وصفح لا غفران اذ لا ذنب الا بمخالفة الحق تعالى هذا كلامه ولفظ الله اسم للذات الواجب الوجود المبدع لما يعبر عنه بالممكن المجهول بالكنه المعلوم بالوصف المقدس عن سمات الحدوث لم يتسم به غيره فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا أى مشاركا فى اسمه وهو الله قيل وهو الاسم

الاعظم وفى اشتقاقه وعدمه وارتجاله ونقله أقوال مبسوطة فى الكشاف والنسل الولد وعقم بضم العين والقاف للضرورة والاصل اسكانها مصدر عقمت الرحم بالفتح اذا لم تقبل الولد لعلة فيها ورجل عقيم لا ولد له ومنه ريح عقيم لانها لم تلقح سحابا ولا شجرا * والمعنى أستغفر الله أى أطلب منه المغفرة من أجل القول والمواعظ الصادرة بلا عمل بما أمرت به بعضها فان ذلك مما يترتب عليه المقت لقوله تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون قال الشاطبى فى آخر الموافقات عن جعفر بن برقان قال سمعت ميمونا يقول ان المتكلم ينتظر المقت والمستمع ينتظر الرحمة قلت أرأيت قول الله يا أيها الذين آمنوا لم تقولون الآية هو الرجل يقول فعلت كذا وكذا من الخير أوهو الرجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وان كان فيه تقصير فقال كلاهما اه وما أحكم قول أبى الاسود الدؤلى فى هذا المعنى

يا أيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويقتدى * بالرأى منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

(واعلم) أن موافقة القول للفعل شرط كمال فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر تتميما لمقتضى المرتبة الموروثة عن النبوة وتقوية لداعى الامتثال فاذا انعدمت لا ينعدم الاصل كما قرره الشاطبى وغيره من أن كل تكملة أدت الى انخرام الاصل غير معتبرة ولذا قال ابن عرفة فى الشامل على ما نقله ابن زكرى فى شرح النصيحة نقلا عن الآمدى لا تشترط عدالة الآمر بل يجب عليه ولو كان فاسقا فيجب على متعاطى الكاس النهى عنها الجلاس لان النهى عن المنكر واجب والانكفاف عن المحرم واجب والاخلال بأحد الواجبين لا يمنع وجوب الآخر ولو كان عدلا كان أولى لقوة غلبة الظن باجابته اه واستدل بقوله تعالى كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه فانه يقتضى الاشتراك فى الفعل وقد ذمهم على ترك التناهى عنه بأن ينهى بعضهم بعضا وعلى هذا المعنى جاء قول الخليل بن أحمد

اعمل بقولى وان قصرت فى عملى * ينفعك قولى ولا يضررك تقصيرى
انظر لنفسك فيما أنت فاعله * من الامور وشمر أى تشمير

وقال آخر

خذ العلوم ولا تعبأ بناقلها * اجن الثمار وخل العود للنار

ثم ضرب المصنف مثلا لحالته وهو نسبة الولد للعقيم فان أمر الغير لكونه ناشئا فى الغالب عن العمل بالمأمور به كالولد فمن أمر ولم يعمل كان كمن أثبت ولدا لذى عقم وما أجدره بأن ترد نسبته (واعلم) أن الاستغفار كما ذكره الشهاب فى الثانى والتسعين من فروقه انما يحسن من أسباب العقوبات كترك الواجب وفعل المحرم واعتذر عما قاله مالك فيمن ترك الاقامة أنه يستغفر مع أنها مندوب بأن عقاب الذنب أحد ثلاثة أشياء المؤلمات وهو الغالب وتيسير المعصية لقوله تعالى وأما من بخل واستغنى الآية وتفويت الطاعة لقوله تعالى سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق فترك الاقامة عقوبة من القسم الثالث فيؤذن فوات ثوابها بذنب سابق يكون لها استغفار بازائه اه باختصار وبقريب منه وجه شيخنا

حفظه الله الاستغفار أواخر الخطبة فقال ان الخطبة لما كانت مشتملة على زجر ووعظ كانت مذكرة لذنوب سالفة فيقع الاستغفار بازائها هذا وفضيلة الاستغفار شهد بها الكتاب والسنة أما الاول فقوله تعالى ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما وقوله تعالى ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما وأما الثانى فمنه ما خرجه الترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى يا ابن آدم انك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك يا ابن آدم انك لو أتيتنى بقراب الارض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيأ لأتيتك بقرابها مغفرة وفى الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال لو لم تذنبوا وتستغفروا لذهب الله بكم ولجاء بقوم غيركم فيذنبون ويستغفرون فيغفر لهم ولقد أجاد من يقول

فلو أن فرعون لما طغى * وقال على الله افكا وزورا
أناب الى الله مستغفرا * لما وجد الله الا غفورا

﴿أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به * وما استقمت فما قولى لك استقم﴾

تقرير وبيان لقوله قول بلا عمل والأمر القول الدال على طلب الفعل مع الاستعلاء كما هو مذهب جماعة منهم الرازى والآمدى وعليه ابن الحاجب قال فى المختصر فى حد الامر النفسى اقتضاء فعل غير كف على جهة الاستعلاء وذهب جماعة منهم ابن السبكى الى عدم اشتراطه قال الجلال المحلى لاطلاق الامر دونه قال عمرو بن العاص لمعاوية

أمرتك أمرا جازما فعصيتنى * ولكن من التوفيق قتل ابن هاشم

وهو رجل من بنى هاشم خرج من العراق على معاوية فأمسكه فاشار عليه عمرو بقتله فخالفه وأطلقه لحلمه فخرج عليه مرة أخرى فأنشد عمرو البيت والمشترطون يجنحون الى المجازية فى مثله والخير ضد الشر وهو ثانى مفعولى أمر يتعدى اليه بنفسه تارة وبالباء أخرى وهما فى البيت وائتمرت افتعلت منه للمطاوعة وهو كناية عن عدم الفعل والاستقامة الاعتدال قال شيخ الاسلام قيل حقيقة فى الاجسام مجاز فى المعانى يقال استقام له الامر ومنه فاستقيموا اليه والاستقامة الشرعية هى لزوم الطاعة كذا قال بعضهم وقال البيضاوى اتباع الحق والقيام بالعدل ولزوم المنهج المستقيم وذلك خطب جسيم لا يحصل الا لمن أشرق قلبه بالانوار القدسيه وتخلص من الكدرات البشريه وأيده الله من عنده وقليل ما هم اه ولذا كان من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام ما رواه سفيان بن عبد الله قال قلت يا رسول الله قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك قال قل آمنت بالله ثم استقم وهو منتزع من قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ولعظم أمر الاستقامة قال عليه الصلاة والسلام حين قيل له قد أسرع فيك الشيب شيبتنى هود قيل لما فيها من قصص الامم السابقة وهلاكهم وقيل آية فاستقم كما أمرت وعن بعضهم رأيت النبى عليه الصلاة والسلام فى النوم فقلت روى عنك أنك قلت شيبتنى هود فقال نعم فقلت ما الذى شيبك منها أقصص الانبياء وهلاك الامم قال لا ولكن قوله فاستقم كما أمرت كذا فى العمدة والاستفهام فى فما الخ انكارى أى لا حقيقة لقولى لك استقم لعدم موافقته للفعل ومعنى البيت واضح مما قررناه الا أنه بقى عليه شئ وهو أنه أمر ونهى فيما

تقدم فكان الواجب أن يقول أمرتك ونهيتك والجواب من وجهين الاول أن يكون استعمل الامر فى مطلق الطلب مجازا فيصرف على الامر والنهى فان قلت تعلقه بالخير يمنعه قلت لا فان متعلق النهى الكف عن المنهى عنه فهو فعل خير الثانى أن يكون ناظرا الى المقصود والمثال من الاوامر والنواهى وهو فعل الخيرات فيكون حاصل تلك الاوامر والنواهى افعل الخير ويؤيد هذا قوله فما قولى لك استقم فكأنه يشير به الى توجيه صنيعه

﴿ولا تزودت قبل الموت نافلة * ولم أصل سوى فرض ولم أصم﴾

زيادة توبيخ لنفسه عما تقدم فى البيتين قبله والتزود تكلف الزاد واتخاذه وأصل الزاد الطعام الذى يتخذ للانتفاع به فى السفر ثم تجوز به عن اعمال البر النافعة قال تعالى وتزودوا فان خير الزاد التقوى والموت ضد الحياة وقيل عدم الحياة عما من شأنه الحياة والنافلة والنفل العطية تطوعا ونافلة العبادة المتطوع بها لعدم وجوبها وأصل من الصلاة وهى العبادة المخصوصة والفرض والواجب مترادفان ومعناهما ما أوجبه الله تعالى على العبد أى طلبه طلبا جازما وقال أبو حنيفة الفرض ما ثبت بقطعى كالصلوات الخمس والواجب ما ثبت بظنى كالوتر والصوم الامساك عن الشئ قال أبو عبيدة كل ممسك عن طعام أو شراب أو كلام أو غيرها فهو صائم ومنه انى نذرت للرحمن صوما أى صمتا وفى الشرع العبادة المعروفة وحذف الاستثناء منه لقرينة السابق والمعنى لم آخذ من النافلة زادا لسفر الآخرة قبل حلول الموت الموجب للفوات واقتصرت على فرائضى فلم أصل سوى الفرض ولم أصم سوى الفرض وبهذا العطف تبين أن المنفى النافلة المستقلة فلا يرد أن أداء الفرائض يستلزم أداء بعض النوافل وهو ما اشتملت عليه الفريضة كسنن الصلاة ومندوباتها ولا يحتاج الى الجواب بأن كلامه مبنى على المجاز والمبالغة وجاء فى الحديث القدسى لا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وائن سألنى لأعطينه وائن استعاذنى لأعيذنه * وجاء فى فضل النافلة ما رواه أبو هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فان صلحت فقد أفلح وأنجح وان فسدت فقد خاب وخسر وان انتقص من فريضته قال الرب سبحانه انظروا هل لعبدى من تطوع فيكمل به ما انتقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله كذلك قال ابن العربى فى العارضة يحتمل أنه يكمل ما نقص من أعداد الصلاة بفضل التطوع ويحتمل ما نقص من الخشوع ونحوه والاول أظهر * فان قلت أى وجه لتخصيص نفى نافلة الصلاة والصوم بالذكر بعد التعميم * قلت يوجه بأن فيه زيادة تأكيد لنفى النافلة من حيث أن نافلة الصلاة من فعل هو عماد الدين ونافلة الصوم من فعل ورد فى شأنه كل عمل ابن آدم له الا الصوم فانه لى وأنا أجازى به وما كان كذلك جدير بصرف الهمة اليه فاهماله يستدعى اهمال غيره بطريق أحروى وبأنهما من الافعال البدنية والشأن أن البخل بها دون البخل بالماليات لكون النفس مجبولة على حب الدنيا وبتمام المناسبة لقوله بعد

﴿ظلمت سنة من أحيا الظلام الى * أن اشتكت قدماه الضر من ورم﴾

فيحسن بذلك له التخلص كما ستعرفه ان شاء الله والظلم الجور والسنة الطريقة واحياء الظلام مجاز فى قيامه والقدمان تثنية القدم وهى طرف الرجل مما يلى الاصابع والضر بالضم الهزال وسوء الحال والورم الانتفاخ واشتكت قدماه الخ على تشبيه حالتها فى بلوغ الضرر بها بحالة الشاكى أو شكت بلسان الحال والمعنى انى بذلك الامر الذى هو ترك النافلة خالفت طريق النبى صلى الله عليه وسلم ولم أتبعها فظلمتها حقها من الاتباع المأمور به فى غير ما نص وروى القاضى فى الشفاء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وروى عن عمرو بن عوف أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهلال بن الحرث من أحيا سنة من سنتى قد أميتت بعدى كان له من الاجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيأ ومن أبدع بدعة ضلالة لا ترضى الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيأ اه واختار الوصلية ايماء الى وجه بناء المخالفة بذلك الترك واشارة الى اختصاصه عليه الصلاة والسلام بمضمون الصلة حتى يقوم مقام اسمه فى الدلالة عليه وما فى الجملة الاولى مأخوذ مما روى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت قام صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه وفى رواية حتى تفطرت فقلت له لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا اه وروى أنه لما تورمت قدماه من القيام نزل عليه جبريل عليه السلام بقوله تعالى طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى الآية وفضيلة قيام الليل من حيث التمكن من الخشوع والتضرع والبعد من أسباب الرياء جاء أن الله يباهى بقوام الليل الملائكة يقول انظروا الى عبادى قد قاموا فى ظلام الليل لا يراهم أحد غيرى أشهدكم أنى قد أبحتهم دار كرامتى وعن أبى مالك الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام اه وكفاه دليلا على فضيلته قوله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع هذا ولنرجع الى صنيع المصنف فى النظم فنقول انتقل من التغزل وما بعده الى المقصود من مدحه صلى الله عليه وسلم مع رعاية الملاءمة وحسن الارتباط وذلك المسمى بالتخلص عند أهل البديع وشرط حسنه رشاقة المعنى ودقة الانتقال بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الاول الا وقد وقع فى الثانى لشدة الممازجة والالتئام بينهما وشرطه أن لا يرجع الى المعنى الاول وان لا ينتهى الكلام عنده فان كان أحدهما فهو الاستطراد فن جيد التخلصات قول أبى نواس

واذا جلست الى المدام وشربها * فاجعل حديثك كله فى الكاس

واذا نزعت عن الغواية فليكن * لله ذاك النزع لا للناس

واذا أردت مديح قوم لم تمن * فى مدحهم فامدح بنى العباس

وأحسن التخلصات ما كان فى بيت كالمتقدم وقول شيخ المعرة

ولو أن المطى لها عقول * وجدك لم تشد لها عقالا * مواصلة بها رحلى كأنى

من الدنيا أريد بها انفصالا * سألن فقلت مقصدنا سعيد * فكان اسم الامير لهن فالا
وأخذته فقلت في تخلص بمدح مولانا الامير المطرز باسمه ديباجة هذا الشرح

* معللة بالصبح وهي عليلة * وقد غرها من كاذب الفجر ما يبدو
فقلت لها سيرا فيا صادق ابشري * فقالت أجل ان الامير هو القصد

ومن جيد التخلصات النبوية قول البدر الدماميني

وان كنت في أيدي الحوادث فاصطبر * على مضها وابسط لآيامك العذرا
ومهما ترى حسن التخلص فامتدح * أجل البرايا تغنم الاجر والفخرا

﴿وشد من سغب أحشاءه وطوى * تحت الحجارة كشحا مترف الادم﴾

شد بمعنى ربط وأوثق وفي عين مضارعه الكسر والضم قال شيخ الاسلام قال الفراء مضارع فعل المضعف اللازم بكسر عينه وعين مضارع متعد به بضم الاشد وعله فانه ورد في مضارعهما الضم والكسر وهو مقصور على السماع ومن تعليلية والسغب مصدر سغب بالكسر بمعنى جاع ومنه المسغبة والاحشاء جمع حشا وهو ما انضمت عليه الضلوع وطوى بمعنى ثنى والحجارة جمع حجر والكشح ما بين الخاصرة الى الضلع الخلف وهو أقصر اضلاع الجنب ومترف على صيغة المفعول بمعنى منعم من أترفته النعمة بمعنى نعمته والأدم بفتح الهمزة والدال اسم جمع أديم وهو الجلد والمعنى أنه عليه الصلاة والسلام شد احشاءه وأوثقها لأجل شدة الجوع الناشئ عن كثرة الصيام تسكينا لألم الجوع وثنى كشحه الناعم الجلد تحت الحجارة لذلك وفيه دلالة على ما قاله من ظلم سنته بقلة الصوم وانما كان شد الاحشاء والربط المذكوران يسكنان ألم الجوع من حيث ان الحرارة الغريزية اذا لم تجد شيأ في المعدة من الطعام انتشرت فتعلقت بأكثر جواهر البدن ويشتد ضررها كما تقدم فاذا ضم الجلد والاحشاء على المعدة اتحدت بعض الاتحاد فيقل الضرر وقياسها على النار يزيد لديا نا فانها اذا أطبق التهابها ولم تغط كثر فعلها واذا اغطيت قل وبرد الحجارة يزيد كسرا لسورة الحرارة أيضا وفي وصف الكشح بما ذكر زيادة تنكيت على نفسه حيث كان ذلك الكشح الناعم قد شد على الحجارة المؤثرة فيه تأثيرا لا يكون في غير الناعم وشاهد الوصف الاول ما رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه قال جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فوجدته جالسا مع أصحابه يحدثهم وقد عصب بطنه بعصابة فقالوا من الجوع وشاهد الثاني ما رواه البخاري في غزوة الخندق عن جابر رضي الله عنه انا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة فجاؤا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق فقال صلى الله عليه وسلم انا نازل لها ثم قام صلى الله عليه وسلم وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول فضرب فعاد كثيبا فقلت يا رسول الله ائذن لي الى البيت فقلت لامرأتي رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم شيأ ما في ذلك صبر فعندك شئ فقالت عندي شعير وعناق فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ثم جئت النبي صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج فقلت طعيم لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان قال صلى الله عليه وسلم كم هو فذكرته قال صلى الله عليه وسلم كثير

طيب قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي قال صلى الله عليه وسلم قوموا فقام المهاجرون والانصار فلما دخلت على امرأتي قلت ويحك جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والانصار ومن معهم قالت هل سألك قلت نعم فقال صلى الله عليه وسلم ادخلوا ولا تضاغطوا فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويقرب الى أصحابه فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية فقال صلى الله عليه وسلم كلي هذا وأهدي فان الناس أصابتهم مجاعة وفي رواية سعيد عن جابر وهم ألف وأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانصرفوا وان برمتنا لتغط كما هي وان عجيننا ليخبز كما هو اه هذا وقد أورد شيخ الاسلام هنا سؤالا وهو أنه ثبت في الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى الناس عن الوصال فقيل له انك تواصل فقال اني لست كهيئتكم اني أبيت يطعمني ربي ويسقيني فمن هذه حاله كيف يتألم بالجوع حتى يحتاج الى عصب بطنه وأجاب بأن المراد بذلك بقاء قوته وأن الله ضمن له ذلك كما تشهد به واقعة الكدية فلا يعجز عن القيام بالعبادات بخلاف غيره اه وهذا الجواب نقله في المواهب عن الجمهور في تأويل الحديث ونصه وقال الجمهور هو مجاز عن لازم الطعام والشراب وهو القوة فكأنه قال يعطيني قوة الأكل والشرب ويقويني على أنواع العبادات من غير ضعف في القوة والمعنى أن يخلق فيه الشبع والري ويبعده أنه ينافي حال الصائم ويفوت المقصود من الصوم والوصال لان الجوع هو روح هذه العبادة قال القرطبي ويبعده أيضا النظر الى حاله عليه الصلاة والسلام فانه كان يجوع أكثر مما يشبع اه وبه تعلم أنه لا يصلح جوابا وقيل في تأويل الحديث المراد أنه يؤتى له بطعام وشراب من الجنة وذلك من جنس الثواب كأكل أهل الجنة في الجنة لا من جنس الطعام والشراب المتناولين في الدنيا حتى يبطلان الوصال ومعناه أنه يحصل له في الدنيا ما يحصل لهم في الجنة كرامة له صلى الله عليه وسلم وعليه يندفع ذلك السؤال وقد يقال على ذلك يتخرج ما للجمهور فان العادة وان قضت بان بقاء القوة لا يلائم الجوع لكن من كرامته صلى الله عليه وسلم أن جمع له بين الحالتين تحصيلا لثواب الجوع أيضا هذا اذا كان قوله والمعنى الخ من زيادة الناقل وفي المواهب أيضا عن ابن القيم ورجح أن المراد في الحديث ما يغذيه الله به من معارفه وما يفيضه على قلبه من لذة مناجاته وقرة عينه بقربه ونعيمه بحبه والشوق اليه وغير ذلك من الاحوال التي هي غذاء القلوب ونعيم الارواح وقد يغني هذا عن غذاء الاجسام كما قيل

لها أحاديث من ذكراك تشغلها * عن الشراب وتلهيها عن الزاد
اذا اشتكت من كلال السير واعدها * روح القدوم فتحيا عند ميعاد

اه وما نقله الزركشي عن بعضهم من أن تعصيبه الحجر على بطنه صلى الله عليه وسلم يحتمل أن يكون كعادة العرب اذا خلت أجوافهم وغارت بطونهم وأنه فعل ذلك ليعلم أصحابه أنه ليس عنده ما يستأثر به عليهم لا لحقيقة الجوع واستشهد بالحديث ينافيه ما تقدم في رد تأويل الجمهور وما سيأتي من حديث عائشة رضي الله عنها

﴿وراودته الجبال الشم من ذهب * عن نفسه فأراها أيما شمم﴾

راودته خادعته والشم جمع أشم بمعنى طويل وأراها من الرؤية البصرية والهمزة للتعدية أي

جعلها مبصرة والشمم ارتفاع قصبة الانف مع استواء أعلاه وهو كناية عن ارتفاع الهمة وما فى أيما زائدة والمعنى أن فعله عليه الصلاة والسلام لماذكر ليس لعيلته وفاقته كيف وقد قال تعالى ووجدك عائلا فأغنى وانما هو لزهده فى الدنيا ورغبته عنها والا فقد تمكن منها مالم يتمكن منها غيره فقد عرضت عليه الجبال العالية من الذهب فأباها وقابلها بارتفاع معنوى أعلى قدرا من ارتفاعها الحسى امتثالا لقول ربه ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى * روى أن جبريل عليه السلام نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال ان الله تعالى يقرئك السلام ويقول لك أتحب أن اجعل لك هذه الجبال ذهبا وتكون معك حيثما كنت فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال يا جبريل ان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ويجمعها من لا عقل له فقال له جبريل عليه السلام ثبتك الله بالقول الثابت يا محمد وخرج الترمذى من حديث أبى امامة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عرض على ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما فاذا جعت تضرعت اليك وذكرتك واذا شبعت حمدتك وشكرتك ومن أدلة زهده عليه السلام ماروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لم يمتلئ جوف نبى الله شبعا قط ولم يبث شكوى الى أحد وكانت الفاقة أحب اليه من الغنى وان كان ليظل جائعا يلتوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الارض وثمارها ورغد عيشها وقد كنت أبكى رحمة مما أرى به وامسح بيدى على بطنه وأقول نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك فيقول ياعائشة مالى وللدنيا اخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ماهو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدنى أستحى ان ترفهت فى معيشتى أن أكون غدا دونهم ومامن شئ أحب الى من اللحوق باخوانى وأخلائى قالت فما أقام بعد الاشهرا حتى توفى صلوات الله وسلامه عليه اهـ وقد تبين أنه لا حقيقة لمراودة الجبال والأقرب فى بيانه أن يكون كناية عن شدة تمكنه من ذلك وقرب الحصول وعليه فمن ذهب بيان للجبال وانكار الشيخ ابن مرزوق له نظر لظاهر العبارة فتدبر

﴿وأكدت زهده فيها ضرورته * ان الضرورة لا تعدو على العصم﴾

التأكيد والتوكيد والثانى أفصح بمعنى التقوية والتثبيت والزهد ضد الرغبة وفعله بكسر العين وفتحها لغة والضرورة الحاجة وعدا عليه يعدو عداء بالفتح والمد وعدوا ظلم وتجاوز الحد ومنه فيسبوا الله عدوا بغير علم والعصم جمع عصمة وهى فى الشرع قوة من الله فى عبده تمنعه عن ارتكاب شئ من المعاصى والمكروهات والمعنى مما يؤكد زهده فى جبال الذهب ويثبته احتياجه صلى الله عليه وسلم الى شئ منها وضرورته اليه ولا شك أن الاعراض عن الشئ مع الاحتياج اليه أدل دليل على الزهد فيه ولما كان فى هذا الامر نوع غرابة من حيث ان الضرورة توجب الاقبال على الشئ المحتاج اليه والالتفات اليه طبعا وشرعا ألا ترى الى اباحة تناول الميتة والخمر للمضطر أزال تلك الغرابة بقوله ان الضرورة الخ أى ان عصمته صلى الله عليه وسلم لا تعدو عليها الضرورة وتغلبها حتى يكون أمره تابعا لها ولا يخفى مافيه

من

من ارسال المثل وقد تقدم له نظائر وفى ذلك ايماء الى أن الميل الى الدنيا مذموم وشاهده حب الدنيا رأس كل خطيئة وبما قررنا علم أن لا حاجة الى تقدير المضاف فى العصم كما زعموا هذا وشواهد ضرورته صلى الله عليه وسلم كثيرة منها ما فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت ان كان آل محمد لنمكث شهرا ما نستوقد نارا ان هو الا التمر والماء وعن سماك قال سمعت النعمان بن بشير رضى الله عنه يقول لقد رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم وما يجد من الدقل أى ردىء التمر ما يملأ بطنه

﴿وكيف تدعو الى الدنيا ضرورة من * لولاه لم تخرج الدنيا من العدم﴾

كيف استفهام انكارى والدعاء الى الشئ الحث عليه والدنيا فعلى من الدنو وهو القرب والعدم ضد الوجود وهو قسمان سابق ولاحق والمراد الاول والمعنى أن ضرورة من هو السبب فى وجود الدنيا بعد عدمها لا يتصور فيها أن تكون داعيته اليها الموجب ارتفاعه عنها حيث كانت من مستتبعاته مفتقرة اليه فى وجودها افتقار المسبب الى السبب ففيه تأييد لما تضمنه قوله ان الضرورة الخ وبما بينا يعلم وجه ترك مفعول تدعو لان الغرض بيان أن تلك الضرورة لا تصلح أن تكون داعية الى الدنيا فى ذاتها لا بيان المدعو من هو فتنبه له فقد غلطوا فيه وأكثروا فيه الكلام وزعموا أن النظم لا يخلو من تعقيد قال شيخ الاسلام ان المعنى المقصود كيف تدعوه صلى الله عليه وسلم ضرورته الى الدنيا وهى انما خرجت من العدم لاجله الا أنه غير جار على لفظ البيت والجارى عليه كيف تدعو الى الدنيا ضرورة الشخص الذى لولاه الخ فعلى الاول يكون المستبعد أن تدعو الضرورة محمدا صلى الله عليه وسلم وعلى الثانى لا يكون تدعو متعلقا بمفعول فان ضمن معنى تميل القاصر صح المعنى وان ترك على حقيقته من التعدى فان قدرته النبى صلى الله عليه وسلم لقرينة السياق صح وعاد المعنى الى الاول وان لم يعين وأطلق ليدل على العموم فالمعنى كل مدعو لكن يخص النفى بالدعاء الى انالة الدنيا ولا يصح مطلقا لاقتضائه أن لا تدعو ضرورته بعض أصحابه الى أن يسعى فى ازالتها عنه بشئ من متاع الدنيا والواقع خلافه كما تقدم فى حديث جابر ثم قال وبالجملة فألفاظ البيت لا تخلو عن تعقيد وقلق ويحتمل وجها آخر وهو أن يكون ضرورة منونا فى الاصل وحذف تنوينه ضرورة ومن مفعول تدعو والمعنى لا تدعو الى الدنيا ضرورة أى ضرورة كانت عظيمة أو صغيرة شخصا لولاه الخ وهذا الوجه فى غاية الحسن اذ فيه نفى المطلق فيستلزم نفى المقيد نعم فيه ضعف التأليف أعنى مخالفة القياس بحذف التنوين وذلك يوجب كون الكلام غير فصيح فان قلت الاول فيه التعقيد اللفظى أيضا قلت مفسدة التعقيد أخف من مفسدة ضعف التأليف اهـ فانظر أيها الواقف عليه كيف ترك المعنى المقصود للناظم وخاض تلك البحور من التكلفات واقتحم مضايق تلك المعانى التى يعجز عن ادراك مفاسدها المعانى والنحا فى تخليص نفسه من ورطة قلق ما أبداه من التفاسير الى نسبة البيت الى القلق والتعقيد وهو برىء منهما بشهادة العارف ثم ادعى أن حذف التنوين للضرورة من ضعف التأليف المخل بالفصاحة ولا يلفى له مساعدا على ذلك ويقال له حيث دار البيت بين التعقيد المعنوى وضعف التأليف وكان غير فصيح فما معنى البحث عليه من جهة البديع كما صنع وهل يكون

الحسن محسنا الا بكونه تابعا للبلاغة المتوقفة على الفصاحة نسأل الله الهداية الى الصواب
بمنه هذا وشاهده ماقاله الناظم ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال قال لى رسول الله
صلى الله عليه وسلم لما اقترف آدم الخطيئة قال يارب أسألك بحق محمد الا غفرت لى فقال الله
تعالى يا آدم فكيف عرفت محمدا ولم أخلقه قال يارب انك لما خلقتنى بيدك ونفخت فىّ من
روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا اله الا الله محمد رسول الله فعلمت
أنك لم تضف الى اسمك الا أحب الخلق اليك فقال الله تعالى صدقت يا آدم انه أحب الخلق
الىّ واذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ماخلقتك نقله فى المواهب وفيه أنه لما خرج
آدم من الجنة رأى مكتوبا على ساق العرش وعلى كل موضع فى الجنة اسم محمد مقرونا باسم
الله فقال يارب هذا محمد من هو فقال الله تعالى هذا ولدك الذى لولاه ماخلقتك فقال يارب
بحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد فنودى لو استشفعت الينا بمحمد فى أهل السموات والارض
لشفعناك وفيه أيضا من حديث سلمان أنه قال هبط جبريل عليه السلام على النبىّ صلى
الله عليه وسلم فقال ان ربك يقول لك ان كنت اتخذت ابراهيم خليلا فقد اتخذتك حبيبا
وماخلقت خلقا أكرم علىّ منك ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندى
ولولاك ماخلقت الدنيا اه وكأن الجلال المحلى لم يطلع على هذا الحديث أولم يثبت سنده لديه
فاقتصر على ماقبله وتمم الاستدلال للناظم بضم مقدمة أخرى مأخوذة من آيات فقال وآدم
أبو البشر وقد خلق الله لهم مافى الارض وسخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار وغير ذلك

﴿محمد سيد الكونين والثقليـ ـن والفريقين من عرب ومن عجم﴾

لفظ محمد بدل من من فى قوله ضرورة من أو من فى قوله ظلمت سنة من اخ لا من ضمير لولاه واحيا
كما ظنه شيخ الاسلام والغرض من تقديم الصفات وتأخير الاسم التشويق اليه كما يفعل بما يقصد
تقريره وتثبيته فى النفس لكونه الأهم والدليل على اختصاص الصفات بالمسمى فيكون
كالشهادة بها وان رفع فهو خبر مبتدأ محذوف ولا يفوت ذلك الغرض وعليهما اعراب نبينا
والوصفين بعده ومحمد اسمه الشريف وعلمه المنيف سماه به جده عبد المطلب رجاء أن يحمده
أهل السماء والارض كما هو مشهور ولما قالت أمه آمنة الامينة انى لما حملت به ودنت ولادته
أتانى آت فقال قولى أعيذه بالواحد * من شر كل حاسد * ثم سميه محمدا قال السهيلى فى الروض
الأنف أما أحمد وهو اسمه الذى سمى به على لسان عيسى وموسى عليهما الصلاة والسلام
فانه منقول من الصفة التى معناها التفضيل فمعنى أحمد أحمد الحامدين لربه وكذلك هو
فى المعنى لانه يفتح عليه فى المقام المحمود محامد لم تفتح على أحد قبله فيحمد ربه بها ولذلك يعقد
له لواء الحمد وأما اسمه محمد فمنقول من صفة أيضا وهو فى معنى محمود ولكن فيه معنى
المبالغة والتكرار فالمحمد هو الذى حمد مرة بعد أخرى وقد طابق الاسم المسمى فانه صلى الله
عليه وسلم محمود فى الدنيا بما هدى اليه ونفع به من العلم والحكمة ومحمود فى الأخرى بالشفاعة
ثم انه لم يكن محمدا حتى كان أحمد حمد ربه فنبأه وشرفه فلذلك تقدم اسمه أحمد على محمد
فذكره عيسى وموسى به هذا باعتبار الترتيب فى الدنيا وكذلك فى الآخرة يحمد ربه بالمحامد
التى يفتحها عليه فيكون أحمد الحامدين لربه ثم يشفع فيحمد على شفاعته فانظر كيف

ترتب هذا الاسم قبل الاسم الآخر فى الذكر والوجود فى الدنيا والآخرة اه باختصار ولما كان
محمد بمعنى محمود قال حسان بن ثابت رضى الله عنه

أغرّ عليه للنبوّة خاتم * من الله من نور يلوح ويشهد * وضم الاله اسم النبىّ الى اسمه *
اذا قال فى الخمس المؤذن أشهد * وشق له من اسمه ليجله * فذو العرش محمود وهذا محمد *

قال فى المواهب وأخرج البخارى فى تاريخه الصغير من طريق علىّ بن زيد قال كان أبو طالب
يقول فشق الخ قال الشهاب القسطلانى فى مقصد الخصائص من المواهب مما اختص به صلى
الله عليه وسلم ان التسمى باسمه ميمون نافع فى الدنيا والآخرة * روينا عن أنس بن مالك رضى الله
عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوقف عبدان بين يدى الله تعالى فيؤمر بهما الى
الجنة فيقولان ربنا بم استأهلنا الجنة ولم نعمل عملا تجازينا به الجنة فيقول الله تعالى ادخلا
الجنة فانى آليت على نفسى أن لا يدخل النار من اسمه أحمد ولا محمد وروى أبو نعيم عن نبيط
ابن شريك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى وعزتى وجلالى لا عذبت أحدا
تسمى باسمك فى النار اه ولذا يقول المصنف فى آخر النظم

ان لى ذمة منه بتسميتى * محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال مامن مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه محمد
أو أحمد الا قدس الله ذلك المنزل كل يوم مرتين رواه أبو منصور الديلمى اه والسيد الجليل
الكريم العظيم والكونين تثنية كون مصدر التامة بمعنى الوجود والمراد به وجود الدنيا
ووجود الآخرة والمراد أهلهما والثقلين الانس والجنّ والفريقين تثنية فريق وهو الجماعة
الكثيرة وفسرهما بالعرب والعجم وهما معروفان والفريق الاوّل من أولاد سام وهو ابن
نوح باتفاق النسابين وأما الفريق الثانى فمنهم من شارك الاوّل فيه وهم فارس والروم ومنهم
من هو ولد حام أصغر ابن نوح وهم القبط والسودان والبربر ومنهم من هو ولد يافث بن نوح
وهم الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج وهذه أصول أنساب العرب بعيد طوفان نوح
عليه السلام * ثم ان العرب على طبقات ثلاث (الطبقة الاولى) العرب العاربة وهم
عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وعبد بن ضخم وجرهم وحضرموت وكان مسكنهم
جزيرة العرب المحتوية على اليمن والحجاز وحضرموت (الطبقة الثانية) العرب المستعربة
وهم تبع وحمير والعمالقة وغيرهم وكان غالب مسكنهم صنعاء اليمن (الطبقة الثالثة)
العرب التابعة وقد اتفق النسابون على أنهم يرجعون الى ثلاثة أنساب عدنان وقحطان
وقضاعة والاوّل من ولد اسمعيل وفى الثالث خلاف والاصح أنه من قحطان * وهذا
الصنف العربى بطبقاته الثلاثة له الفضيلة على غيره لما رواه الترمذى فى سننه أن النبى
صلى الله عليه وسلم قام على المنبر فقال من أنا قالوا رسول الله قال صلى الله عليه وسلم أنا
محمد بن عبد المطلب ان الله تعالى خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم ثم جعلهم فرقتين فجعلنى
فى خيرهم فرقة ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة ثم جعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم
بيتا اه وفى حديث الطبرانى ان الله اختار الخلق فاختار منهم بنى آدم ثم اختار بنى آدم
فاختار منهم العرب ثم اختارنى من العرب فلم أزل خيارا من خيار الخ وفى مسلم قوله عليه

الصلاة والسلام ان الله اصطفى كنانة من ولد اسمعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى
من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم اه وفى الشفاء عن ابن عباس ان قريشا
كانت نورا بين يدى الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفى عام يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة
بتسبيحه فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور فى صلبه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
فأهبطنى الله الى الارض فى صلب آدم وجعلنى فى صلب نوح وقذف بى فى صلب ابراهيم ثم لم
يزل الله تعالى ينقلنى من الاصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجنى بين أبوى ولم
يلتقيا على سفاح قط ألا فمن أحب العرب فبحبى أحبهم ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم
وأما حديث لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى فمخرج على نفى الفضل فى النسب الاسلامى
كحديث لا تفضلونى على يونس وبما ذكرناه تبين دليل المصنف على ما ادعاه وكفى شاهدا عليه
وما أرسلناك الا رحمة للعالمين قال الزركشى نبينا صلى الله عليه وسلم مستثنى من الخلاف
فى التفضيل بين الملك والبشر

﴿ذكر النسب الشريف العالى * وسلسلة اليواقيت واللآلى﴾ (محمد) صلى الله عليه وسلم
ابن سيدنا (عبد الله) الذبيح لقب بذلك لان أباه نذر فى حفر زمزم لئن جاءه عشرة بنين وعاونوه
ليذبحن أحدهم قربانا فلما تم له أمره وتكامل له من البنين عشرة نام ليلة عند الكعبة فرأى
فى المنام قائلا يقول يا عبد المطلب أوف بنذرك لرب هذا البيت فاستيقظ وذبح كبشا ثم نام
فرأى أن قرب ما هو أكبر من ذلك ففعل ولم يزل يتكرر عليه الامر الى أن قيل له فى النوم
قرب أحد أولادك الذى نذرته فاغتم غما شديدا وأقرع بين أولاده فخرجت على عبد الله وكان
أحب ولده اليه فقبضه وأخذ الشفرة فقام اليه سادة قريش وقالوا لا تذبحه حتى تعذر فيه الى
ربك وقالوا انطلق الى سجاح الكاهنة فقالت لهم كم الدية فيكم فقالوا عشرة من الابل فأشارت
عليهم بأن يساهموا بينه وبين عشرة من الابل فان خرج السهم عليه زادوا حتى تخرج عليها
ففعلوا حتى بلغت الابل مائة فخرج السهم عليها فنحرت ولذا روى عنه عليه السلام أنه قال
أنا ابن الذبيحين يعنى اسمعيل وعبد الله ابن (عبد المطلب) واسمه شيبة الحمد وهو أول من
خضب بالسواد وعاش مائة وأربعين سنة قال الزرقانى فى شرح المواهب كان مجاب الدعوة
محرم الخمر على نفسه قال ابن الاثير هو أول من تحنث بحراء كان اذا دخل شهر رمضان
صعده وأطعم المساكين وكان يقال له الفياض لجوده اه وهو القائل لما جاء أبرهة بالفيل
لهدم البيت * وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك * (ابن هاشم) واسمه عمرو
قال الزرقانى عن المنتقى انه كان أفخر قومه وأعلاهم وكانت له مائدة لا ترفع فى السراء ولا
فى الضراء وكان نور رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يتوقد شعاعه ويتلألأ ضياؤه
ولا يراه حبر الا قبل يده ولا يمر بشئ الا سجد له مات عن عشرين أو خمس وعشرين سنة
(ابن عبد مناف) واسمه المغيرة ساد فى حياة أبيه وكان يدعى القمر لجماله قال الواقدى كان
فيه نور رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر الزبير عن موسى بن عقبة أنه وجد كتابة فى حجر
أنا المغيرة بن قصى آمر بتقوى الله وصلة الرحم (ابن قصى) بضم القاف واسمه زيد وقيل يزيد
كان عالم قريش وأقومها بالحق (ابن كلاب) بكسر الكاف واسمه حكيم وقيل عروة (ابن مرة)

بضم الميم (ابن كعب) وهو أول من جمع الناس يوم العروبة وكانت تجتمع اليه قريش فى هذا
اليوم فيخطبهم ويذكرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم ويعلمهم بأنه من ولده ويأمرهم
باتباعه والايمان به وينشد فى ذلك أبياتا منها قوله

يا ليتنى شاهد نحواء دعوته * اذا قريش تبغى الحق خذلانا

(ابن لؤى) بضم اللام والهمزة وقد تسهل واوا (ابن غالب بن فهر) بكسر الفاء واسمه
قريش واليه تنسب القبيلة (ابن مالك بن النضر) واسمه قيس (ابن كنانة) بكسر الكاف
(ابن خزيمة) بالتصغير (ابن مدركة) بضم فسكون ففتح سمى به لادراكه كل عز وفخر كان فى
آبائه واسمه عمرو وكان فيه نور المصطفى صلى الله عليه وسلم بينا (ابن الياس) بكسر الهمزة
وفتحها وهو أول من أهدى البدن الى البيت الحرام ويذكر أنه كان يسمع فى صلبه تلبية النبى
صلى الله عليه وسلم بالحج ولم تزل العرب تعظمه تعظيم أهل الحكمة كلقمان وأشباهه (ابن
مضر) بضم ففتح وهو أول من سن الحداء روى أنه سقط عن بعيره وهو شاب فانكسرت يده
فقال يا يداه فأتت اليه الابل من الرعى وكان من أحسن الناس صوتا فلما صح وركب حدا وفى
ربيع الابرار قال النبى صلى الله عليه وسلم أتدرون متى كان الحداء قالوا بلى بأبينا وأمنا قال ان
أباكم مضر خرج فى مال له فوجد غلامه قد تفرقت عليه ابله فضربه على يده بالعصا فعدا الغلام
فى الوادى وهو يصيح وايداه وايداه فسمعت الابل صوته فتعطفت عليه فقال مضر لو اشتق
من الكلام مثل هذا لكان شيأ تجتمع عليه الابل فاشتق الحداء (ابن نزار) بكسر النون
(ابن معد) بفتحتين وتشديد الدال (ابن عدنان) روى أنه أول من كسا الكعبة واليه ينتهى
النسب الطيب وما فوقه كذب كما فى الحديث وأما أمه عليه السلام فهى السيدة آمنة الامينة
ابنة وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وفيه تجتمع السلسلتان ﴿واعلم﴾ أن هذا النسب
الطاهر محمول بطرفيه على سفن النجاة سالك الملة الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام قال
الامام فخر الدين الرازى فى أسرار التنزيل مما يدل على أن آباءه عليه الصلاة والسلام
لم يكونوا مشركين قوله عليه الصلاة والسلام لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين الى أرحام
الطاهرات وقال تعالى انما المشركون نجس فوجب أن لا يكون أحد من أجداده مشركا
قال الزرقانى وقد ارتضى ذلك العلامة السنوسى والتلمسانى محشى الشفاء فقالا لم يتقدم لوالديه
صلى الله عليه وسلم شرك لانه عليه السلام انتقل من الاصلاب الكريمة الى الارحام الطاهرة
ولا يكون ذلك الا مع الايمان بالله وما نقله المتأخرون قلة حياء وأدب اه ونقل الزرقانى عن
جلال الدين السيوطى رحمه الله استدلالا لطيفا على ذلك مركبا من مقدمتين احداهما ما ثبت
فى الاحاديث الصحيحة أن كل جد من أجداده صلى الله عليه وسلم خير قرنه كحديث البخارى
بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه والمقدمة الثانية
ما ثبت أن الارض لم تخل من سبعة مسلمين فصاعدا يدفع الله بهم عن أهل الارض أخرج عبد
الرزاق وابن المنذر بسند صحيح على شرط الشيخين عن على قال لم يزل على وجه الارض سبعة
مسلمون فصاعدا فلولا ذلك لهلكت الارض ومن عليها وأخرج أحمد بسند صحيح على شرط
الشيخين عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ما خلت الارض من بعد نوح من سبعة يدفع الله بهم

عن أهل الارض واذا قرنت ما بين هاتين المقدمتين أنتج ما قاله الامام لانه ان كان كل جد من أجداده من السبعة المذكورين فى زمانه فهو المدعى وان كانوا غيرهم لزم أحد الامرين اما أن يكون غيرهم خيرا منهم وهو باطل لمخالفته الحديث الصحيح واما أن يكونوا خيرا وهم على الشرك وهو باطل بالاجماع وفى التنزيل ولعبد مؤمن خير من مشرك فثبت أنهم على التوحيد ليكونوا خير أهل الارض فى زمانهم اه وقريب منه ما استدل به بعض أستاذينا وهو قوله تعالى حكاية عن ابراهيم واسمعيل عليهما السلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك الى قوله ربنا وابعث فيهم رسولا منهم الآية أى فى الامة المسلمة ومن الامة المسلمة وقد ثبت فى الحديث أنا دعوة ابراهيم والادلة فى ذلك أكثر من أن تحصى وان شئت فراجع رسائل ناظمها الجلال السيوطى بذلك عامله الله باحسانه * ومنها ما ثبت أن الله أحيا أبويه وآمنا به صلى الله عليه وسلم وكفى المهتدى قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وقوله عليه الصلاة والسلام اذا لا أرضى وواحد من أمتى فى النار فكيف يرضى وأحد آبائه كذلك وعن على فى قوله تعالى من أنفسكم فى قراءة الفتح قال نسبا [illegible] وحسبا ليس فى آبائى من لدن آدم سفاح كلنا نكاح قال ابن الكلبى كتبت للنبى صلى الله [illegible] خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحا ولا شيئا مما كانت عليه الجاهلية كذا فى [illegible] وقد [illegible] فى حديث ابن عباس مثله ولله در الناظم اذ يقول فى الهمزية

[illegible] فى ضمائر الكون تختا * رلك الامهات والآباء

[illegible] للوجود منك كريم * من كريم آباؤه كرماء * نسب تحسب العلا بحلاه

[illegible] نجومها الجوزاء * حبذا عقد سودد وفخار * أنت فيه اليتيمة العصماء

[illegible] الحذر من الوقوع فى كلام كثير ممن غلبت عليهم الضلالة فتشدقوا فى جانب النسب الطاهر بما تشمئز منه قلوب المؤمنين حتى أن بعضهم لعنايته بذلك ألف فيه تأليف مستقلة فضل وأضل وعرض نفسه لاذية سيد العالمين فاستحق العذاب المهين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال جاءت ابنة أبى لهب الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ان الناس يقولون أنت ابنة حطب النار فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغضب فقال ما بال أقوام يؤذوننى فى قرابتى ومن آذانى فقد آذى الله اه وقال تعالى ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا

(نبينا الآمر الناهى فلا أحد * أبر فى قول لا منه ولا نعم)

تقدم ما يتبين به اعراب نبينا وجربه على اعراب لفظ محمد فى سابقه والنبى على المشهور أعم مطلقا من الرسول يجتمعان فى الايحاء بالحكم ويزيد الرسول بالأمر بالانذار وقيل باستئناف شرع قال شهاب الدين القرافى يعتقد كثير أن النبوة مجرد الوحى وهو باطل لحصوله لمن ليس بنبى كمريم فانها ليست نبية على الصحيح مع أنه تعالى يقول فأرسلنا اليها روحنا وان الله يبشرك الآية وفى مسلم بعث الله تعالى ملكا لرجل على مدرجته كان خرج فى زيارة أخ له فى الله وقال ان الله يعلمك أنه يحبك لحبك لأخيك فى الله وليس نبوة لانها عند المحققين ايحاء الله لبعض بحكم انشائى يختص به كقوله تعالى اقرأ باسم ربك فهذا تكليف يختص به فى الوقت

فهذه نبوة لا رسالة فلما نزل قم فأنذر كانت رسالة لتعلق هذا التكليف بغيره أيضا ومن ثم أتى الناظم بوصفى الآمر الناهى ايماء الى وصفه بالرسالة بعد التصريح بوصفه عليه الصلاة والسلام بالنبوة موافقا بترتيبه اللفظى ترتيب تحققهما فى الخارج وتقدم حقيقة الامر وأما النهى فهو كما قال الشيخ على طبق تعريفه الامر اقتضاء كف عن فعل على جهة الاستعلاء اه ولتحقيق ذلك محل غير هذا وأل فى الوصفين ليست للجنس ولا للاستغراق وذلك ظاهر ولا للعهد وان صح اعتباره لعدم قوة ثمرته وانما هى للدلالة على الفرد الذى استجمع شروط تلك الصفة وأسبابها وما به ينبغى أن يكون ذلك الفرد متصفا بذلك الوصف وربطهما بالسابق فيه لافادة الاتحاد وظهوره التام بجعل نبينا مبتدأ حتى ينخرط صريحا فى سلك ما ذكره عبد القاهر فى قولهم هو البطل الحامى وان شئت شرحه فأعد نظرا فى المطول وحواشيه ولا أرى بدا ان رمت تحقيقه من استقطار سحاب مكتوبنا عليه الموسوم بالغيث الافريقى والفاء للتفريع كما سيتبين لك وأحد فى النفى كما فى الصحاح اسم لمن يصلح أن يخاطب يستوى فيه الواحد والجمع والمؤنث قال تعالى لستن كأحد من النساء وقال فما منكم من أحد عنه حاجزين وأبر أفعل تفضيل من بر فى يمينه اذا صدق كما فى الصحاح وقول لا كناية عن النفى ونعم كناية عن الاثبات اللذين هما حالتا الكلام المعروض للصدق وأبر بالنصب على ما اقتصر عليه الجلال المحلى ولعل له رواية والا فالرفع أرجح لضعف عمل لا حتى قيل باختصاصه بالشعر ومعنى البيت أنه عليه الصلاة والسلام نبينا معاشر أمة الاجابة المشهود لها بالخيرية فى قوله عز اسمه كنتم خير أمة أخرجت للناس هو الذى ينبغى أن يكون آمرا ناهيا أى مبلغا عن الله أمره ونهيه للعباد اذ الآمر والناهى حقيقة هو الله لكونهما راجعين لحكمه المفسر بخطابه المتعلق بأفعال المكلفين فأمره ونهيه عليه السلام أمر ونهى الله تعالى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى واذا كان المعنى ما ذكرناه وأنه لا ينبغى أن يكون الرجل مبلغا لأمر الله ونهيه الا اذا كان متصفا بالامانة وغاية الصدق جاء تفريع قوله فلا أحد الخ الذى معناه أنه لا أحد أصدق منه آخذ العجزه متمكنا كل التمكن فان قلت كيف التكنية بلا ونعم عن النفى والايجاب قلت لكونهما علامين بهما للسائل الطالب لأحدهما وشأن الكلام أن يكون بناؤه على السؤال ولو حكما والا قرب من الفضول فى الغالب هذا هو المنقدح لى فى معنى البيت ودونك ما فى شيخ الاسلام فانه ذكر فى شرح البيت ما لا يلاقى نعم يرد على ما قال الناظم ما روى فى حديث ذى اليدين من قوله عليه السلام كل ذلك لم يقع وما روى أيضا من قوله عليه السلام للاشعريين حين استحملوه والله لا أحملكم ثم لما أوتى الذود دعاهم وحملهم وقالوا استغفلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حلف أن لا يحملنا ثم نسى وحملنا واختار شيخ الاسلام فى الجواب عن الاول منع أن النفى غير مطابق للواقع اذ لم يقع تقصير ولا نسيان بمعنى ما يحصل للغفلة والتفريط كما هو مقتضى النسبة فى قول ذى اليدين فالمعنى لم أنس نسيان غيرى بل نسيان رحمة لما فيه من الاستنان ونسيان غيرى نقمة نسوا الله فأنساهم وعن الثانى بأن معنى لا أحملكم لا شئ معى من زائد على ما أستحق منها أحملكم عليه فلما أوتى ما أوتى منها حملهم ولذا قال ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم هذا وفى اضافة نبينا من تشريف المضاف اليه ملا

بحق وما أحسن ما ينسب الى الامام الشافعي رضي الله عنه في ذلك المعنى

ومما زادني شرفا وتيها * وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي * وأن صيرت أحمد لي نبيا

وقد جمع الناظم في البيت بين تطابق الاسمين والحرفين ومن المجز في الاول قوله عز اسمه وما يستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور وفي الثاني لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت وفي العمدة من الطباق الحسن قول اعرابي خرجنا حفاة حين انتعل كل شئ ظله وما زادنا الا التوكل ولا مطايانا الا الأرجل حتى لحقنا بالقوم وقال آخر لصاحبه ان يسار النفس أفضل من يسار المال فان لم ترزق غنى فلا تحرم تقوى فرب شبعان من النعم غرثان من المكرم (واعلم) أن المؤمن على خير ترحب به الارض وتبشر به السماء ولن يساء اليه في بطنها وقد أحسن على ظهرها اه وفي قوله فلا أحد الخ التقسيم وهو استقصاء أقسام الشئ وكأنه أخذه من قول نصيب فقال فريق القوم لا وفريقهم * نعم وفريق قال ويحك لم أدر فقد قيل انه أفضل بيت وقع فيه التقسيم وبما بيناه علم أن ليس قوله لا ونعم من اللف والنشر المعكوس كما قال شيخ الاسلام

*(هو الحبيب الذي ترجى شفاعته * لكل هول من الأهوال مقتحم)*

الحبيب بمعنى المحبوب والمراد محبوب لله والقصر المستفاد من تعريف الخبر اما باعتبار التسمية أو بمراعاة معنى الكمال كما سيظهر ان شاء الله فلا يرد يحبهم ويحبونه وترجى بالبناء للغائب من الرجاء ممدودا وهو الامل في الصحاح وقد يكون الرجاء بمعنى الخوف قال الله تعالى مالكم لا ترجون لله وقارا أي لا تخافون عظمة قال أبو ذؤيب

اذا لسعته النحل لم يرج لسعها * وحالفها في بيت نوب عواسل

والشفاعة في اللغة الوسيلة وعليه قول قيس بن الملوح

ونبئت ليلى أرسلت بشفاعة * الي فهلا نفس ليلى شفيعها

وقريب من ذلك ما في العرف أنها طلب الخير للغير والهول الفزع مصدر هاله الشئ يهوله اذا أفزعه ومنه الهولة بالضم اسم لنار الحالف في الصحاح قال أبو عبيدة كان في الجاهلية لكل قوم نار وعليها سدنة فاذا وقع بين رجلين خصومة جا آ الى النار فيحلف عندها وكان السدنة يطرحون فيها ملحا من حيث لا يشعر يهولون بها عليه قال أوس

اذا استقبلته الشمس صد بوجهه * كما صد عن نار المهول حالف

ومن الاهوال صفة والحرف للتبعيض كما قال ابن القصار ومقتحم اسم مفعول من اقتحمت الشئ اذا رميت نفسك فيه من غير روية والمراد منه هنا لازمه وهو الوقوع فيه بغتة بلا طيب نفس والمعنى أن نبينا عليه السلام هو المحبوب لله الذي يرجو الخلائق شفاعته وطلبه الخير لهم من الله عز اسمه عند كل الاهوال والشدائد المفزعة أو لاجلها حيث تبغتهم ويلجؤن للوقوع فيها واختار صيغة المضارع في الصلة لقصد ما تشعر به من الاستمرار التجددي فيناسب العموم الشامل لاهوال الدنيا والآخرة هذا وقد طفحت الأحاديث بأنه عليه السلام حبيب الله وأن امرتبة تزيد بمرتبته التي شارك فيها الخليل عليه السلام روينا في الشفاء

لابي الفضل عياض رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه قال فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا ان الله قد اتخذ ابراهيم من خلقه خليلا وقال آخر ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه الله تكليما وقال آخر فعيسى كلمة الله وروحه وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قد سمعت كلامكم وعجبكم ان الله اتخذ ابراهيم خليلا وهو كذلك وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روح الله وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الاولين والآخرين ولا فخر وفيه من طريق عبد الله بن مسعود وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا وقد اضطربت الآراء في أي المرتبتين أفضل وموجب الشبهة اختصاصه عليه السلام بمرتبة المحبة وقد ظهر للذهن الكايل أن أبينه بيانا شافيا منتزعا من كلام أئمة الدين المذكور في كتاب الشفاء من غير تصريح بما عليه الانفصال فأقول أولا قد تقدم بيان المحبة بما لا مزيد عليه مما علمت به استحالتها على الذات العلية وان مثلها ان ورد في حقه منظور فيه الى اللوازم ولذا قال القاضي أبو الفضل رحمه الله محبة الله لعبده تمكينه من سعادته وعصمته وتوفيقه وتهيئته لاسباب القرب وافاضة رحمته عليه وقصواها كشف الحجب عن قلبه حتى يراه بقلبه وينظر اليه ببصيرته فيكون كما قال في الحديث فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ولا ينبغي أن يفهم من هذا سوى التجرد والانقطاع اليه والاعراض عن غيره وصفاء القلب له واخلاص الحركات له اه وهو بيان لما تقدم في الحب من قول بعضهم أوله يحبهم وآخره يحبونه ثم بعد هذا نقول ان الخليل فعيل بمعنى فاعل كعليم بمعنى عالم كما صدر به القرطبي في تفسيره اما بمعنى الفقير المحتاج المنقطع الى من احتاج اليه أخذا من الخلة بالفتح وهي الحاجة وعليه قول زهير يمدح هرم بن سنان

وان أتاه خليل يوم مسغبة * يقول لا غائب مالي ولا حرم

ومن ثم قيل سمي ابراهيم عليه السلام خليلا لانقطاعه باحتياجه الى الله تعالى مخلصا لما أريد أن يرمى في النار روي أنه لما رمي بالمنجنيق وصار في الهواء أتاه جبريل عليه السلام وقال له ألك حاجة فقال اما اليك فلا وعليه فخلة الله له نصرته اياه لما انقطع اليه وهذا المعنى ثابت لنبينا عليه الصلاة والسلام بلا ريب وعليه يحمل حديث لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا فلا ينافيه ثبوت محبته عليه السلام لفاطمة وغيرها كما قيل ومزية مرتبة المحبوبية على هذه المرتبة غنية عن البيان واما بمعنى المخلص في وده أخذا من الخلة بالضم بمعنى صفاء المودة واخلاصها وهو ما صرح به بشار في قوله

قد تخللت مسلك الروح مني * وبذا سمي الخليل خليلا
فاذا ما نطقت كنت حديثي * واذا ما سكت كنت الغليلا

وعليه قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة وقوله عز اسمه الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو وعلى هذا فالفرق بين المرتبتين هو

الفرق بين مرتبتي المحب والمحبوب فاعتبر ما بينهما من البون الذي أدركه من قال

فيا ليت قاضي الحب يحكم بيننا * وداعي الهوى لما دعاني دعاكم

ولاحظ لازمه في جانب من تستحيل عليه الحقيقة جل ثناؤه وهذا ما أراده من قال كما في الشفاء الخليل يصل بالواسطة لقوله تعالى وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض والحبيب يصل اليه به لقوله فكان قاب قوسين أو أدنى وقول من قال الخليل قال ولا تخزني والحبيب قيل له يوم لا يخزي الله النبي" فابتدئ بالبشارة قبل السؤال والخليل قال في المحنة حسبي الله والحبيب قيل له يا أيها النبي حسبك الله والخليل قال واجعل لي لسان صدق في الآخرين والحبيب قيل له ورفعنا لك ذكرك أعطى بلا سؤال والخليل قال واجنبني وبني" أن نعبد الأصنام والحبيب قيل له انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت اه واذا ذقت لطافة ولسوف يعطيك ربك فترضى وحديث لولا أن الحبيب يحب معاتبة حبيبه ما حاسبت أمتك سرا" او لا جهرا اتضح لك منار ذلك المقام واذا كنت على يقين مما أريناك ونبغت في الأدب وحدائق البلاغة أدركت ما في الحديث السابق عن ابن عباس من المرتبة البلاغية المعلنة بصدق قوله عليه السلام أنا أفصح العرب حيث جمع فيه مزايا خصه الله بها امتنانا منه وفضلا معلنة بما له لديه من شديد المكانة بانباء له على أنه حبيب الله وان كان خليله كما في غير ذلك الحديث وتبين لك حسن وصف الحبيب بالذي ترجى شفاعته في كلام الناظم اغترافا من بحر بلاغة الحديث وان الاولى نسج هو الحبيب الخ على منوال هو البطل الحامي فلا قصر وان راعيته فاما باعتبار التسمية وهو بعيد واما باعتبار قصر الجنس مراعاة لكماله فيه واما باعتبار الوصف وعموم الشفاعة فانها وان ورد النص بثبوتها لغيره عليه السلام لكن لا على وجه الاستغراق لكل مفزع وأنت تعلم الخلاف في الشفاعة وانكار المعتزلة لها وان لنبينا عليه الصلاة والسلام شفاعات أعمها شفاعة الموقف لتعجيل الحساب وان شئت استيفاء أقسامها وما ورد فيها من الاحاديث فعليك بالباب الثالث من القسم الأول من كتاب الشفاء

﴿دعا الى الله فالمستمسكون به * مستمسكون بحبل غير منفصم﴾

بيان لرسالته عليه السلام وأصل الدعاء النداء وطلب الاقبال استعمل في تبليغ الرسالة والأمر بامتثال الأوامر واجتناب النواهي لما فيه من طلب الاقبال من المدعو على المدعو اليه والى الله على حذف المضاف أي دين الله وهو الاسلام والفاء للتفريع والمستمسكون من استمسك بالشئ فأمسك به وتمسك به وامتسك به اعتصم به ومنفصم من فصمت الشئ كسرته من غير أن تبين أجزاءه وأما القسم فهو الكسر مع البينونة ومن ثم اختار الاول المصنف لان نفيه يستلزم نفي الثاني دون العكس والمعنى أنه عليه الصلاة والسلام لما بعثه الله تعالى دعا كل أحد الى دين الله فمن أجابه وتمسك به واتبعه كان كالمتمسك بحبل متين لكونه داعيا الى الله ومأخذ هذا قوله تعالى يا أيها النبي" انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وقوله تعالى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها وفي تعليق الدعاء بعنوان لفظ الجلالة الدال على صفتي الجلال والجمال ايماء الى

ان دعاءه ما بين ترغيب وترهيب وذلك مضمون البشارة والنذارة وفي مادة الدعاء ترجيح جانب الترغيب ويؤيده ما ورد في الحديث مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل بنى دارا وصنع مائدة وأمر داعيا يدعو الناس الى تلك الدار فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ومن لا فلا وحذف المفعول في البيت اقتداء بالنظم القرآني للدلالة على العموم فيفيد عموم رسالته لكل أحد من الجن والانس وهو الواجب اعتقاده وانكار اليهود والنصارى ذلك وزعمهم التخصيص بالعرب فرط بلادة ضربت عليهم أينما ثقفوا وقوله في الآية باذنه اشارة الى ما صرح فيه بالامر بذلك من الآي كقوله تعالى وهو أول آية في الرسالة يا أيها المدثر قم فأنذر الآية قال أبو القاسم السهيلي في الروض الانف قال بعض أهل العلم في تسميته اياه بالمدثر في هذا المقام ملاطفة وتأنيس ومن عادة العرب اذا قصدت الملاطفة أن تسمي المخاطب باسم مشتق من الحالة التي هو فيها كقول النبي لحذيفة قم يا نومان وقوله لعلي بن أبي طالب وقد ترب جنبه قم أبا تراب فلو ناداه سبحانه وهو في تلك الحال من الكرب باسمه أو بالامر المجرد من هذه الملاطفة لهاله ذلك ولما بدئ بيا أيها المدثر علم أن ربه راض عنه فان قيل كيف ينتظم يا أيها المدثر قم فأنذر وما الرابط بين المعنيين حتى يلتئما في قانون البلاغة قلنا من صفته عليه السلام ما وصف به نفسه حين قال أنا النذير العريان وهو مثل معروف عند العرب يقال لمن أنذر بقرب العدو وبالغ في الانذار هو النذير العريان وذلك أن النذير الجاد يجرد ثوبه ويشير به اذا خاف أن يسبق العدو صوته وقد قيل ان أصل المثل لرجل من خثعم سلب العدو ثوبه وقطعوا يده فانطلق الى قومه نذيرا على تلك الحال فقوله عليه السلام أنا النذير العريان أي مثلي مثل ذلك والتدثر بالثياب مضاد للتعري فكان في قوله يا أيها المدثر مع قوله قم فأنذر تشاكل بين والتئام بديع وسمانة في المعنى وجزالة في اللفظ

﴿فاق النبيين في خلق وفي خلق * ولم يدانوه في علم ولا كرم﴾

فاق الرجل أصحابه يفوقهم فوقا وفواقا أي علاهم بالشرف كذا في القاموس والخلق في الاصل التطوير ويطلق على النشأة والمراد به هنا الهيئة التي عليها نشأت الذات والخلق بضمتين السجية والطبيعة كالخليقة والمداناة المقاربة والعلم المعرفة والكرم السخاء والجود وفي المعارج الكرم فينا ملكة فطرية تحمل صاحبها على البذل في غير مقابلة ومجازاة وله مراتب ترجع الى صفاء تلك الملكة وكدورتها اه والمعنى أنه عليه الصلاة والسلام فاق على جميع النبيين في المحاسن الذاتيه وفي جميع الاخلاق الطبيعيه أخذا من عموم النكرة في الاثبات بقرينة المقام نحو علمت نفس كما نص عليه الاصوليون وهذا اجمال خلقه وخلقه لتعذر تفصيله كما سيقول أعيا الورى الخ ويتعرض للتنزل في قوله أكرم بخلق نبي" الابيات ولم يقاربوه في صفتي العلم والكرم وهذا كالاستثناء مما يقتضيه العلو من قرب المسافة فسه على أنهم لم يقاربوه في هاتين الصفتين كيف وان من جوده الدنيا وضرتها ومن علومه علم اللوح والقلم وفي الحديث علم أمرني بتبليغه وعلم أمرني بكتمانه يريد بالاول علم الشريعة وبالثاني علم سر" الربوبية ومن ثم حكم مشيخة التصوف بأن افشاء سر" الربوبية كفر كذا في المعارج والعلم في الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم طبيعة فطرية كما قال القاضي في الشفاء أودعوا العلم

والحكمة فى الفطرة قال تعالى وآتيناه الحكم صبيا ومن تتبع سيرهم وقصصهم علم ذلك يقينا هذا وشواهد حسن خلقه صلى الله عليه وسلم متكاثرة منها مافى الشفاء عن على كرم الله وجهه من رآه بديهة هابه ومن رآه معرفة أحبه يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم وشواهد حسن خلقه كذلك وكفى شهادة قوله عز اسمه وانك لعلى خلق عظيم وعن عائشة كان خلقه القرآن انظر شرحه من شرح الشهاب على الشفاء وقد تضمن كلام الناظم أنه صلى الله عليه وسلم فاق جميع الخلق فيما ذكر لكونه فاق الأحسن كما فى حديث أنس مابعث الله نبيا الاحسن الوجه حسن الصوت وكان نبيكم أحسنهم وجها وأحسنهم صوتا ومن ثم قال الناظم فى آخر النظم ياأكرم الخلق الخ

﴿وكلهم من رسول الله ملتمس * غرفا من البحر أورشفا من الديم﴾

الالتماس الطلب وفى المشهور بشرط موافقة المطلوب والغرف مصدر غرفت الماء بيدى اذا تناولته بها والبحر معروف سمى به لعمقه واتساعه وجمعه أبحر وبحار وبحور والرشف مصدر رشفه يرشفه بضم الشين وكسرها اذا امتصه والمرشف المرأة الطيبة الفم والديم جمع ديمة وهى المطر ليس فيه رعد ولا برق يدوم يوما وليلة وانتصاب غرفا ورشفا على المفعولية لملتمس والمعنى على التشبيه أى شيأ قليلا كالغرف من البحر أوالرشف من الديم وكل من الظرفين لغو والتخريج على الاستعارة أو التشبيه البليغ بحذف الاداة على طريقتى السعد والجمهور وأو للتشكيك تنبيها على المبالغة فى القلة كما هو شائع عند قصد المبالغة فى الاوصاف ومن جيده قول ابن خميس التلمسانى

نظرت اليك بمثل عينى جؤذر * وتبسمت عن مثل سمطى جوهر
عن ناصع كالدر أوكالبرق أو * كالطلع أوكالاقحوان مؤشر

والمعنى ان جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام ملتمسون من بحر معارفه صلى الله عليه وسلم شيأ بالغا فى القلة مبلغ الغرفة من البحر أوالرشفة من الديم ومن البين أن الالتماس المذكور نورانى لانه فى المعارف والعلوم التى هى أنوار وحينئذ كان معنى التماسها اتصال أشعتها بالملتمس كما سيقول * فانه شمس فضل هم كواكبها الخ والتشبيه بما ذكر انما هو لبيان غاية القلة تثبيتا المعقول بالمحسوس فلا يرد عليه أنه يقتضى نقصان معارفه بقدر ما التمسوا بخلاف البيت الآتى على أن لك أن تجعل من فى الظرفين متعلقة بحال مقدرة أى منسوبا من البحر ومنسوبا من الديم مثلها فى حديث أنت منى بمنزلة هرون من موسى ويكون المعنى أن ما التمسوه من أنواره بمثابة الغرفة منسوبة الى البحر والرشفة منسوبة الى الديم فلا يرد ماذكر أصلا

﴿وواقفون لديه عند حدهم * من نقطة العلم أومن شكلة الحكم﴾

واقفون خبر ثان روعى فيه المعنى كما روعى فى ملتمس اللفظ ولدى بمعنى عند الا أنها تختص بالحضور والحد المنتهى ومن بيانية مشوبة بتبعيض والنقطة عند الحكماء عرض لا ينقسم بوجه وهو نهاية الخط المنقسم طولا وهو نهاية السطح المنقسم طولا وعرضا وهو نهاية الجسم التعليمى المنقسم عمقا أيضا والشكلة مايتميز به حال النطق بالحرف والحكم جمع حكمة

وهى اتقان علم الشئ ومن ثم قيل فى قوله عز اسمه يؤتى الحكمة من يشاء انها العلم النافع والاصابة فى الامور وقيل الفقه والعمل به والاضافة من اضافة المشبه به الى المشبه أى علم كالنقطة وحكم كالشكلة ووجه الشبه فى الاول أن العلم البشرى متحد المآل من حيث ان المقصد الحقيقى منه المعرفة بالله جل ثناؤه فجميع العلوم وسائلها ومقاصدها راجعة اليها وهى جهة وحدتها وقصور النظر من الغالب أوجب التعدد فى المقاصد بناء على الظاهر ومن ثم قيل العلم نقطة كثرها الجاهلون ووجه الشبه فى الثانى أن الشكلة فى الحرف بها يعرف حاله وبها يندفع اشكاله وفيه اتقان للمقصود منه والحكمة كما تقدم اتقان العلم فتناسبا وأو للتقسيم والمعنى أن جميع الانبياء عليهم السلام واقفون فى حضرته الاولية عليه الصلاة والسلام عندما حد لهم من العلم والحكم وبما قررناه علم أنه لا حاجة لبدلية عند من لدى مع فساده كما لا يخفى ولا لما قيل فى معنى البيت هذا وأصل معنى البيتين ماروى عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قالوا يارسول الله متى وجبت لك النبوة قال وآدم بين الروح والجسد ومثله ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما عنه صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم أهبطنى فى صلبه الى الارض وجعلنى فى صلب نوح فى السفينة وقذف بى فى النار فى صلب ابراهيم ثم لم يزل ينقلنى من الاصلاب الكريمة الى الارحام الطاهرة حتى أخرجنى بين أبوى لم يلتقيا على سفاح قط والى هذا المعنى أشار عمه العباس بقوله

من قبلها طبت فى الظلال وفى * مستودع حيث يخصف الورق * ثم هبطت البلاد لا بشر * أنت ولا مضغة ولا علق * تنقل من صالب الى رحم * اذا مضى عالم بدا طبق *

وتفصيله ماذكره لطف الله فى المعراج الثالث أنه اشتهر ما بين الخاص والعام ان أول ماخلق الله نور محمد صلى الله عليه وسلم أخذا من حديث أول ماخلق الله العقل فان الشئ الواحد قد يسمى باسماء متعددة باعتبارات وان ذلك النور تجزأ فنبسط منه العوالم كلها وفى بعض الآثار أن الله أودع نوره فى آدم ثم فى حواء ثم فى آمنة بنت وهب وقد اتفق على الاولى الصوفية والمتشرعون والفلاسفة قالوا ان الصادر عن الحق تعالى قبل خلق كل شئ من عالم الامر والتكوين نور بسيط مجرد يعبر عنه بالعقل الاول والعقل الكل والروح الكل والقلم الاعلى والدرة البيضاء وغير ذلك ونعته الصوفية بنعوت بديعة قالوا انه تقدس وتعالى لما أراد أن يكشف عن كمالاته الازلية بالوجود التفصيلى أوجد ذلك النور البسيط وأودع فيه جميع كمالاته التى كانت كنزا مخفيا وأدرج فيه جميع مايكون فى العالم ومخلوقاته بحيث لم يشذ عنه فرد من الازل الى الابد فكأنه فى المثال صورة علمه القديم تمثلت به فقامت بذاتها ولم يفته الا الوجوب والغنى الذاتيان والوحدة الذاتية بمعنى ان هذه الثلاثة لم يمكن تمثلها فى سوى ذات الحق تعالى كما أمكن غيرها من الكمالات وسموا ذلك النور حقيقة محمدية و يعتقدون أن ذلك النور أول مرتبة من عالم الامر وأكملها وأعظمها وان منه وجود العوالم كلها على مراتبها وما ورد فى الآثار مما يقتضى تجزى ذلك النور المنافى لبساطته كما قرروا محمول على صحة نقله وكونه واردا على مدلوله على ما يحال أمره الى العليم الخبير ولذا لم يذهب أحد من الطوائف التى اليها انتهى علم البشر بعد الانبياء

الى ذلك وذلك لان التجزئة من خواص المقدار وهو بالجسم ولم يكن فى عالم الامر جسم ولا جسمانى بمقتضى الكشف الصحيح عند الصوفية والاشراق بالتصفية عند الاشراقيين والادلة العقلية عند الحكماء وانما ظهور ذلك العالم من ذلك الجوهر النورى المجرد بنسمة سببية خفية ليس له شبيه فى عالم الخلق حتى يتوسل به الى فهمه فان قلت كيف ذلك وقد قام صلى الله عليه وسلم فى صورة البشر بلوازمه وخواصه قلت قد ثبت فى كشف المحققين أن النفوس الكاملة لا تتقيد بموطن ولا تغيب عن حضرة ولا تحجب بشئ والحقيقة المحمدية أكملها وأقربها الى الحضرة الاحدية وبها ظهورات بحسب المواطن وطوالع بحسب الآفاق كما كانت تنتقل من ظهر الى آخر ومن جهة الى أخرى وليست فى ذلك كله بمتجزئة ولا منتقصة ولذا صح عنه قوله عليه السلام كنت نبيا الحديث لانه لم يزل مبلغا للفيوضات الالهية والمعارف الربانية فى كل عالم وموطن والظهور على حسب الاستعداد فلا تغرّنك الظواهر فانها حجب البواطن ومن لسان الجمع ارفع الاوانى وخض فى المعانى حتى ترانى وله صلى الله عليه وسلم مطلق ولاية يسمى سرّ الخصوصية وهو جهة ارتباط باطن سره الى حضرة القدس ومطلق نبوّة وهى جهة ارتباط ظاهره اليها فكل نبوّة وولاية فهى خليجة من بحريهما او شعاع من شمسيهما فهو القسم الاوّل الكائن به فتح قفل الوجود وكماله ولديه استقر حسنه وجماله ومن ثم ظهر كل نبى بخصوص قوم ومعجزة ومشرب ومعرفة وملكة نفس وذات سر الوجود صلى الله عليه وسلم ماتقيد بشئ منها بل احتوى الكل فى الكل لينطبق آخر دائرته على أولها او يظهر سر قوله عز وجل كما بدأكم تعودون والقانون الكلى الملتزم فى جميع الحقائق الوجودية والكمالات الظهورية انطباق البداية على النهاية حقيقة وشأنا وحكما ومن ثم قيل فى مطلع تخميس الهمزية

كنت نورا وكان ثم عماء * ونبيا وليس طين وماء * فاذا كان من علاك العلاء

كيف ترقى رقيك الانبياء * ياسماء ماطاولتها سماء اه بتصرف

﴿فهو الذى تمّ معناه وصورته * ثم اصطفاه حبيبا بارئ النسم﴾

الفاء للتفريع دالة على أن مدخولها نتيجة الكلام السابق والتمام الكمال والمراد بالمعنى هنا الحقيقة بدليل المقابلة بالصورة أو ماعنى من الشئ أى أريد منه والاصطفاء الاختيار والبارئ من أسمائه تعالى بمعنى الخالق والنسم جمع نسمة بالتحريك بمعنى الانسان والمعنى ان كان التفريع على فاق النبيين أنه الذى تمت صورته وأخلاقه الكريمة التى هى مدار المراد من البشر وذلك بنشأته وفطرته كما تقدم ثم بعد مضى مدة وهى أربعون سنة بعثه الله نبيا مصطفى حبيبا وان كان التفريع على وكلهم ومابعده كان معناه أنه الذى تمت حقيقته المحمدية وصورته النورانية فى عالم الامر ثم ابرزه الله للوجود العيانى مصطفى حبيبا ببعثته الخاتمة للرسالة

﴿منزه عن شريك فى محاسنه * فجوهر الحسن فيه غير منقسم﴾

أصل التنزه التباعد من المياه كما قال ابن السكيت شاع من قولهم سقيت ابلى ثم تنزهتها الماء أى باعدتها منه ثم شاع فى البعد عن النقيصة ومنها مشاركة من دون الاعلى له فى كمالاته

والمحاسن جمع الحسن على غير قياس وهو ضد القبح والجوهر النفيس من الاحجار والعرف على اختصاصه بالدر وعند الحكماء المتحيز بالاصالة الذى لا يقبل الانقسام والمعنى أنه عليه السلام باعده الله من أن يشاركه أحد فى جميع محاسنه فكان حسنه الذى هو لنفاسته بالنسبة الى غيره كالجوهر الفرد لا يقبل الانقسام الذى هو أصل المشاركة وناسب مابين الجوهر ونفى الانقسام بايهام ماعند الحكماء فان قلت على ما اعتبرته من العموم فى المحاسن أخذا من اضافة الجمع يرد المشاركة فى وصفى النبوة والرسالة قلت ليست نبوته ورسالته كنبوة ورسالة غيره وقد مر شرحه فتذكر وكلمة فيه متعلقة بمحذوف اما نكرة حال أو معرفة صفة ان قلنا بجواز تقدير متعلق المستقر معرفة وفى معنى البيت من التفرد بالمحاسن قول بعضهم

أضحى الجمال بأسره فى أسره * فلاجل ذا كل القلوب اسعودا

والله ماخطر السلو بخاطرى * مادمت فى قيد الحياة ولا اذا

ان عشت عشت على هواه وان أمت * وجدا به وصبابة ياحبذا

وقول الآخر وفيه مافيه رشأ تفرد فيه قلبى بالهوى * لما غدا بجماله متفردا

ومن جيد ذلك قول شيخ المعرة مكنيا عنه

أعاذ مجدك عبد الله خالقه * من أعين الشهب لامن أعين البشر

فالعين يسلم منها ما رأت فنبت * عنه وتلحق ماتهوى من الصور

﴿دع ما ادّعته النصارى فى نبيهم * واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم﴾

دع أمر بمعنى اترك مستعمل المضارع متروك الماضى والمصدر والصفتين استغناء بتصرفات الترك وسمع نادرا ماضيه فى قوله ليت شعرى عن خليلى ما الذى * غاله فى الحب حتى ودعه ومنه حديث دعوا الحبشة ماودعوكم وجاء فى الشعر أيضا وصفه كقول خفاف بن ندبة

اذا ما استحمت أرضه من سمائه * جرى وهو مودوع وواعد مصدق

أى متروك لا يضرب ولا يزجر كذا فى الصحاح والنصارى جمع نصران ونصرانة كندامى جمع ندمان وندمانة ولم يستعمل المفرد الا بياء النسب نسبة الى نصران قرية بالشام كان نزلها عيسى وأمه عليهما السلام وقيل سموا بذلك لتناصرهم وقيل لقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام من أنصارى الى الله والمراد بنبيهم عيسى بن مريم واحكم من الحكم بمعنى القضاء والمدح الثناء الحسن ويختص فى أصله بالجميل الغير الاختيارى وان عمّ فى العرف واحتكم من قولهم حكمته فى كذا فاحتكم أى أجاز حكمه والمعنى اترك ما ادّعته النصارى فى عيسى عليه السلام من دعوى الالوهية واقض بما شئت من أنواع المدح فى حقه فان حكمك به ماض لمصادفته محله ودعوى النصارى الوهية عيسى متنوعة الى أقوال ثلاثة فمنهم من يقول هو اله ومنهم من يقول ابن الله ومنهم من يقول ابن الهين وهم مع اختلافهم مجمعون على التثليث ويقولون ان عيسى لاهوت وناسوت أى هو مركب من جزء الاهى وجزء انسانى وفى اضافة النبى اليهم نداء بغباوتهم وفرط بلادتهم فان معنى النبوة يباين معنى الالوهية فان قلت لماذا عدل عن صيغة النهى الى صيغة الامر مع تلازم المعنيين من حيث ان الامر بالشئ نهى عن ضده واتحاد معنى كل هنا فان النهى طلب ترك الفعل والامر المذكور

طلب ترك قلت يعرف ذلك بمعرفة الفرق بين كف عن الفعل ولا تفعل وهو كما قال السيد ملاحظة الترك فى الاول من حيث ذاته وفى الثانى من حيث كونه وسيلة لمعرفة حال الفعل على ماهو الشائع فى الفرق بين المدلول الحرفى وغيره عند اتحاد أصل المعنى ويتبع ذلك اعتبار تحصيل مصلحة الترك ودفع مفسدة الفعل فالقائل لا تضرب زيدا معتبر لما فى ضربه من المفسدة والقائل اترك ضرب زيد معتبر لما فى الترك من المصلحة ولا تغتر بالتلازم فان للاولية مرتبة فى المقاصد لا تنكر وبهذا يستنكر عند صاغة الكلام قول الحسن بن هانى

دع عنك لومى فان اللوم اغراء * وداونى بالتى كانت هى الداء

مالم يكن له فى ميدان الصرف عن الظاهر مجال بان يقال التعليل منظور فيه للازمه أعنى مافى الترك من المصلحة وعلى ذلك تخرج نظائره وتطبيق هذا البيان على صنيع الناظم أن المقام لما كان للمدح كان باعتبار رجحان مصلحة الترك أهم من ترك مفسدة الفعل وفيه ايماء لطيف الى شدة ماوقع فيه النصارى من مناقضة المقصود بتلك الدعوى حيث ضيعوا المدح بتلك الدعوى ووقعوا فى الذم بها واليها الاشارة بالتصريح بقوله مدحا فان مدح الممدوح بمقام ليس له ولا لنوعه ذم وان كان أعلى كما تقدم فى مقدمة الكتاب وان وصلت الى قول من قال يمدح ملكا تعجب من كلام المتنبى

لئن جاد شعر ابن الحسين فانما * تجيد العطايا واللها تفتح اللها

تنبأ عجبا بالقريض ولو درى * بانك تروى شعره لتألها

وقفت على الغاية من فساد القول المنبئ عن ضيق حضرة القائل فان قيل ماوجه الاقتصار على النصارى وقد ادعى اليهود مثل دعواهم فى عزير كما حكاه الله عنهم بقوله وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله قلنا نوجه بأحد توجيهين أولهما أنها مقالة خاصة ببعض اليهود غير عامة كمقالة النصارى قال القرطبى فى تفسيره لفظ اليهود عام ومعناه الخصوص مثل قوله تعالى الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم قيل قائل ماحكى عنهم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الضيف قالوه للنبى صلى الله عليه وسلم * وروى فى سبب تلك المقالة أن اليهود لما قتلوا الانبياء بعد موسى عليه السلام رفعت عنهم التوراة ومحيت من قلوبهم فخرج عزير يسيح فى الارض فأتاه جبريل عليه السلام وقال له أين تذهب قال أطلب العلم فعلمه التوراة فجاءهم بها فقالوا لم يتأت هذا له الا وهو ابن الله اهـ ثانيهما أن الغرض من الامر الاول التنبيه على كون المقام أعلى مما ادعى فيه الالوهية حتى أنه يحتاج للتنبيه على ترك ماوقعوا فيه فهو بداية للمدح تلميحا واعتبار عزير فى التفصيل مخل به كما قرر ومجرد الدعوى من اليهود فرط بلادة لا يخفى وحينئذ تناسب الجملتان أشد تناسب بحيث يتضح تناسقهما كاللاحقة فى قوله

﴿وانسب الى ذاته ماشئت من شرف * وانسب الى قدره ماشئت من عظم﴾

النسبة الاضافة وذات الشئ حقيقته والشرف العلو والمكان العالى والمجد ولا يكون الا بالآباء أو علو الحسب اهـ من القاموس ومن حيث ان الشرف له رفعة معنوية كثيرا مايستعار له الجبل كما قال السموأل

لنا جبل يحتله من نجيره * منيع يرد الطرف وهو كليل

رسا أصله تحت الثرى وسما به * الى النجم فرع لا يرام طويل

والقدر المبلغ كالمقدار وعظم الامر ضد صغر يستعمل فى الاجسام والمعانى وهو المراد هنا والمعنى أضف أيها المادح الى ذاته الكريمة ما أردت من أنواع الشرف النسبية والحسبية والى قدره ماشئت من أنواع العظمة الدالة على كماله بقرينة السابق فتخرج دعوى الالوهية لانها فى مثله منقصة كما تقدم فان قلت ما الفرق بين معنى البيت وسابقه قلنا معنى السابق مدح ومعنى الثانى نسبة واعتقاد كما هو ظاهر اللفظتين والاول وان كان يستلزم الثانى دون العكس لكن صرح به دلالة بالمطابقة وعلى مثله من الاكثار بنيت المدائح غير أن قوله فى البيت بعده فيعرب عنه ناطق بفم لا يناسبه لتعين رجوعه للسابق فيلزم الفصل ويختل أمر النظام والوجه كما قيل أن البيت الثانى تفصيل لاجمال الاول لبيان استحقاقه عليه السلام المدح لذاته ومقامه وخاصيته من تمكن المعنى فى النفس لا ينكر موقعها فى باب المديح أو ماترى قول السموأل

اذا سيد منا خلا قام سيد * قؤول بما قال الكرام فعول * وما أخمدت نار لنا دون طارق *

ولا ذمنا فى النازلين نزيل * وأيامنا مشهورة فى عدونا * لها غرر معلومة وحجول *

فانك اذا تدبرت وجدت مابعد البيت الاول شرحا لمضمونه ومن هذا متروكا فيه حرف العطف قول أبى نواس الذى قال فيه بعضهم أجمع أهل العلم على أنه أجود قول فى المديح للولدين

أنت الذى تأخذ الايدى بحجزته * اذا الزمان على أبنائه كلحا

وكلت بالدهر عينا غير غافلة * من جود كفك تأسو كل ماجرحا

وأما قول شيخ الاسلام فى الجواب ان مضمون البيت الاول الحكم على مديح الغير بالصحة والقبول ومضمون الثانى الامر بعد حلك أنت فى نفسك فلم يتحد امعنى فهو مع قلة جدواه ونفور الطبع من مرماه لا يسايره الامر فى صدر البيت ولا قوله مدحا الراجع الى كلمة ما فان مقتضى ماقرره أن يقول صحة وفى البيتين مع مامر من التفصيل بعد الاجمال الجمع مع التقسيم ومن جيده قول أبى الطيب

حتى أقام على أرباض خرشنة * يشقى به الروم والصلبان والبيع

للسبى مانكحوا والقتل ماولدوا * والنهب ماجمعوا والنار مازرعوا

وخص الذات بالشرف لما أنه يرجع الى الحسب أو النسب وهما للذات لا للقدر بخلاف العظمة فانها فى مقام المدح للمقام لا للذات وفى اناطة المدح بالمشيئة ايماء الى عدم استقصائه ضرورة ووقوف مشيئة الحادث عند حدها وحينئذ جاء التعليل آخذا بحجزه فى قوله

﴿فان فضل رسول الله ليس له * حد فيعرب عنه ناطق بفم﴾

مفردات البيت غنية عن البيان والمعنى أنه لا يمكن استقصاء مدحه لانه لا غاية لفضله حتى يوقف بالمدح عليها وفى قوله بفم تنبيه على قصد الجنس وتنصيص على التعميم كما فى قوله تعالى ومامن دابة فى الارض الا على الله رزقها الآية والمراد برسول الله نبينا عليه السلام ولا مساغ لما قيل يراد به الكلى ليفهم أن نفى حد الفضل ثابت للجميع ويدخل فيه المقصود بالمدح فانه مع فساده فى نفسه بشهادة قوله تعالى تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض والمفضول محدود

فضله ضرورة أنه معدّى بالفضل لا يلاقى سياق الكلام ولا ينتظم مع كلامه السابق أعنى قوله فاق النبيين الخ ومابعده

﴿لو ناسبت قدره آياته عظما * أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم﴾

المناسبة المشاكلة والآيات جمع آية بمعنى العلامة والدارس من درس الرسم اذا عفا وذهب والرمم جمع رمة وهى العظام البالية والمعنى لو كانت آياته على قدر مقامه مماثلة له فى العظمة لكان من آياته أن اسمه مهما ذكر أحيا الله البالى من العظام الذى لم يبق له أثر ببركة ذكر اسمه عنده فنسبة الاحياء اليه مجازية ودارس الرمم منصوب بأحيا ولا وجه لغير نصبه ولا تعقيد فى الكلام كما سبق الى الاوهام ومن حيث ان مضمون البيت الحكم على الآيات بأنها غير مناسبة لمقامه ولو كانت مناسبة لكانت تلك الآية العظيمة يندفع ما قيل انه أعطى ما يساوى تلك الآية المفروضة فى العظمة كالشفاعة الكبرى وغيرها من الشفاعات وكسلام الحجر والشجر وحنين الجذع وهذا نوع من الاحياء وفى حديث قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم طرحت بنية لى فى وادى كذا فانطلق معه الى الوادى وناداها يا فلانة أجيبى باذن الله فقالت لبيك وسعديك فقال لها أسلم أبواك فان أحببت رجعت اليهما فقالت لا أوجدت الله خيرا منهما اه وذلك أن الشفاعة ونحوها ليست من الآيات لكونها من مغيبات الآخرة وأما ما بعدها فهو وان كان يساوى المفروض فى الكون احياء لكنه دونه فى الدلالة للفرق التام ما بين ذاته الشريفة ومخاطبته الكريمة وما بين ذكر اسمه وهذا بين لا سترة فيه بقى أنه قيل عليه ان ما ادّعاه من عدم المناسبة باطل لان من آياته القرآن وهو كلام الله وصفته فكيف يقال انه لم يناسب قدر النبى وفيه كما قال شيخ الاسلام أنه مغالطة فان المجعول آية الحروف والاصوات التى هى مناط البلاغة والاعجاز دون الصفة فانها لا تفارق الموصوف وان اشترك المعنيان فى اطلاق اسم القرآن قال شيخ الاسلام وقد ذاكرت بعض فضلاء المصريين فى هذا الاشكال فذكر عن بعض فضلاء العجم أنه أجاب عنه بأن مبنى الشرطية على مناسبة كل آية لان آيات جمع مضاف فيعم والعام كلية لا كل وحينئذ لا يضره أن بعض الآيات مناسب قال شيخ الاسلام واستحسنت هذا الجواب حين ذكره ثم نظرت فيه فرأيته يفضى الى خلاف المقصود لانه انما يستثنى فى هذه القضية نقيض التالى فينتج نقيض المقدم أى لم يناسب كل فرد من آياته قدره نعم لو كان العام كالا لصح فانه لا يلزم من نفى الحكم عن المجموع نفيه عن كل فرد اه وفى كل من الجواب والبحث نظر أما الجواب فهو مبنى على اعتبار الكلية كما قال وذلك مفسد للتزوم الشرط اذ لا علاقة بين مناسبة تلك الآية المفروضة ومناسبة كل آية وانما المعنى على ارادة الجنس من الآيات ومناسبة بعض الجنس يوجب مناسبة الجنس وأما البحث فلأن نفى العموم لا يقتضى نفى كل فرد فقولنا لم تناسب كل آية مقامه لا يقتضى أن كل آية لم تناسب مقامه فافهمه فان قيل ما وجه اعتبار سببية الذكر فى الاحياء دون أمر آخر مما ينبئ عن التعظيم قلنا ان للاسم نسبة من المسمى لا تخفى ولما كان المسمى السبب فى أصل الوجود ناسب أن يكون الاسم سببا فى الوجود الثانى قصدا للتشاكل وهو مأخوذ من قول شيخ المعرة يمدح الشريف أبا ابراهيم

ولو كتب اسمه ملك هزيم * على راياته والى الفتوحا

وعلى ذلك جاء قول سلطان العاشقين فى خمريته

ولو رسم الراقى حروف اسمها على * جبين مصاب جن أبرأه الرسم

فان المسمى لما كان مبرئا من جنون الجهل والغيبة الذى هو الجنون حقيقة ناسب أن يكون الاسم مبرئا من الجنون الحسى الظاهرى وبهذا البيان تلاشت الأوهام فان قلت أى ربط بين البيت وسابقه قلنا فيه دلالة على عجز المادح الملوّح اليه سابقا بتفويض الأمر لمشيئته والمصرّح به بعد فى نفى حد فضل الممدوح ووجه الدلالة هو أن الآيات أعظم مظهر لمقامه الرفيع وأسطع مصرّح بشرفه الشامخ المنيع وكذلك أنها منوطة بخرق العادة وقد وقع له منها ما لم يقع لغيره فاذا كانت دون مقامه لزم أن يكون كل مدح من المادح وان تناهى الى غايته غير واف بذلك لزوما بينا والله أعلم

﴿لم يمتحنا بما تعيا العقول به * حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم﴾

الامتحان الاختبار وتعيا به لم تهتد لوجهه فى القاموس عيى بالأمر كرضى كتعايا واستعيا وتعيا لم يهتد لوجه مراده أو عجز عنه ولم يطق احكامه والحرص شدة الطلب وبعد على مضاف أى على هدايتنا ونرتب نشك ونهم من هام فى أمره اذا لم يجد له مخرجا والمعنى أنه عليه الصلاة والسلام لم يأت بالآيات المصدقة لنبوته المقصود منها امتحان الامة فى التصديق بما لا تهتدى العقول لوجه دلالته بل أتى بها على وفق ادراك العقول حرصا على هدايتنا فلم نشك فى أمره ولم نتحير فيه والمقصود أبداء وجه لكون آياته دون مقامه وبيان أن الحكمة من نصب الآية تصديق الآتى بها مدعيا للنبوة ووجه دلالتها عليه ادراكها وعلم انها خارجة عن المعتاد لا تكون الا بعناية الله تعالى لمن أتى بها فاذا لم يمكن الوصول اليها لم يمكن الايمان بها فلا يحصل التصديق بل يبقى الامر فيه تابعا لحالها من الحيرة فيها وقد تدرك لجهة عظمتها من غير وجه دلالتها فينتقل منها الى الخروج عن حالة الآتى بها تبعا لعظمة أمرها حتى يصل الامر الى دعوى الالوهية كما وقع للنصارى فيحصل الهيام والضلال وقد مر بيان مرتبة الحقيقة المحمدية بما يتبين به أن لو كانت الآيات على قدرها لاشتبه الامر غاية الاشتباه ولم يكن منه مخلص الا بالعناية الصمدية وبما قررنا تبين لك وجه الاقتصار على نفى الشك والهيام واندفعت وساوس الاوهام وفى هذا الترتيب تبكيت تام على من لم يهتد بتلك الآية مع نصبها على وجه نقى من الشبه

﴿أعيا الورى فهم معناه فليس يرى * للقرب والبعد فيه غير منفحم﴾

الورى الخلق والفهم العلم والمعرفة ومعناه ما يعنى منه وهو حاله وحقيقته ويرى مضارع المجهول من الرؤية العلمية لا البصرية كما لا يخفى واللام تتعلق بمحذوف حال من النائب وأصله الصفة وفيه يتعلق بيرى ومنفحم اسم فاعل من انفحم سكت ولم يجب يقال أفحمته اذا أسكته فى خصومة أو غيرها وفى الاساس هذا كلام مسدى ملحم كل فصيح به مفحم والمعنى أعيا جميع الخلق ادراك حقيقته المحمدية لعسر التوصل اليها والاحاطة بها على ما هى عليه فلا يعلم فى شأنه عبر ساكت عاجز عن التعبير بما يفيد أمره لعدم الوصول اليه فان اللسان ترجمان

القلب ان الكلام لفي الفؤاد وانما * جعل اللسان على الفؤاد دليلا

حال كون ذلك المفحم منسوبا للقرب منه والبعد واختار مادة الافحام الدالة على الغلبة لنا سبة الاعياء ونسبته الى الفهم مجازية والحقيقة أعياهم الله بفهمه ولك أن تتجوز بالافحام فيراد به عجز العقل لا عجز الخطاب والاول أفيد فان قلت ما المراد من القرب والبعد قلنا يحتمل ارادة قرب الزمان وبعده وجدواه قليلة فانه لا مزية للقرب الحسى على البعد مع ضبط الاحوال وتناقل أخبارها فى ادراك الحقائق اذ ليست مما يختص بالمشاهدة وان كان للعيان لطيف معنى من جهة وجدانية التلذذ بالخطاب والاصوب ارادة القرب والبعد المعنويين فالقرب حالة أرباب القلوب الصافية والبواطن النقية الذين خصهم الله برفع الحجب فشاهدوا بابصائرهم حضرة ملكوته والبعد حالة أرباب الظاهر الواقفين عندما كلفوا به من ظواهر الحال فان قلت هلا اقتصر على القرب ويفهم أمر البعد بالاولى قلت فى ذلك اشعار بالاختلاف النسبى وأن للقرب مزية بالنسبة الى الادراك وذلك مخل بالمراد من الاستواء فى الجهل الدال على شدة صعوبة الامر وان شئت فارجع يوجدانك الى قولك لفلان مقام يعجز عن ثنائه العيى والفصيح ويعجز عنه الفصيح فأولى العيى تجد بينهما فرقا بينا واذا تبين لك معنى البيت علمت أنه تحقيق لمضمون ما قبله ثم ضرب مثلا محسوسا لاستواء القريب والبعيد فى الجهل بحقيقته ليتضح ذلك الامر عند ذوى النهى لالف النفس بالمحسوسات فقال

*(كالشمس تظهر للعينين من بعد * صغيرة وتكل الطرف من أمم)*

مفرداته بينة غير أن فيه تحريك عين بعد لاقامة الوزن والامم القرب والمعنى أن الشمس تظهر للرائى البعيد منها صغيرة الجرم واذا نظر اليها القريب منها أعيت نظره بأشعتها المانعة من تثبته فلا يدركها فالقريب والبعيد استويا فى الجهل بحقيقتها الا أن جهل القريب بسيط وجهل البعيد مركب لانه أدركها على خلاف حقيقتها حيث رآها صغيرة كذلك حال القريب والبعيد منه عليه الصلاة والسلام فالبعيد يدركه بحسب قصور علمه على خلاف مقامه لانه لا يعلم منه الا ما ظهر والبعيد تحجبه أنوار ما لسنية الباهرة عن الوصول الى حقيقته فتساويا فى الجهل وان افترقا بالبساطة والتركيب وما أحسن قول شيخ المعرة فى هذا المعنى

رأوك بالعين فاستغوتهم ظنن * ولم يروك بفكر صادق الخبر

والنجم تستصغر الابصار رؤيته * والذنب للعين لا للنجم فى الصغر

هذا وضرب المحسوس مثلا للمعقول ليتوصل به العقول طريقة بلاغية جاء عليها استعمال الكتاب المجيد فى غير ما آية كقوله تعالى فى حالة المنافقين مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون وقوله تعالى مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى الآية روى أن أبا تمام لما مدح العباس بسينيته التى يقول فيها

اقدام عمرو فى سماحة حاتم * فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

قال له بعض الحاضرين ما صنعت شبهت أمير المؤمنين بصعاليك العرب فقال ارتجالا

لا

لا تنكروا ضربى له من دونه * مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس

*(وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته * قوم نيام تسلوا عنه بالحلم)*

كيف استفهام تعجبى معناه التعجب من الادراك مع تلك الحالة المنافية فان قلت انه يقتضى الادراك المتعجب منه قلت مناط التعجب الطمع فى الادراك بالاخذ فى أسبابه كما يقتضيه معنى الاعياء فانه لا يكون الا بعد الشروع والترقب ويجوز أن يكون انكاريا أى لا يدركون مع الحالة المذكورة أو استبعاديا والاول أرشق والقوم اسم جمع للرجال دون النساء كما قضى به قوله وما أدرى وسوف اخال أدرى * أقوم آل حصن أم نساء

وقد يردن منه وعليه يحمل هنا لان التعميم أنسب بالمراد والسلو عن الشئ تركه ونسيانه فى القاموس سلاه وعنه كدعاه ورضيه سلوا وسلوا وسلوانا وسليا نسيه وأسلاه عنه فتسلى اه فقول شيخ الاسلام هو ترك الشئ عن طيب نفس اه مأخوذ من موارد استعماله كما يعلم بتتبعها ويؤيده مأخذ السلوانة منه قال فى الصحاح هى خرزة كانوا يقولون اذا صب عليها ماء المطر فشربه العاشق سلا قال الشاعر

شربت على سلوانة ماء مزنة * فلا وجديد العيش يامى ما أسلو

واسم ذلك الماء السلوان قال الشاعر

لو أشرب السلوان ما سليت * ما بى غنى عنك وان غنيت

اه فان ذلك الفعل لتمكين الحب وذهابه ولازمه ترك المحبوب وطيب نفسه بذلك لا نسيانه وعلى هذا ما نقل فى الصحاح عن الاصمعى يقول الرجل لصاحبه سقيتنى سلوة وسلوانا أى طيبت نفسى عنك اه فالمادة تقتضى طيب النفس والصيغة تحكم بالتكلف فكان حاصلهما وحملوا أنفسهم على أن تطيب لتركه والحلم يتعلق به ويؤآلية وهو بضمتين ما يراه النائم والمعنى أنه لا يتيسر ادراك حقيقته المحمدية مع تلك الصفتين أعنى صفة النوم وتطييب النفس عما يرى فى المنام (واعلم) أن للبيت محملين أحدهما ظاهرى وهو المأخوذ من حديث الناس نيام فاذا ماتوا استيقظوا القاضى بأن انفعال الحياة الدنيا كالتخيل المنامى وحينئذ يكون التقييد بالدنيا للاحتراز عن الآخرة وهذا الذى اقتصر عليه شيخ الاسلام فقال المعنى أن فى الدنيا من لا يدرك الحقائق المحضة للآخرة لان نفس الدنيا حجاب بينه وبينها كما يحجب النائم النوم عن ادراك أحوال اليقظة وكذا هو حال جميع الورى لا يشاهدون حال تفضيل محمد صلى الله عليه وسلم معاينة وتفصيلا كما ادركوه بالجملة وذلك يوم القيامة حيث يبعثه الله المقام المحمود الذى يغبطه فيه الاولون والآخرون وحيث يؤتى الوسيلة وهى الدرجة التى لا ينالها عبد من عباد الله غيره فالمراد بكونهم نياما أى احياء فى دار الدنيا وقوله تسلوا عنه بالحلم شبه عجزهم عن ادراك حقيقته بسبب الحلم وهو كونهم فى الدنيا بترك الشئ عن طيب نفس لان ما لا يكون من المقدور لا يتأسف الانسان على فقده بل تطيب نفسه بذلك هذا هو التحقيق فى هذا المقام فعليك به يغنك عما وقع فيه من تخليط الشراح اه وليس عندى بجيد أما أولا فلان المنفى فى كلام الناظم ادراك الحقيقة وذلك لا يتوقف على المشاهدة

كما لا يخفى وأما ثانيا فلأن ما أثبته للآخرة مشاهدة كرامات حصل العلم بها فى الدنيا وليس ذلك ادراكا لحقيقته والا فكم من كرامات وقعت مشاهدتها فى الدنيا والاظهر أن التقييد بفى الدنيا نظرا لكونها دار النظر وادراك الحقائق واعمال الافكار فى تحصيلها وأن المقصود أن حقيقته المحمدية لا تدرك البتة وانما يحصل منها المثال فان الناس قاطبة بالنسبة اليها كحال النائم ليس الا الحلم فحاصلهم من مثال حقيقته هو بالنسبة اليها كالمرئى فى المنام بالنسبة لحقيقته لقصور العقول وحجبها عن الوصول اليها ودليله ما مر تحقيقه فان قيل يرد ما قرر منه شيخ الاسلام حتى جعل انفائت المشاهدة وهو أنه لا يتأتى ذلك الحكم فى الخواص من أرباب الكشف فضلا عن الانبياء قلنا مدفوع بأن كل الخلق سواء فى الحجب عن ادراك الحقيقة المحمدية غير أن حجبهم متفاوتة وبيانه أنه تقرر عند القوم أن الحجب ثلاثة حجب ظلمانية صرفة وهى حجب المعاصى وحجب نورانية مذمومة وهى حجب الطاعات والمعاملات الريائية فانها حجب عن الترقى فى المقامات العلية وحجب نورانية صرفة وهى ما نشأ من المقامات المرضية فان كل حاصل بالترقيات حجاب عما فوقه من المقامات وقد مر لك أن الحب أرفع المقامات والدرجات وأن نبينا صلى الله عليه وسلم اختص به من بين سائر الخلق فلا غرو وأنه لا يصل الى ادراك حقيقته كل من عداه اذ أعلاه محجوب بمرتبته عن ادراك مرتبة الحب المختصة به وتذكر ما مر فى قوله * وواقفون لديه عند حدهم * وفى قوله فليس يرى * للقرب والبعد فيه غير منفحم * فان قلت ماذا ترى فى قوله تسلوا عنه الخ فان من لا هداية له لم يسبق له شوق الى الحقيقة المحمدية وادراكها حتى يكون تركه فى حقه سلوا قلنا فيه اشارة لطيفة الى أن الحقيقة المحمدية لما كانت أصل النعم الى الخلق قاطبة وجب أن يعلق حبها بكل نفس لجبل النفوس على حب من أحسن اليها الا أن من سبقت له عناية أزلية لم تنطمس آثار ما جبلت عليه نفسه فكان مسوقا الى تلك الحقيقة ومن قضى عليه بالشقاء حيل ما بين نفسه وبين مقتضى جبلتها وصرف عن الالتفات الى السبب فى كل نعمة اليه فغارت عين حبه لما عميت عين قلبه ففى نسبة السلو الى الجميع اشعار بأن حق كل نفس أن تصرف همتها الى تلك الحقيقة وأن لا تطيب الا بادراكها لكنه لما تعذر لما مر من تطيب وتراض على مثالها وتخيلها فربما اقام المثال عند المشوق قيام صاحبه وارتاضت نفسه اليه اذا تعذر عليه الاصل كما أفصح به من يقول

تسليت صدا عنكم بعد بعدكم * بذكراكم حتى كأنكم عندى

فلله ما أدق اشارة هذا الناظم رحمه الله

*﴿فمبلغ العلم فيه أنه بشر * وأنه خير خلق الله كلهم﴾*

مفرداته بينة ومضمونه نتيجة ما تقدم من قوله دع ما ادعته النصارى فى نبيهم الخ وحاصله أن غاية العلم والذى ينتهى اليه الادراك من حقيقته أنه بشر لا اله كما ادعته النصارى فى عيسى عليه السلام وأنه أفضل جميع الخلق وأما الاحاطة بما به التفضيل فلا سبيل اليه لوقوف العقول دون معشاره ولا يخفى عليك أن الكلام فى معنى حقيقته المحمدية بعد كونه نبيا ورسولا وأن اثبات البشرية لنفى ما ذكرناه عنه فما فى شيخ الاسلام من استشكال نفى العلم

بالرسالة

قوله فلما تعذر الخ كذا فى الاصول الموجودة بأيدينا ولعله سقط من الناسخ جواب لما وبه يرتبط العبارة فحرر اه

بالرسالة كما هو صريح حصر العلم فى الامرين معا وجوابه بما تكلفه خروج عن مذاق المصنف نعم ينبغى أن يتنبه الى أن أل فى العلم ظاهرها أنها عوض عن مضاف اليه أى علمهم بعود الضمير الى القوم وقد مر عمومه والكافر لا يعلم الصفة الثانية وان صح بمثل ما قررناه التسلى فى حقهم على معنى أن من الحق أن يعلموا ذلك لوضوح أدلته والارشق بالمعنى الحمل على الجنسية فليتأمل

*﴿وكل آى أتى الرسل الكرام بها * فانما اتصلت من نوره بهم﴾*

مفرداته بينة ومعناه أن نبوته لما كانت أصلا لكل نبوة ورسالة وأن جميع الرسل قبل ظهوره ببشريته نواب عنه فى تبليغ الشرائع الى من أرسلوا اليهم كما تقدم تحقيقه ويشهد له أخذ الميثاق فى قوله عز اسمه واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه وجب أن تكون جميع آياتهم المعلنة بتأييد رسالاتهم فى الحقيقة آيات له صلى الله عليه وسلم وأعلاما لرسالته فى المعنى التى قاموا بتبليغها على وجه النيابة وهذا المعنى ألطف وأعلق بالحقيقة مما ذهب اليه بعضهم ولهج به الشعراء من نسبتها اليهم نظرا للظاهر واثبات ان كل آية ثبتت له عليه السلام مثلها أو قريب منها وعلى ذلك جاء قول الشاعر وكل معجزة للرسل قد سبقت * وافى بأعجب منها عند اظهار

فما العصا حية تسعى بأعجب من * شكوى البعير ولا من مشى أشجار
ولا انفجار معين الماء من حجر * أشد من سلسل من كفه جارى

وعلى طريقة الناظم جاء قول العارف سيدى على وفا قدس الله روحه

سكن الفؤاد فعش هنيأ يا جسد * هذا النعيم هو المقيم الى الأبد
روح الوجود حياة من هو واجد * لولاه ما تم الوجود لمن وجد
عيسى وآدم والصدور جميعهم * هم أعين هو نورها لما ورد

ومن حيث ان الآيات بالحقيقة له عليه السلام وليس لهم عليهم السلام الا مجرد الظهور على أيديهم بخلاف ما لهم من المعارف والعلوم ظهر سر قوله سابقا وكلهم من رسول الله ملتمس البيت وقوله هنا فانما اتصلت من نوره بهم وتمكن التشبيه كل التمكن فى قوله رحمه الله ورضى عنه

*﴿فانه شمس فضل هم كواكبها * يظهرن أنوارها للناس فى الظلم﴾*

وشرحه أن علماء الهيئة قالوا ان أجرام الكواكب ما عدا الشمس مظلمة صقيلة قابلة لانطباع النور فيها وأن ما بها من النور منطبع من أشعة نور الشمس لكنه لا يظهر معها نهارا لغلبة ضوئها فاذا غابت بالليل ظهر ذلك كما هو مشهور فى القمر وانما لم يكن لها خسوف كما كان له من حيث ان ظل الارض المخروط لا يصل الى الفلك المكوكب وهو فلك الثوابت أعنى الفلك الثامن وايضاح هذا أن الشمس اذا غابت تحت الارض خرج من الارض ظل مخروط مبدؤه من الارض ونهايته دون الثامن وأشعة الشمس بجوانبه منبعثة فاذا فاتت نهاية المخروط انضمت أشعتها وعمت فتضىء جميع الكواكب منها وهذا بناء على قواعد الهيئة وما عليه غالب المتأخرين الفقهاء من كرية الارض هذا حقيقة المشبه به وأما المشبه فهى حالة

الرسل فى اظهار آياته التى هى أشعة نوره حال غيبة وجوده البشرى الذى هو ظلمة بالنسبة الى ظهوره ووجود حقيقة نوره وان كان هو نورا فى نفسه لكنه لعدم حقيقيته لم يكن له ضياء تام وفى هذا التشبيه لطيفة وهى الاشارة الى اختصاص رسالة غيره اذ النجم لا يعم ضوءه كما يعم ضوء الشمس قال شيخ الاسلام وهذا التشبيه مأخوذ من قول النابغة

ألم تر أن الله أعطاك سورة * ترى كل ملك دونها يتذبذب

فانك شمس والملوك كواكب * اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقيل ان غير النابغة سبقه الى هذا المعنى فقال

تكاد تميد الارض بالناس أن رأوا * لعمرو بن هند غضبة وهو غائب

هو الشمس وافت يوم سعد فأفضلت * على كل ضوء والملوك كواكب

اه ولا يخفى اختلاف مسلك الناظم مع مسلك الشاعرين نعم يوافقهما فى بيت بعد هذا مشهور على الالسن غير موجود فى الشرح وهو

حتى اذا ظهرت فى الافق عم هدا * ها العالمين وأحيت دارس الرمم

﴿أكرم بخلق نبى زانه خلق * بالحسن مشتمل بالبشر متسم﴾

الصيغة احدى صيغتى التعجب المعهودتين فى النحو فمعناها ما أكرم خلقه والكرم طيب الاصل والعنصر وبه التمدح فى كلام العرب دون مجرد البذل والاعطاء الا اذا نشأ عن ملكة تقتضى ذلك وهى راجعة الى الصفة الاولى و يطلق الكرم على العز يقال هو كريم عنده بمعنى عزيز وارادته هنا غير ممتنعة كما فى قول كعب

أكرم بها خلة لو أنها صدقت * موعودها أولو ان النصح مقبول

والضمير فى زانه يعود الى الخلق فان حسن الخلق صفة تظهر جمال الخلق وتوجب قبوله وبالضد الضد قال عمرو بن معد يكرب

ليس الجمال بمئزر * فاعلم وان رديت بردا * ان الجمال معادن * ومناقب ورثن مجدا *

ومنه أخذ المتنبى قوله وما الحسن فى وجه الفتى شرفا له * اذا لم يكن فى فعله والخلائق

وتقدم معنى الخلق والخلق والحسن نقيض القبح يدركان بالوجدان والاشتمال الالتفاف والبشر بكسر الباء طلاقة الوجه ومتسم من اتسم الرجل اذا جعل لنفسه علامة يعرف بها والوصفان بالجر نعت لخلق نبى الاول يرجع الى الاجزاء عامة والثانى الى الوجه خاصة ومن ثم اختار الاشتمال فى الاول والاتسام فى الثانى ولك أن تجعل الاول راجعا الى أصل الخلق والثانى الى تزينه بالخلق فان طلاقة الوجه عنوان الخلق الجميل ومن ثم قال الأشتر النخعى

بقيت وحدى وانحرفت عن العلى * ولقيت أضيافى بوجه عبوس

ان لم أشن على ابن حرب غارة * لم تخل يوما من نهاب نفوس

ومضمون البيت مدحه عليه الصلاة والسلام بكمال الخلق والخلق بعد ما بين أن مدحه على طريق الاحاطة بكمالاته لا يتيسر ايماء الى أن الميسور لا يسقط بالمعسور وأحاديث حسن خلقه وخلقه صلى الله عليه وسلم كثيرة جدا ومن اجمالها الملاقى لكلام الناظم حديث البراء رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا وفى

حديث أبى هريرة ما رأيت أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه قال الشهاب القسطلانى فى المواهب ولله در القائل

لم لا يضىء بك الوجود وليله * فيه صباح من جمالك مسفر

فبشمس حسنك كل يوم مشرق * وببدر وجهك كل ليل مقمر

وأما حسن الخلق فقد اجتمع فيه منه ما لا يحصيه حد وناهيك بشهادة الله له فى قوله وانك لعلى خلق عظيم قال الحليمى انما وصف خلقه صلى الله عليه وسلم بالعظم مع أن الغالب وصف الخلق بالكرم لان كرم الخلق يراد به السماحة ولم يكن خلقه صلى الله عليه وسلم مقصورا على ذلك بل كان رحيما بالمؤمنين رفيقا بهم شديدا على الكفار غليظا عليهم مهيبا فى صدور الاعداء منصورا بالرعب على مسيرة شهر فكان الوصف بالعظمة أولى ليشمل الانعام والانتقام اه من المواهب وبه يطلع على لطائف النظم اذ وصف الخلق بالكرم دون الخلق ونكره تنكير تعظيم ليلاقى لفظ الآية الشريفة وجعل منه علو الهمة والجلالة والهيبة فى الابيات بعده وفى المواهب اللدنية قالت عائشة رضى الله عنها كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن قال صاحب عوارف المعارف لا يبعد أن قول عائشة فيه رمز غامض الى الاخلاق الربانية فاحتشمت من الحضرة الالهية ان تقول كان متخلقا بأخلاق الله فعبرت عن هذا المعنى بقولها كان خلقه القرآن استحياء من سبحات الجلال وسترا للحال بلطف المقال وهذا من وفور عقلها وكمال أدبها انتهى قلت ولا غرابة فيه فقد شق له من اسمه وسماه من أسمائه بالرؤف الرحيم فتدبر

﴿كالزهر فى ترف والبدر فى شرف * والبحر فى كرم والدهر فى همم﴾

تشبيه لخلقه وخلقه صلى الله عليه وسلم والزهر اسم جنس جمعى واحده زهرة وهو نور النبات والترف التنعم وقد تقدم والبدر القمر عند تمامه والشرف علو المنزلة والدهر الزمان كما قال الشاعر ان دهرا يلف شملى بليلى * لزمان يهم بالاحسان

والهمم جمع همة يقال هو بعيد الهمة بكسر الهاء وفتحها وهى الارادة من هممت بالشئ أردته والمعنى أن خلقه الشريف كالزهر فى تنعمه من نضارة جسم وطيب رائحة وكالقمر ليلة تمامه فى شرف ذاته وكمال حسنه وان خلقه العظيم كالبحر فى الكرم والدهر فى علو الهمة وشاهد الاول ما فى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما كان النبى صلى الله عليه وسلم رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن يعرف غضبه ورضاه فى وجهه وقال رضى الله عنه ما مسست حريرة ولا ديباجة ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما طيب ريحه صلى الله عليه وسلم فدلائله كثيرة * فى المواهب عن امرأة عتبة بن فرقد السلمى قالت كنا عند عتبة أربع نسوة فما منا امرأة الا وهى مجتهدة فى الطيب لتكون أطيب من صاحبتها وما يمس عتبة الطيب الا أن يمس دهنا يمسح به لحيته ولهو أطيب ريحا منا وكان اذا خرج للناس قالوا ما شممنا ريحا أطيب من ريح عتبة فقلت له يوما انا لنجهد فى الطيب ولأنت أطيب ريحا منا فمم ذلك قال أخذنى الشرى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكوت ذلك اليه فأمرنى أن أتجرد فتجردت وقعدت بين يديه فنفث فى يده ثم مسح ظهرى و بطنى بيده فعلق بى هذا الطيب من

يومئذ وعن أنس رضى الله عنه قال دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عندنا فعرق وجاءت امى بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أم سليم ماهذا الذى تصنعين قالت هذا عرقك نجعله لطيبنا وهو أطيب الطيب انتهى وقد تقدم ما يبين بعض كرمه وأما ما يتعلق بكونه كالدهر فيتوقف على حقيقة ذلك التشبيه قال شيخ الاسلام معنى التشبيه هو كالدهر فيما يرجع من الاخلاق الى الهمم أى ارادته التى يريدها من اعطاء ومنع وضر ونفع وهذا باعتبار ماجرت به عادة الادباء من تشبيه الهمم بالدهر حتى قال قائلهم

له همم لامنتهى لكبارها * وهمته الصغرى أجل من الدهر

ووجه هذا التشبيه ان الحادثات الجليلة والدقيقة انما تقع فى الدهر فنسبوها اليه وكأن الدهر باعتبار ما يقع فيه من الحوادث لا يرضى الا بالغاية من ذلك الحادث فاذا رفع بلغ الغاية واذا وضع وصل النهاية ومن ثم قال معاوية رضى الله عنه نحن الزمان من رفعناه ارتفع ومن وضعناه اتضع اه ومعنى كلام معاوية أن من المقصد فى ذلك التشبيه نفوذ الامر ومضيه و يعجبنى قول اعرابى مدح مالك بن طوق فاتاه فقال

ومازلت أخشى الدهر حتى تعلقت * يداى بمن لا يتقى الدهر صاحبه
فلما رآنى الدهر تحت جناحه * رأى مرتقى صعبا منيعا ذوائبه
وآنى بحيث النجم فى رأس باذخ * تظل الورى أكنافه وجوانبه
فتى كسماء الغيث والناس حوله * اذا أجدبوا جادت عليهم سحائبه

وقد مر أن خلقه صلى الله عليه وسلم وصف بالعظمة لما له من المهابة والجلال

ولا خير فى حلم اذا لم تكن له * بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

وان الناظم نكر لذلك فصح له هذا التشبيه وقد جمع مافى البيت من أبيات للبحترى يمدح الفتح ابن خاقان

وكالبدر وافته لتم سعوده * فتم سناء واستقلت منازله
فسلمت واعتاقت جنانى هيبة * تنازعنى القول الذى أنا قائله
فلما تأملت الطلاقة وانثنى * الى ببشر آنستنى مخايله
دنوت فقبلت الندى من يد امرئ * كريم محياه بساط أنامله

وفى بعض ماقال الناظم قال ابن جابر

يروى حديث الندى والبشر عن يده * ووجهه بين منهل ومنسجم
من وجه أحمد لى بدر ومن يده * بحر ومن فمه در لمنتظم

وله على ما أثبته فى نفح الطيب

يا أهل طيبة فى مغنا كم قمر * يهدى الى كل محمود من الطرق
كالغيث فى كرم والليث فى ضرم * والبدر فى أفق والزهر فى خلق

هذا وأنت تعلم أن الغرض من ذلك التشبيه توضيح المعقول بالمحسوس لتصل اليه الاذهان والا فالمشبه أعلى بمراتب من المشبه به ومن ثم ذكر وجه التشبيه زيادة فى الايضاح وان فاته بذلك المبالغة فيه فانها فى مقام البيان ليست بشئ بل ربما نافت المقصود فتدبره

﴿كأنه وهو فرد فى جلالته * فى عسكر حين تلقاه وفى حشم﴾

الجلالة العظمة والعسكر الجيش الكثير مأخوذ من العسكرة وهى الشدة وأقله الجريدة ثم السرية من خمسين الى أربعمائة ثم الكتيبة الى ألف ثم الجيش الى أربعة آلاف ثم الخميس الى اثنى عشر ألفا والحشم خدم الرجل ومن يغضب له والظرف يتعلق بما تعلق به خبر كان أو بالتشبيه وقوله فى جلالته يروى بمن وهى تعليلية تتعلق بالتشبيه وجملة وهو فرد الخ حالية ويروى بفى فان كانت سببية كان المعنى كالاول وان جعلت ظرفية تعلقت بفرد بمعنى منفرد فى ذلك الوصف وكانت الجملة اعتراضية قصد بها دفع الشركة فى هيبته صلى الله عليه وسلم ويصح أن يجعل فى جلالته حالا من اسم كان والمعنى كليهو والحال أنه منفرد أو حال كونه فى جلالته فى عسكر الخ أو كانه وهو مفرد بالجلالة لا يشارك فيها * ومن شواهد هيبته صلى الله عليه وسلم الحديث الشهير كان صلى الله عليه وسلم اذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤسهم الطير وقال البراء رضى الله عنه كنت أؤخر سؤاله صلى الله عليه وسلم عن الامر سنين من هيبته ولله در على كرم الله وجهه اذ قال فى وصفه صلى الله عليه وسلم من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه وأعجب من هذا وقوع هيبته بمجرد ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم فى قلوب العارفين وذلك من شواهد تفرده بجلالته * فى الشفاء للقاضى عياض رحمه الله قال مصعب ابن عبد الله كان مالك اذا ذكر النبى صلى الله عليه وسلم يتغير لونه وينحنى حتى يصعب ذلك على جلسائه فقيل له يوما فى ذلك فقال لو رأيتم مارأيت لما انكرتم على ماترون لقد كنت أرى محمد بن المنكدر وكان سيد القراء لا يكاد يسئل عن حديث الا يبكى حتى نرحمه ولقد كنت أرى جعفر بن محمد الصادق وكان كثير الدعابة والتبسم اذا ذكر عنده النبى صلى الله عليه وسلم اصفر وما رأيته يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الا على طهارة ولقد كان عبد الرحمن ابن القاسم يذكر النبى صلى الله عليه وسلم فينظر الى لونه كانه نزف منه الدم وقد جف لسانه فى فمه هيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى هنا انتهى كلامه وفى معنى كلام الناظم قول بعضهم وأجاد

يغيثك فى محل يعينك فى ردى * يروعك فى درع يروقك فى برد
جمال واجلال وسبق وصولة * كشمس الضحى كالمزن كالبرق كالرعد

﴿كأنما اللؤلؤ المكنون فى صدف * من معدنى منطق منه ومبتسم﴾

اللؤلؤ جمع لؤلؤة وهى الدرة وفى الاساس لأآل بين اللئالة وهو بائع اللؤلؤ قال

درة من عقائل البحر بكر * لم تخنها مثاقب اللآل

والمكنون من اكننت الشئ اذا سترته والصدف غشاء الدرة واحده صدفة والمعدن بكسر الدال مركز كل شئ قال فى الاساس فلان فى معدن الخير والكرم وهو من مراكز الخير ومعادنه وعليه عدنيات أى ثياب كريمة وأصلها النسبة الى عدن وكثر حتى قيل للرجل الكريم الاخلاق عدنى كما قيل للشئ العجيب من كل فن عبقرى قال كثير بن جابر المحاربى

سرت ماسرت من ليلها ثم عرست * الى عدنى ذى غناء وذى فضل
الى ابن حصان لم تخضرم جدودها * كريم النثا والخيم والفعل والاصل

والمنطق الكلام والمبتسم موضع الابتسام وهو مادون الضحك ومعنى البيت تشبيه الجواهر النفيسة على أكمل أحوالها وهى كونها فى صدفها بمنطقه عليه السلام وثناياه التى تظهر

عند ابتسامه على عكس التشبيه مبالغة و وجه الاول المنافسة المعنو يه ووجه الثانى صفاء الماء والبريق والبياض ومرجع الاول الى ماأوتيه صلى الله عليه وسلم من الفصاحة والبلاغة وكفاك حديث الفصاحة أعنى قوله عليه السلام أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أنى من قريش واسترضعت فى بنى سعد فانظر رونق هذا الكلام وعذوبة ألفاظه كأنها العذب السلسبيل مع احتوائه على ألطف كناية فى قوله من نطق بالضاد ودقة ذلك الاستدراك الموجب لتأكيد ماتقدم بايهام المناقضة * ومن شواهد الثانى ماروى عن بعض ناعتيه كان صلى الله عليه وسلم اذا ضحك افتر عن مثل سنا البرق وحب الغمام وقال آخر اذا ضحك تلألأت الجدر ويجبنى فى معنى جمع اللؤلؤ والصدف قول ذى المذلتين

سألتها عسلة من ماء مبسمها * تطفى بها حر مصدوع الهوى دنف
تبسمت ثم قالت تغر ذى شنب * فى تغر دى قلح نوع من الكلف
لقد درت أنه والله لاعجب * أن يوجد الدر مقرونا مع الصدف

وبيت الناظم مأخوذ من قول البحترى

ولما التقينا واللوى موعدلنا * تعجب رائى الدر نظما ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها * ومن لؤلؤ عند الكلام تساقطه

*(لاطيب يعدل تربا ضم أعظمه * طوبى لمنتشق منه وملتثم)*

من تشر يفه عليه الصلاة والسلام تعظيم جميع ماينسب اليه قال القاضى أبو الفضل فى كتاب الشفاء من اعظامه واكباره صلى الله عليه وسلم اعظام جميع أسبابه واكرام مشاهده وأمكنته من مكة والمدينة ومعاهده ومالمسه عليه السلام أو عرف به وروى عن صفية بنت نجدة قالت كانت لابى محذورة قصة فى مقدم رأسه اذا قعد وأرسلها أصابت الارض فقيل له ألا تحلقها فقال لم أكن بالذى أحلقها وقد مسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده اه وساق آثارا أخر من هذا الباب فلم يخرج المصنف بذلك عند مدحه عليه السلام بل انتقل من مدحه لذاته لمدح مايمدح لانتسابه اليه من مكان وزمان وذلك عند التأمل أشد من المدح الاول والطيب ماتطيب به مماله رائحة طيبة ويعدل بمعنى يماثل فى الاساس تقول العرب اللهم لاعدل لك أى لامثل ويقال فى الكفارة عليه عدل ذلك ولا قبل الله منه عدلا أى فداء وما يعدلك عندى شئ أى يشبهك اه والترب التراب وضم جمع وطوبى كلمة دعائية وتهنئة معناها اصابة الخير أو دوامه ومنتشق اسم فاعل افتعل من نشقت منه ريحا طيبة أى شممتها فى الاساس نشق الظبى فى الحبالة نشب فيها ومن المجاز نشق فلان فى حبالة فلان اذا وقع منه فيما لا يتخلص منه ونشق الريح نشقا واستنشقها وتنشقها قال المتلمس

فلو أن محموما بخيبر مدنفا * تنشق ريا ها الاقلع صالبه

وملتثم اسم فاعل من التثم اذا شد اللثام وهو النقاب كذا نقل شيخ الاسلام عن ابن القصار قال ولا يصح أن يكون من التقبيل لانه لا يقال فى معناه التثم بل لثم بالكسر والفتح قال شيخ الاسلام وهذا لا يتم الا اذا نصوا على أنه لا يشتق من لثم بمعنى قبل افتعل اه والاظهر أن لا منع من الصوغ وانما المنع لعدم صحة المعنى هنا الا بتجوز ليس له فى المقام موقع وذلك ان اللثم

وضع الفم على الفم خاصة الذى هو موضع اللثام كما فى الاساس والمراد هنا التكنية عن تعفير الوجه بالتراب حتى يحصل له مثل اللثام ومعنى البيت ان التراب الذى ضم جسده الشريف لايماثله شئ من أنواع الطيب فهنيا لمن استنشق رياه وعفر فيه محياه وكيف لا وقد جمع منبع أطيب الطيب ثم يحتمل أن يريد حقيقة الطيب فيثبت له النشر والرائحة وذلك يدرك بقوة توجه النفس وصدق المحبة وصرف الهمة بالكلية وهو كثير فى كلام الشعراء ومنه قول الطغرائى

فسر بنا فى ذمام الليل معتسفا * فنفحة الطيب تهدينا الى الحلل

وعلى ذلك جاء قول ابن العريف رحمه الله فى المدينة المنورة

اذا ما حدا الحادى باجمال يثرب * فلبت المطايا فوق خدى تنعق
الى أن يقول لها عبق الريحان الاوقربها * أجل من الريحان طيبا وأعبق
ولبعضهم حيث الهدى دونه فى الطيب دارين * ثم النبى رسول الله مدفون
عز التراب لمكون الهاشمى به * كأنه لؤلؤ فى الترب مكنون

وعلى ذلك جاء قول فاطمة الزهراء رضى الله عنها

ماذا على من شم تربة أحمد * أن لا يشم مدى الزمان غواليا

ويحتمل أن يراد أنه أطيب الطيب من حيث التنعم وارتياح النفس به وان لم تكن له رائحة ظاهرة لكل الناس فان قلت لم عدل عن ضم جسمه الى ضم أعظمه مع أن أجسام الانبياء لا تبلى قلنا للنص على المراد من تراب المدينة المنورة اذ لو قال جسمه لشمل غيرها مما ماس جسمه الشريف قبل الانتقال وبعد هذا يجوز أن يراد خصوص القبر كما هو ظاهر العبارة وقد أخرجه العلماء من الخلاف بين تشريف مكة والمدينة بل قالوا انه أشرف البقاع فى الارض والسماء ويجوز أن يراد جميع تراب المدينة المنورة فان لها من التشريف والتكريم بسبب احتوائها على جسده الشريف ماليس لغيرها قال القاضى أبو الفضل رحمه الله كان مالك لا يركب بالمدينة دابة وكان يقول أستحى من الله أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة وقد أفتى رحمه الله فيمن قال تربة المدينة ردية بضربه ثلاثين درة بكسر الدال آلة من جلد غليظ يضرب بها وأمر بحبسه وكان له قدر وقال ما أحوجه الى ضرب عنقه تربة دفن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم يزعم أنها غير طيبة وحدث ان أبا الفضل الجوهرى لما ورد المدينة زائرا وقرب من بيوتها ترجل ومشى باكيا منشدا

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا * فؤادا لعرفان الرسوم ولا لبا
نزلنا عن الاكوار نمشى كرامة * لمن بان عنه ان نلم به ركبا

ثم قال وجدير لمواطن عمرت بالوحى والتنزيل وتردد بها جبريل وميكائيل وعرجت منها الملائكة والروح وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح واشتملت تربتها على جسد خير البشر وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله ماانتشر مدارس آيات ومساجد صلوات ومشاهد الفضائل والخيرات ومعاهد البراهين والمعجزات ومناسك الدين ومشاعر المسلمين ومواقف سيد المرسلين ومتبوأ خاتم النبيين حيث انفجرت النبوة وأين فاض عبابها ومواطن مهبط الرسالة وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها أن تعظم عرصاتها وتتنسم

نفحاتها وتقبيل ربوعها وجدراتها
يادارخيرالمرسلين ومن به * هدى الأنام وخص بالآيات * عندى لاجلك لوعة وصبابة * وتشوّق متوقد الجمرات * وعلىّ عهد ان ملأت محاجرى * من تلكم الجدرات والعرصات * لأعفرنّ مصون شيبى بينها * من كثرة التقبيل والرشفات * لولا العوادى والأعادى زرتها * أبدا ولو سحبا على الوجنات * لكن سأهدى من جميل تحيتى * لقطين تلك الدار والحجرات * أذكى من المسك المفتق نفحة * تغشاه بالآصال والبكرات * وتخصه بزواكى الصلوات * ونوامى التسليم والبركات * اهـ وانما ذكرناه بطوله لكونه مأخذ كلام الناظم مع ما اشتمل عليه من رقة اللفظ وجزالة المعنى واعراب حنينه عن شوق كامن بين أضلعه رحمه الله * ومن عجيب الاتفاق ماذكره الشهاب فى شرح هذا المحل من الشفاء أن الشيخ أحمد بن الرفاعى كان كل عام يرسل مع الحجاج السلام على النبى صلى الله عليه وسلم فلما زاره وقف تجاه مرقده وأنشد

في حالة البعد روحى كنت أرسلها * تقبل الارض عنى فهى نائبتى
وهذه نوبة الاشباح قد ظهرت * فامدد يمينك كى تحظى بها شفتى

فقيل ان اليد الشريفة مدت له فقبلها هنيأ له ثم هنيأ له قلت وقريب منه ما حكاه ابن السباط فى شرح الشقراطسية من كرامات ناظمها أنه لما أنشد القصيدة على منبر النبى صلى الله عليه وسلم قام رجل فقال حق على صاحب هذا القبر أن يأخذ بيد هذا ويدخله الجنة فسمعوا النداء من ناحية القبر نعم اهـ

﴿أبان مولده عن طيب عنصره * ياطيب مبتدأ منه ومختتم﴾

أبان بمعنى أظهر وضمنه معنى كشف فعداه بعن ومولده زمان ولادته بدليل يوم فى البيت بعده والعنصر الاصل فى الاساس انه لكريم العنصر وتقول لهم عناصر تثنى بها الخناصر وياطيب نداء للتعجب ومنه نائب فاعل مبتدأ ضميره عائد الى العنصر ومختتم على الحذف والايصال والتقدير مختتم به والمعنى أن زمن ولادته صلى الله عليه وسلم كشف عن طيب أصله وهو تراب قبره الشريف الذى خلق منه لما ورد أن الانسان عند ملر يد الله تخليقه من النطفة يأمر الملك فيأتى بتراب من المكان الذى يدفن فيه فيعجنه بتلك النطفة * وفى سمط اللآلى ذكر العارف الربانى عبد الله بن أبى جمرة فى كتابه بهجة النفوس ومن قبله صاحب شفاء الصدور عن كعب الأحبار قال لما أراد الله تعالى أن يخلق محمدا صلى الله عليه وسلم أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التى هى قلب الارض وبهاؤها ونورها قال فهبط جبريل فى ملائكة الفردوس وملائكة الرفيق الأعلى فقبض قبضة رسول الله صلى الله عليه وسلم من موضع قبره الشريف وهى بيضاء منيرة فعجنت بماء التسنيم من معين أنهار الجنة حتى صارت كالدرة البيضاء لها شعاع عظيم ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسى وفى السموات والارض والجبال والبحار فعرفت الملائكة وجميع الخلق سيدنا محمدا وفضله قبل أن يعرف آدم اهـ ثم تعجب المصنف من طيب ذلك التراب من حيث كونه مبدأ له عليه الصلاة والسلام وختاما فالبيت من تمام ما قبله وفيه تخلص الى مدح يوم الولادة الشريف وكشف ذلك اليوم عن طيب العنصر بما ظهر فيه من الكرامات والآيات فلفق الأمر من أوله لما فيه من اظهار

الكرامات المحمدية * فى المواهب اللدنية قال سهل بن عبد الله التسترى فيما رواه الخطيب البغدادى لما أراد الله تعالى خلق محمد صلى الله عليه وسلم فى بطن أمه آمنة ليلة رجب وكانت ليلة جمعة أمر الله تعالى رضوان خازن الجنان أن يفتح الفردوس ونادى مناد فى السموات والارض ألا ان النور المخزون المكنون الذى يكون منه النبى الهادى فى هذه الليلة يستقر فى بطن أمه الذى يتم فيه خلقه ويخرج الى الناس بشيرا ونذيرا وفى رواية كعب الاحبار أنه نودى تلك الليلة فى السماء وصفاحها والارض وبقاعها أن النور المكنون الذى منه رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقر الليلة فى بطن آمنة فيا طوبى لها ثم ياطوبى لها وأصبحت يومئذ أصنام الدنيا منكوسة وكانت قريش فى جدب شديد وضيق عظيم فاخضرت الارض وحملت الاشجار وأتاهم الرفد من كل جانب فسميت تلك السنة سنة الفتح والابتهاج وخرج أبو نعيم عن ابن عباس قال كان من دلالة حمل آمنة برسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل دابة كانت لقريش نطقت تلك الليلة وقالت حمل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة وهو امام الدنيا وسراج أهلها ولم يبق سرير ملك الأصبح منكوسا وفرت وحوش المشرق الى وحوش المغرب بالبشارات وكذا أهل البحار يبشر بعضهم بعضا وله فى كل شهر من شهور حمله نداء فى الارض ونداء فى السماء أن أبشروا فقد آن أن يظهر أبو القاسم صلى الله عليه وسلم ميمونا مباركا وفى ذلك الكتاب عن أمه السيدة آمنة بروايات مختلفة أنها قالت أتانى آت وأنا بين النائمة واليقظانة فقال لى هل شعرت بأنك حملت بسيد الانام حتى اذا دنت ولادتى أتانى فقال قولى أعيذه بالواحد * من شر كل حاسد * ثم سميه محمدا قالت ثم لما أخذنى ما يأخذ النساء ولم يعلم بى أحد وانى لوحيدة فى المنزل وعبد المطلب فى طوافه سمعت وجبة عظيمة وأمرا عظيما هالنى ثم رأيت كأن جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادى فذهب عنى الرعب وكل وجع أجده ثم التفت فاذا أنا بشربة بيضاء فتناولتها وأضاء لى نور عال ثم رأيت نسوة كالنخل طولا كأنهن من بنات عبد مناف يحدقن بى فقلن لى نحن آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وهؤلاء من الحور العين فبينما أنا أتعجب وأنا أقول واغوثاه من أين علمن بى واشتد بى الامر وأنا أسمع الوجبة فى كل ساعة أعظم وأهول مما تقدم اذا بديباج قد مد بين السماء والارض واذا قائل يقول خذاه عن أعين الناس ورأيت رجالا قد وقفوا فى الهواء بأيديهم أباريق من فضة ثم نظرت فاذا أنا بقطعة من الطير قد أقبلت حتى غطت حجرتى مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من الياقوت فكشف الله عن بصرى فرأيت مشارق الارض ومغاربها ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات علما بالمشرق وعلما بالمغرب وعلما على ظهر الكعبة فأخذنى المخاض فوضعت محمدا صلى الله عليه وسلم فنظرت اليه فاذا هو ساجد قد رفع اصبعيه الى السماء كالمتضرع المبتهل ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت من السماء حتى غشيته فغيبته عنى فسمعت مناديا ينادى طوفوا به مشارق الارض ومغاربها وأدخلوه البحار ليعرفوه باسمه ونعته وصورته ويعلموا أنه سمى فيها الماحى لا يبقى شئ من الشرك الامحى فى زمانه ثم تجلت عنه فى أسرع وقت اهـ وفى رواية الخطيب البغدادى أن مما نادى به المنادى أعطوه خلق

آدم ومعرفة شيث وشجاعة نوح وخلة ابراهيم ولسان اسمعيل ورضا اسحق وفصاحة صالح وحكمة لوط وبشرى يعقوب وشدة موسى وصبر أيوب وطاعة يونس وجهاد يوشع وصوت داود وحب دانيال ووقار الياس وعصمة يحيى وزهد عيسى واغمسوه في أخلاق النبيين قالت ثم انجلت عني فاذا هو قابض على حريرة خضراء مطوية طيا شديدا ينبع من تلك الحريرة ماء واذا قائل يقول بخ بخ قبض محمد صلى الله عليه وسلم على الدنيا كلها لم يبق خلق من أهلها الا دخل طائعا في قبضته قالت ثم نظرت اليه فاذا به كالقمر ليلة البدر وريحه يسطع كالمسك الاذفر واذا بثلاثة نفر في يد أحدهم ابريق من فضة وفي الثاني طست من زمرد أخضر وفي يد الثالث حريرة بيضاء فنشرها فأخرج منها خاتما تحار أبصار الناظرين دونه فغسله من ذلك الابريق سبع مرات ثم ختم بين كتفيه بالخاتم ولفه بالحريرة ثم احتمله فأدخله بين أجنحته ساعة ثم رده الي اهـ ﴿فائدة﴾ قال في المواهب لازال أهل الاسلام يحتفلون بشهر مولده عليه السلام ويعملون الولائم ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ويظهرون السرور ويزيدون في المبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم ومما جرب من خواصه أنه أمان لذلك العام وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام فرحم الله امرأ اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعيادا ليكون أشد على من في قلبه مرض وأعيادا اهـ

﴿يوم تفرس فيه الفرس أنهم * قد أنذروا بحلول البؤس والنقم﴾

يوم بالرفع بدل من مولده على ما بيناه والتفرس التثبت والتفطن والاسم الفراسة بكسر الفاء وفي الحديث اتقوا فراسة المؤمن والفرس بضم الفاء ويقال لهم فارس أمة عظيمة كان مسكنها في شمال العراق وهم من أولاد هدرام بن ارفخشذ بن سام وسموا فارسا لان أباهم كان له بضعة عشر ولدا كلهم فارس شجاع وقيل سموا بذلك لان بعض أجدادهم اسمه فارس وهو فارس بن كيومرث أول من ملك من الفرس وكان منفردا عن العالم ففشا البغي في زمانه فاجتمع عليه الحكماء وقالوا ان صلاح هذا العالم في اقامة ملك يورد الامور موردها ويصدرها مصدرها كما أن صلاح الجسد بالقلب وان العالم الصغير من جنس العالم الكبير ولا يستقيم أمره الا برئيس يدبره على ما تقتضيه قضايا العقول وأنت أفضلنا وبقية أبينا آدم فلا بد من تقدمك وتفويض الامر اليك فأخذ عليهم العهود والمواثيق على السمع والطاعة ووضع التاج على رأسه تمييزا له وهو أول من لبسه كذا في شرح ابن نباتة على رسالة ابن زيدون والانذار الاعلام بالشيء على وجه التخويف والنذير المنذر ومنه النذير العريان قال ابن السكيت هو رجل من خثعم حمل عليه يوم ذي الخلصة عوف بن عامر فقطع يده ويد امرأته والحلول النزول من حل بالمكان يحل بالضم اذا نزل والبؤس الشدة والنقم جمع نقمة وهي العقوبة والمعنى أن ولادته عليه السلام كانت في يوم تفطن الفرس وتنبههم لنحو يفهم بنزول الشدة والعذاب بهم وموجب هذا التفطن والتنبه ما وقع لهم ليلة الولادة من الامور الهائلة من ارتجاج الايوان وخمود النيران وغور الماء كما سيحكيه الناظم ورؤيا الموبذان كما سنذكرها بعد ان شاء الله فان تغير الحوادث وانعكاس العهود منها خصوصا ما كان له شأن وبه اهتمام كالمذكورات مما يشعر بوقوع ما يستكره بحسب المعتاد خصوصا عند الجهلة من غير المتشرعين

اذ خلاصة ذلك التطير المنفي اعتباره شرعا وليس من المنذر فيما أراده الناظم اخبار الكهنة كما سيجيء له لان ذلك من صريح الاخبار لا من التفرس واعتبار الامارات ولهذا اعتبر هنا مجرد البؤس والنقم من غير تعيين وجه من وجوهها وفي اخبار الكهنة تعيين وجهه كما سيأتي ان شاء الله بيانه * (واعلم) أن الاظهر أنه أراد باليوم مطلق الزمان كما في قوله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم ليجري على الخلاف في زمن الولادة فقد قيل وهو المرجح عندهم أنه عليه الصلاة والسلام ولد عند طلوع الفجر يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الاول وتعيين اليوم والشهر هو المشهور ونقل ابن الجوزي الاجماع عليه وعليه عمل أهل مكة في زيارتهم موضع ولادته ولا يخفى أنه لا منافاة بين كون الولادة عند الفجر وما ورد من حديث تدلي النجوم عند ولادته بل ولو قلنا انه ولد بعد الفجر لامكان أن يكون التدلي وقت المخاض خلافا للزركشي ويناسب قوله وبات ايوان كسرى الخ فان الحمل على حقيقة اليوم يأبى ظاهره وعلى أنه ولد ليلا فاختلف هل ليلة مولده عليه الصلاة والسلام أفضل أم ليلة القدر وفي المواهب ترجيح الاول بأوجه ثلاثة الاول أن ليلة المولد ليلة ظهوره وليلة القدر معطاة له والشرف بظهور ذات المشرف من أجله أتم من الشرف بسبب العطية اليه الثاني أن ليلة القدر شرفت بنزول الملائكة وليلة المولد بظهوره عليه السلام وهو أفضل من الملائكة الثالث فضل ليلة القدر خاص بالامة المحمدية وفضل ليلة المولد عام لسائر الموجودات بظهور رحمة العالمين وعام الفضل أقوى وفي شرح سيدي محمد الزرقاني عليه قدح الشهاب الهيتمي في تلك الاوجه بأنها لا تنتج المدعى لانه ان أريد أن تلك الليلة ومثلها من كل سنة الى يوم القيامة أفضل من ليلة القدر فهذه الادلة لا تنتجه كما هو جلي وان أريد عين تلك الليلة فليلة القدر لم تكن موجودة اذ ذاك فلم يمكن اجتماعهما حتى يأتي بينهما تفضيل على أنا لو سلمنا أفضلية ليلة مولده صلى الله عليه وسلم لم يكن له فائدة اذ لا فائدة في تفضيل الازمنة الا بفضل العمل فيها اهـ قال الزرقاني وهو وجيه وقد يقال نختار الاول وأن الادلة تنتجه وأن المقصور على الليلة المعينة سبب المزية وهو ظهوره صلى الله عليه وسلم ولا غرابة في تعدي المزية الى ما شابهه مورد سببها الا يرى أن ليلة المعراج سببها خاص بالليلة المعينة وفضيلتها عامة لكل ما يشابهها

﴿وبات ايوان كسرى وهو منصدع * كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم﴾

عطف على تفرس وبات تامة بمعنى عرس وعليه فجملة وهو الخ حالية كما هو الظاهر ويحتمل النقصان فاما على أصلها وهو الظاهر لانصداع الايوان ليلة الولادة أو بمعنى صار والخبر كشمل جملة وهي اما اعتراضية أو حالية عند من يجيز عمل النواسخ في الحال أو هي الخبر واقترانها بالواو لشبه الخبر بالحال نص عليه في التسهيل وعليه قوله

وكانوا أناسا ينفحون فأصبحوا * وأكثر ما يعطونك النظر الشزر

والوجه اما الاول أو الحالية وهو أبين والمعنى حينئذ تشبيه الايوان في حال انصداعه بشمل القوم في حال تفرقه ويفيد ضمنا ثبوت الانصداع له الذي هو المطلوب بالاخبار ولافادة الاول له صريحا قدمناه في الاعتبار وعلى كل ففي ذلك التشبيه استطراد لطيف ومن جيده

ما أنشده صاحب زهر الآداب

تعطيك منطقها فتعلم أنه * بجنى عذوبته يمر بثغرها
وأظن حبل وصالها بحبها * أوهى وأضعف قوة من خصرها

واقتران الخبر بالواو خلاف القياس فلا يخرج اليه مع امكان الوجه الصحيح والايوان بالكسر الصفة العظيمة كالأزج والجمع ايوانات وأواوين كذا فى القاموس وفى شرح شيخ الاسلام نقلا عن بعضهم أنه بيت مؤزج غير مسدود الوجه والمؤزج بالهمز والزاى والجيم بيت بنى طولا وقيل الايوان البناء العالى وقيل بيت كبير مستطيل ذو شرفات وقيل مجلس الملك المعد لجلوسه مع أرباب دولته لتدبير أمر الملك اه والمراد هنا البناء العظيم المعين باضافته وهو من عجائب الدنيا * فى شرح ابن نباتة على رسالة ابن زيدون روى أن الرشيد أراد هدمه فاستشار يحيى بن خالد البرمكى فنهاه وقال فى بقائه معجزة باقية فقال له الرشيد بل أبيت الا تعصبا لآبائك وأمر بهدمه فصرف على هدم شرفة مالا كثيرا فكف عنه فقال يحيى الآن تهدمه لئلا يتحدثوا عنك أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك فتغافل عن قوله وتركه اه وكسرى فى الاصل لقب لمن ملك الفرس كقيصر لملك الروم وتبع لملك اليمن والنعمان لملك العرب والنجاشى لملك الحبشة وفرعون لملك القبط والعزيز لملك مصر وجالوت لملك البربر وخاقان لملك الترك وكسرى معرب قسرى أى واسع الملك كذا فى ابن حجر على الهمزية والمراد هنا كسرى أنوشروان المشهور بالحكمة والعدل حتى قيل انه شهد له صلى الله عليه وسلم بالعدل وروا حديثا أنه عليه الصلاة والسلام قال ولدت فى زمن الملك العادل ومن حكمه ان الملوك اذا دبرت ملكها بمال رعيتها كانت بمنزلة من سطح بما نقضه من أساسه * ومن عدله ما يحكى أن بعض رسل الملوك دخل الايوان فرأى فيه اعوجاجا فسأل عنه فقيل انه كان بيت لعجوز فقيرة سألها الملك بيعه فامتنعت فأرغبها فى مال كثير فلم تفعل فتركها وبنى الايوان على ما هو عليه فقال الرسول هذا الاعوجاج أحسن من الاستواء اه واضافة الايوان اليه لكونه الذى تمم أمره وسكنه والمؤسس له سابور والانصداع انشقاق الشئ الصلب وشمل القوم مجمع عددهم من شملهم الامر اذا عمهم والالتآم الاجتماع والمعنى أن ليلة مولده الشريف انصدع الايوان مع احكام بنائه وشدة قوته وكفى ما نقلناه من عجز الرشيد عن هدم بعضه فلم يكن ذلك الا آية له صلى الله عليه وسلم كما قال الناظم وتداعى ايوان كسرى ولولا * آية منك ما تداعى البناء وقوله كشمل الخ تشبيه بما آل اليه أمر ملك كسرى من دخول الاختلال فيه وانقراضه على يد عمر بن الخطاب وذلك بدعائه صلى الله عليه وسلم بتمزيق ملكهم حين مزق كسرى كتابه المرسل اليه مع عبد الله بن حذافة والمعنى أن ولادته صلى الله عليه وسلم كانت سبب تداعى بنيانهم المحسوس كما أن دعاءه كان سبب ذهاب بنيان ملكهم ومثل هذا التشبيه يسميه علماء البديع تفريعا راجع العمدة لابن رشيق وسنأتى القصة فى شرح الابيات بعد ان شاء الله

﴿والنار خامدة الأنفاس من أسف * عليه والنهر ساهى العين من سدم﴾

أل فى النار عهدية أى نار الفرس التى كانوا يوقدونها فى بيوت ويعبدونها وهى معطوفة على ايوان وخامدة بالنصب عطف على الخبر وهو كشمل فيتسلط عليهما الفعل والتقدير وباتت

النار خامدة الانفاس الخ والرفع فى الجر أين على الاستدائية لا يفيد المطلوب اللهم الا أن تكون الواو حالية فتشير اليه كما يظهر بالتدبر وما قيل هنا يقال فى والنهر ساهى العين الخ وعلى الوجه الاول فتقدير الفتح فى ساهى للضرورة التى قيل فيها انها من أحسن الضرورات وخمود النار سكون لهبها مع بقاء جمرها وهمودها طفوء جمرها والانفاس جمع نفس بفتح الفاء وهو حقيقة دفع البخار الحار عن القلب وجلب النسيم البارد اليه وهو خاص بكل ذى رئة ويتجوز به فيقال تنفس الصبح أى تبلج وتنفست النار اذا اشتد حرها ومنه حديث اشتكت النار الى ربها فقالت يارب أكل بعضى بعضا فأذن لها بنفسين نفس فى الصيف ونفس فى الشتاء والأسف أشد الحزن وضمير عليه للايوان كما هو الظاهر والاسف عليه لما أصابه وقول شيخ الاسلام لا يصح عوده عليه اذ لو حزنت على نفس الايوان لخمدت قبل انصداعه غفلة عن مفاد التركيب وفى القرآن المجيد فتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف والنهر بسكون الهاء ويحرك مجرى الماء والجمع أنهار والمراد هنا وادى السماوة وهو نهر بين الكوفة والشام وساهى العين ساكنها والسدم بالتحريك الندم والحزن والمعنى أن ليلة مولده الشريف باتت نار فارس خامدة لا لهب بها وغار وادى السماوة بحيث سكن جريانه وفى البيت تشبيهان مركبان على طريقة التمثيل الاول فى قوله والنار خامدة الانفاس والثانى فى والنهر الخ ويمكن جريان المكنية فيهما ولا يعزب عليك تقريرها وأن الحمل على التمثيل أولى كما فى البيان

﴿وساء ساوة أن غاضت بحيرتها * ورد واردها بالغيظ حين ظمى﴾

ساءه يسوءه ضد سره وساوة مدينة بينها وبين الرى اثنان وعشرون فرسخا وغاض الماء غيضا قل ونقص والبحيرة بركة الماء قالوا وبحيرة ساوة عظيمة جدا طولها ستة أميال وعرضها كذلك وورد الماء أشرف عليه دخله أو لم يدخله كذا فى القاموس والغيظ غضب كامن للعاجز والظمأ العطش واسناد السوء الى ساوة مجاز على حد واسأل القرية اذ السوء حقيقة لاهل المدينة وأن غاضت فاعل ساء والمعنى ان أهل ساوة وهم من الفرس ساءهم ليلة الولادة غيض البحيرة التى يستسقون منها غيضا لم يعهده آباؤهم من قبلهم وان واردهم لما أشرف عليها ليستقى فوجدها غائضة رد بدل الماء بالغيظ والغضب لما عطش لقلة الماء * فان قلت هلا ترك الظرف فيفيد أن الغيظ لانعكاس المطلوب وهو أشد على النفس * قلت المعنى على ذلك ولكن لما كان انعكاس المطلوب مع الحاجة الملجأة أشد على الطالب اعتبر المصنف شدة الحاجة فأتى بالظرف المبين لذلك فافهمه

﴿كأن بالنار ما بالماء من بلل * حزنا وبالماء ما بالنار من ضرم﴾

مفرداته بينة وانتصاب حزنا على التعليل للاستقرار وحذف نظيره من المصراع الثانى لدلالة الاول عليه والمعنى أن النار والماء لما كانا فى غاية التباعد فى الصفات وكفى شدة الحرارة والبرودة وقد تغيرت حالة كل لولادته صلى الله عليه وسلم جعل الناظم ذلك للحزن على انصداع الايوان وما أدى اليه تفرس الفرس منه من توقع البؤس والنقم ولا شك أن الحزن يغير الطبائع والامزجة بسبب ورود غير الملائم على الطبيعة فالبارد تغيره بالحرارة والحار

بالعكس وبالغ المصنف فى تخالف الصفات بالتشبيه فان اتصاف النار بالبلل يوجب اذهاب معنى النارية وكذا اتصاف الماء بالالتهاب الذى هو معنى الضرم يذهب معنى المائية أيضا وما أشار اليه الناظم بهذه الابيات ما رواه الثقات أنه ليلة مولده صلى الله عليه وسلم ارتج ايوان كسرى أنوشروان وسقطت منه أربع عشرة شرفة وأخبره الموبذان ومعناه القاضى أو المفتى بلغتهم برؤيا رآها وهى أنه رأى تلك الليلة ابلا صعابا تقود خيلا عرابا قطعت دجلة وانتشرت فى بلادهم وغارت بحيرة ساوة وكتب الى كسرى صاحب الفرس بأن بيوت النيران قد أخمدت تلك الليلة ففزع لذلك وقال حدث يكون من ناحية العرب فكتب الى النعمان بن المنذر أن يرسل اليه أعلم من فى أرضه من العرب فبعث اليه عبد المسيح بن عمرو الغسانى وكان معمرا فدلهم على خاله سطيح بالشام فأمره كسرى بالذهاب اليه فقدم عليه وقد أشفى على الموت فسلم عليه فلم يرد جوابا فأنشأ عبد المسيح يقول

أصم أم يسمع غطريف اليمن * أم فاد فازلم به شأو العنن
يا فاصل الخطة أعيت من ومن * أتاك شيخ الحى من آل سنن
وأمه من آل ذئب بن حجن * أبيض فضفاض الرداء والبدن
رسول قيل العجم يسرى بالوسن * لا يرهب الرعد ولا ريب الزمن
تجوب بى الارض علنداة شدن * ترفعنى وجنا وتهوى بى وجن
حتى أتى عارى الجآجى والقطن * تلفه فى الريح بوغاء الدمن
كأنما حثحث من حضنى ثكن *

فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه فقال عبد المسيح على جمل مشيح جاء الى سطيح حين أوفى على الضريح بعثك ملك بنى ساسان لارتجاج الايوان وخمود النيران ورؤيا الموبذان رأى ابلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها عبد المسيح اذا كثرت التلاوه وظهر صاحب الهراوه وخمدت نار فارس وغارت بحيرة ساوه وغاض وادى السماوه فليست الشام لسطيح شاما يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات وكل ما هو آت آت ثم قضى سطيح مكانه اه

﴿تفسير غريب هذه القصة﴾ الغطريف هو السيد الشريف وفاد يفود مات وأما فاد يفيد فمعناه تبختر وازلم قبض وشأو العنن الموت والفضفاض من الدروع الواسع وجارية فضفاضة كثيرة اللحم مع الطول والقيل الملك فى القاموس مقول كمنبر اللسان والملك أو من ملوك حمير يقول ما شاء فينفذ كالقيل أو هو دون الملك الاعلى وأصله قيل كفيعل اه والعلنداة الناقة الشديدة والشدن بالدال القوى من شدن الظبى وجميع ولد الظلف والخف والحافر شدونا قوى واستغنى عن أمه ويروى بالزاى وهو الشدة والوجن جمع وجين وهى الارض ذات الحجارة الصغار وفى القاموس الوجين شط الوادى والعارض من الارض يتقادو يرتفع قليلا والجآجى جمع جؤجؤ كهدهد وهو الصدر والقطن محركة ما بين الوركين والبوغاء الرخوة التربة والدمن جمع دمنة وهى ما قرب من الديار تبول فيه المواشى وتبعر

﴿والجن تهتف والأنوار ساطعة * والحق يظهر من معنى ومن كلم﴾

الاظهر أن الواو حالية والحال فى المعنى من الافعال السابقة والمعنى وقع جميع ذلك والحال أن

الجن تهتف والانوار الخ ويصح العطف وهو أبين اعرابا والمعطوف عليه الجملة المضاف اليها يوم وهو مما يضاف الى الجملتين والجن الخلق المستتر المعروف وهو خلاف الانس والهتف الصوت المسموع ممن يخفى عن الابصار حال تكلمه وهو هاتف والنور الضياء وسطوعه ظهوره وارتفاعه ومفردات المصراع الثانى بينة وواوه استئنافية وهو مسوق مساق التمثيل والاستدلال لسابقه ومعناه أن شأن الحق أن لا يخفى وأن تتضافر الأقوال والمعانى على ظهوره فلا غرابة فى وقوع تلك الخوارق الجامعة بين القول وغيره الدالة على صدق نبوّته عليه الصلاة والسلام وهذا ضرب بديع من أضرب البلاغة جاء به الكتاب المجيد وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا وقد أكثر فحول الشعراء منها وأكثرهم أبو الطيب المتنبى فانه قل ما تجد له قصيدة خلية عنها مع الحكمة البالغة ومنه قوله فى سيف الدولة

كل يوم لك احتمال جديد * ومسير للمجد فيه مقام
واذا كانت النفوس كبارا * تعبت فى مرادها الاجسام

ومنه قول أبى العلاء المعرّى

قالت عداتك ليس المجد مكتسبا * مقالة الهجن ليس السبق بالحضر
رأوك بالعين فاستغوتهم ظنن * ولم يروك بفكر صادق الخبر
والنجم تستصغر الابصار رؤيته * والذنب للعين لا للنجم فى الصغر

وأشار الناظم بهذا البيت الى ما روى عن عثمان بن العاص أن أمه فاطمة قالت شهدت آمنة لما ولدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ضربها المخاض رأيت النجوم تتدلى حتى خشيت أن تقع علىّ فلما ولدته خرج منها نور أضاء له البيت الذى نحن فيه فما شئ أنظر اليه الا النور ثم سمعت هاتفا يهتف على جبل الحجون

فأقسم ما أنثى من الناس أنجبت * ولا ولدت أنثى من الناس واحده
كما ولدت زهرية ذات مفخر * مجنبة لوم القبائل ماجده

وهتف آخر على أبى قبيس

يا ساكنى البطحاء لا تغلطوا * وميزوا الامر بعقل مضى
أخت بنى زهرة من سرّكم * فى غالب الدهر وعند البدى
واحدة منكم فهاتوا لنا * فيما مضى للناس أو ما بقى
واحدة من غيركم مثلها * جنينها مثل النبىّ التقى

هذا هو المناسب لقصد الناظم هنا أما قصة سواد بن قارب فانها عند بعثته صلى الله عليه وسلم وذلك لا يناسب المقصود هنا

﴿عموا وصموا فاعلان البشائر لم * تسمع وبارقة الانذار لم تشم﴾

ضمير الجمع لعموم الكفار الذين لم يؤمنوا به صلى الله عليه وسلم ولم يصدقوه مع ظهور دلائل نبوّته وهؤلاء وان لم يتقدم لهم ذكر لكن حضورهم فى الذهن ومعلوميتهم لكل أحد سوغ استعمال ضمير لفظ الغيبة وقصر الضمير على خصوص الفرس وأصحاب كسرى وقوفا على مقتضى ظاهر الغيبة يوجب قصورا فى المعنى والعمى عدم البصر عما من شأنه أن يكون بصيرا والصمم صلابة من اكتناز الاجزاء ومن ثم قيل حجر أصم سمى به فقد ان حاسة السمع لان سببه قول بعض الاطباء أن يكون صماخ الاذن مكتنز الاتجويف فيه فلا يكون به هواء يسمع

الصوت بتوجه والفاء للتفريع فرّع عدم المسببات على عدم أسبابها العرفية والاعلان الاظهار والبشائر جمع بشارة بكسر الباء وهى الاخبار بما يحدث السرور ومن ثم لا تستعمل الا فى الخير وقوله تعالى فبشرهم بعذاب أليم على طريق التجوز المراد به التهوين ولا تطلق الا على أول خبر من حيث ان ما بعده مؤكد للسرور ولا يحدث له تخبر والبارقة من برقت السماء وأبرقت اذا لمعت بالبرق وسحاب بارقة اذا جاءت ببرق ومن حيث ان البرق فى الغالب تقدمة مخوف كالصواعق تجوّز به كما هنا عن مقدّمة الانذار الذى هو الاعلام بعاقبة الامر المخوفة والشيم رؤية البرق خاصة نقل عن أبى منصور الثعالبى أن النظر عام والشيم خاص بالبرق وعليه فهو ترشيح للتجوز هنا والمعنى أن الكفار عميت أبصارهم فلم ينظروا بوارق الانذار وصمت آذانهم فلم يعقلوا رسالته ولم يؤمنوا بها وذلك أن طريق العلم للامة الأمية اما الاخبار أو الرؤية ولما كانت الادراكات الحسية تستدعى سلامة قوى المدارك وتهيئ المدرك للادراك نبه الناظم رحمه الله على أن خلل الادراك جاء من قبيل المدرك ضرورة أن المدرك بالسمع معلن به والمدرك بالبصر شبيه بالبرق فى الضياء والظهور ومع ذلك لم يقع ادراكهما فليس الا للخلل فى القوى المدركة ومن حيث ما هو معلوم من حصول الادراك لهم بالسمع للمسموع والرؤية للمرئى تعلم أن مرمى المصنف التشبيه والتنبيه على أن الادراكات اذا لم يقع العمل بمقتضاها فهى والعدم سواء ومن ثم كان العالم الذى لم يجر على سنن علمه كالجاهل وقد نعى الله حال المنافقين بذلك فقال جل اسمه صم بكم عمى فهم لا يرجعون ومن حكم أبى الطيب

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره * اذا استوت عنده الأنوار والظلم

وفى البيت نشر على عكس اللف دعا اليه مراعاة الروى هذا ومن لطيف اشارات المصنف اختيار عنوان الاعلان فى البشارة والبارقة فى الانذار ايماء الى أن أسبق كراماته صلى الله عليه وسلم النفع والمسرّة وأن الجاحد جنى على نفسه بتركه حظه من ذلك وقوله جل اسمه وما أرسلناك الا رحمة للعالمين وتقديم وصف البشير على النذير حيثما ذكرا فى الكتاب المجيد أعدل شاهد لما ذكرناه ومن ثم كانت البشارة بالتصريح والادلة الواضحة والانذار بالايماء المراد للمصنف بالبارقة وذلك تغير أحوال الكفر من خمود النيران وانصداع الايوان وغيض المياه المؤذن ذلك بسوء عاقبة الامر كما ظنوه وكان عاقبة الامر ما تخوّفوه

﴿من بعدما أخبر الأقوام كاهنهم * بأن دينهم المعوج لم يقم﴾

متعلق بقوله عموا وصموا باعتبار المراد منهما من المخالفة والجحود كما أشرنا اليه فى شرح البيت قبله والاقوام الكفار عموما كما تقدم والكاهن الذى يدّعى علم الغيب وقيل الذى له صاحب من الجن يخبره ببعض الكائنات واضافته جنسية بدليل عموم المضاف اليه كما بينا والدين الملة والطاعة التعبدية ويقال للطريقة الملتزمة وعليه قوله

ولم يبق سوى العدوا * ن دناهم كما دانوا

والمعوج ما كان ذا عوج وهو بكسر العين فى المعانى وبفتحها فى غيرها والقيام الدوام من قام الامر اذا دام ومنه ويقيمون الصلاة أى يداومون عليها والمعنى أن جحود الكفار وانكارهم رسالته صلى الله عليه وسلم كان بعد اخبار كهانهم الذين كانوا يصدقونهم

ويتخذونهم عمدا يرجعون اليهم فى أحوالهم وفيما يحدث لهم من الامور بأن ما هم عليه من التدين الفاسد وعبادة الاوثان الذى لا يقبل عند ذى عقل قد آن اندراسه وتزعزع أساسه ببعثته صلى الله عليه وسلم بالدين القويم ونعى عليهم بأشنع حالة حيث خالفوا فى شأنه معتادهم من العمل على أخبار من وثقوا بأخباره فى عامة شؤنهم وذلك من أقوى الشواهد على اعوجاج ما هم عليه من التدين اذ أول مراتب التدين الاعتماد على قول من يجعل عمدة فيه * وأخبار الكهان المشار اليها فى النظم كثيرة منها قصة خطر بن مالك روى عن لهب بن مالك اللهبى قال حضرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عنده الكهانة فقلت بأبى أنت وأمى نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم وذلك أنا اجتمعنا الى كاهن لنا يقال له خطر بن مالك وكان شيخا كبيرا قد أتت عليه مائة وثمانون سنة وكان من أعلم كهاننا فقلنا يا خطر هل عندك علم بهذه النجوم التى يرمى بها فانا قد فزعنا لها وخفنا سوء عاقبتها فقال ائتونى بسحر أخبركم الخبر أبخير أم ضرر أولا من أو خطر قال فانصرفنا عنه يومنا فلما كان من غد فى وجه السحر أتيناه فاذا هو قائم على قدميه شاخص فى السماء بعينيه فناديناه يا خطر يا خطر فأومأ الينا أن أمسكوا فامسكنا فانقض نجم عظيم من السماء وصرخ الكاهن رافعا صوته أصابه أصابه خامره عقابه عاجله عذابه أحرقه شهابه زايله جوابه ياويله ماحاله بلبله بلباله عاوده خباله تقطعت حباله وغيرت أحواله ثم أمسك طويلا وقال يا معشر بنى قحطان أخبركم بالحق والبيان * أقسم بالكعبة والاركان * والبلد المؤمن السدان قد منع السمع عتاة الجان بثاقب بكف ذى سلطان من أجل مبعوث عظيم الشان يبعث بالتنزيل والفرقان وبالهدى وفاصل القرآن تبطل به عبادة الاوثان قال فقلت يا خطر انك لتذكر أمرا عظيما فماذا ترى لقومك قال أرى لقومى ما أرى لنفسى * أن يتبعوا خير نبى الانس برهانه مثل شعاع الشمس * يبعث فى مكة دار الحمس * بمحكم التنزيل غير اللبس فقلت يا خطر وممن هو فقال والحياة والعيش انه لمن قريش ما فى حكمه طيش ولا فى خلقه هيش يكون فى جيش وأى جيش من آل قحطان وآل هيش فقلنا بين لنا من أى قريش هو فقال والبيت ذى الدعائم انه لمن نجل هاشم من معشر أكارم * يبعث بالملاحم وقتل كل ظالم ثم قال هذا هو البيان أخبرنى به رئيس الجان ثم قال الله أكبر جاء الحق وظهر وانقطع عن الجن الخبر ثم سكت وأغمى عليه فما أفاق الا بعد ثلاث فقال لا اله الا الله محمد رسول الله ثم مات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد نطق عن مثل نبوة وانه ليبعث يوم القيامة أمة وحده اه وأخبار الكهان فى مثل هذا كثيرة تكفلت بالاحاطة بها كتب السير

﴿وبعدما عاينوا فى الأفق من شهب * منقضة وفق ما فى الارض من صنم﴾

عطف على بعد السابقة وما موصول اسمى عائده محذوف مبين بشهب والمعاينة الرؤية بالعين ومنه قولهم فلان لك عبد عين أى كالعبد ما دمت تراه والافق بسكون الفاء وضمها الناحية ومنه أفق السماء وهو المراد هنا والشهب جمع شهاب وهو شعلة نار ساطعة والمراد هنا ما يرى منقضا من الكواكب كشعلة النار واختلف فى حقيقته فذهب الحكماء وأهل الهيئة أنه

أجزاء بخارية تصعد من الارض الى كرة النار فتشتعل وتنزل ولما كانت مسببة عن تسخير الكواكب نسبت اليها وهذا الرأى مخالف لنصوص الكتاب وأقوى ما خالف النص بأنها رجوم للشياطين فانها اذا كانت طبيعية على ما يرون تحدث عند ما تقتضيها الطبيعة صادفت شيطانا أم لا وتوجيهه بأنه لا يبعد أن يكون حدوثها عند ما يريد الله رجم الشيطان تركيب مذهب طبيعي بفرع شرعي لا يقبل عند ذوى العقول وذهب أهل السنة الى التمسك بظاهر النصوص القرآنية وان النجوم نفسها تنقض عند ما يريد الله رجم الشياطين وهو رأى حكماء العرب كما سيجيء نقله ان شاء الله ومنقضة صفة لشهب وانقض الشئ هوى وسقط والوفق الموافقة فى أى شئ كان ولفظه نصب على الحالية لان اضافته لفظية والصنم ما كان مصورا من حجر والوثن ما كان من غيره وقيل هما بمعنى واحد ومعنى البيت ان كفر الأقوام كان أيضا بعد معاينة الخوارق العظمى وهى تساقط الشهب من السماء على خلاف ما يعتادون ونكوس أصنامهم يوم ولادته صلى الله عليه وسلم فهذا التغيير العلوى والسفلى المتوافقان فى الزمن والكثرة مما ينادى ببعثة رسالته صلى الله عليه وسلم لو أسمع حيا وقد عاينوا كلا من الأمرين وعظما عندهم وعلموا أن ذلك لحادث عظيم فى الكلاعية عن ابن اسحق أول العرب فزع للرمى بالنجوم حين رمى بها ثقيف وأنهم جاؤا الى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية وكان أدهى العرب فقالوا له يا عمرو ألم تر ما حدث فى السماء من القذف بهذه النجوم قال بلى فانظروا فان كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر وتعرف بها الانواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس فى معاشهم هى التى يرمى بها فهو والله يرد طى الدنيا وان كانت نجوما غيرها وهى ثابتة فهذا لامر أراد الله به هذا الخلق اه وتقدم ذكر قصة لهب بن مالك مع خطر وهذان الخبران وأمثالهما يقتضيان حدوث هذا الانقضاض بولادته صلى الله عليه وسلم وهو ما يقتضيه صنيع الناظم رحمه الله وهو المعنى الظاهر من الكتاب المجيد فى مواضع عديدة وذلك مما يضعف طريقة الحكماء المتقدمة وقيل انه كان سابقا معلوما عند العرب ذكروه فى اشعارهم قال عوف بن الخرع وهو جاهلى يصف فرسا

يرد علينا العير من دون الفه * أو الثور كالدرى يتبعه الدم

نعم كان بقلة فكثر عند مبعثه صلى الله عليه وسلم وهو الذى يقتضيه الامتلاء فيما تحكيه علت كلمته عن الجن وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وأنت لا ترضى بذلك البيت معارضا لفزع العرب عند رؤيتها ولا اقتضاء فى الآية كما هو بين وقوله وفق الخ ذكر ارهاص آخر من كراماته صلى الله عليه وسلم على طريقة التفريع التى أشرنا اليها وسنشرحها فى الابيات بعد ان شاء الله ذكر المؤرخون أنه لما ولد صلى الله عليه وسلم أصبحت أصنام الدنيا كلها منكوسة

﴿حتى غدا عن طريق الوحى منهزم * من الشياطين يقفو اثر منهزم﴾

مفرداته بينة وحتى غاية لانقضاض الشهب مبينة لفائدته ومنهزم فاعل غدا ويقفو جملة حالية والمعنى أنه ترتب على انقضاض الشهب انهزام الشياطين عن طريق الوحى بحيث صار الواحد منهم يقفو أثر الآخر فى الانهزام على معنى عموم الانهزام لجميعهم وشاهد ما ذكره

الناظم

الناظم ما قص من قول النفر الجنى فى سورة الجن وما روى ابن عباس رضى الله عنهما عن نفر من الانصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما كنتم تقولون فى هذا النجم الذى يرمى به قالوا يا نبى الله كنا نقول مات ملك وولد مولود مات مولود فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس ذلك كذلك ولكن الله تبارك وتعالى كان اذا قضى فى خلقه أمرا سمعه حملة العرش فسبحوا فسبح من تحتهم لتسبيحهم فيسبح من تحت ذلك فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهى الى سماء الدنيا فيسبحون ثم يقول بعضهم لبعض مم سبحتم فيقولون سبح من فوقنا فسبحنا لتسبيحهم فيقولون ألا تسألون من فوقكم لم سبحوا فيقولون مثل ذلك حتى ينتهوا الى حملة العرش فيقال لهم لم سبحتم فيقولون قضى الله فى خلقه كذا وكذا للامر الذى يهبط به الخبر من سماء الى سماء حتى ينتهى الى سماء الدنيا فيتحدثون به فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف ثم يأتون به الكهان من أهل الارض فيحدثونهم فيخطئون ويصيبون فتحدث به الكهان فيخطئون بعضا ويصيبون بعضا ثم ان الله حجب الشياطين بهذه النجوم التى يقذفون بها فانقطعت الكهانة اليوم فلا كهانة

﴿كأنهم هربا أبطال أبرهة * أو عسكر بالحصى من راحتيه رمى﴾

ضمير الجمع للشياطين والهرب اسم للهروب أو مصدر غير قياسى وهو الفرار بسرعة ونصبه على التمييز للنسبة باعتبار تعلق الناصب به وهو التشبيه والأبطال جمع بطل وهو الشجاع وأبرهة بفتح الهمزة أحد ملوك اليمن وهو صاحب الفيل ومعنى هذا اللفظ بالحبشية الأبيض الوجه قال الخفاجى فى حواشى التفسير وهو يؤيد القول بأن أبرهة هذا هو ابن الصباح الحميرى وليس ابن كيسوم الحبشى اه والى الأول ذهب القاضى فى التفسير ووجه التأييد ان بياض الوجه ينافى الحبشية وفيه أنه اذا ثبت تسمية ابن كيسوم بذلك الاسم فلا تأييد فافهمه والذى نقله صاحب العمدة عن ابن قتيبة أن أبرهة بن الصباح ملك اليمن لكنه غير صاحب الفيل الاول الاسبق بقرون وبينهما ملوك كثيرون فاعرفه والحصى جمع حصاة وهى الصلبة من صغار الحجارة وتعريفه جنسى اذ لا عهد ولا مساغ للاستغراق والظرفان يتعلقان برمى آخر البيت والمعنى أن الشياطين بعد انقضاض الشهب يشبهون أبطال أبرهة حين أرسل عليهم الطير الابابيل من جهة هروبهم أو يشبهون الكفار يوم أحد حين ولوا هاربين لما رماهم صلى الله عليه وسلم بالحصى والغرض من هذا التشبيه ذكر كرامته صلى الله عليه وسلم فى قصة الفيل فان ذلك كان من بركته ومعجزته صلى الله عليه وسلم يوم أحد بعد ذكر كرامته بحراسة السماء بالشهب على طريق النظائر الخاصة وأتى بكيفية التشبيه دون تعدادها استقلالا على طريقة التفريع المعلومة عند أهل البديع قال ابن رشيق فى العمدة التفريع أن يذكر الشاعر وصفا ثم يفرع عنه وصفا آخر يزيد الموصوف تأكيدا نحو قول الكميت

أحلامكم لسقام الجهل شافية * كما دماؤكم يشفى بها الكلب

فوصف شيأ ثم فرع عنه شيأ آخر لتشبيه شفاء هذه بشفاء هذه وقال ابن المعتز يصف ساقى كاس

فكأن حمرة لونها من خده * وكأن طيب نسيمها من نشره

حتى اذا صب المزاج تبسمت * عن ثغرها فحسبته من ثغره

مازال ينجزنى مواعـدعينـه * فهوأحسب ريقـه من خمره

اه والنظم من هـذا القبيل واذا عرفت أن غرضه من هـذا التشبيه هو التفريع لاأراك تلتفت الى كون التشبيه على حقيقته أو هو من عكس التشبيه * وقصة أبطال أبرهة ماحكاه جل اسمه عن مآل أمرهم بقوله فأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول وشرحها ماحكاه أصحاب السير والمؤرخون أن أبرهة بنى كنيسة يقال لها القليس مشيدا بصنعاء اليمن لم يرمثلها فى زمانها وكان ينقل اليها الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام وكان حكمه فى العامل اذا طلعت الشمس ولم يعمل قطع يده ونصب فيها صلبانا من الذهب والفضة ومنابر من العاج ولما كمل مراده من بنائها كتب الى النجاشى انى بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يرمثلها ملك قبلك ولست بمنته حتى أصرف حج العرب اليها فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك الى النجاشى غضب رجل من النساءة أى الذين ينسؤن الشهور فى الجاهلية فيحلون شهرا من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه شهرا من أشهر الحل فخرج حتى أتى القليس فأحدث فيها فاخبر بذلك أبرهة فقال من صنع هـذا فقيل له رجل من أهل هذا البيت الذى يحج العرب اليه بمكة لما سمع قولك أصرف حج العرب اليها فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن الى البيت حتى يهدمه فتجهزت الحبشة وخرجوا بالفيل فأعظمت ذلك العرب ورأوا جهاده حقا عليهم فخرج اليـه رجل من أشراف اليمن يقال له ذونفر فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب الى حرب أبرهة فقاتلوه وهزم أصحاب ذى نفر وأخذ أسيرا فلما هم أبرهة بقتله قال له أيها الملك لاتقتلنى عسى أن يكون بقائى معك خيرا وكان أبرهة حليما فتركه وحبسه فى وثاق عنده فلما بلغ أبرهة خثعم عرض له نفيل بن حبيب ومن تابعه من العرب فانهزموا وأسر نفيل فلما هم بقتله قال لا تقتلنى أيها الملك فانى دليلك بأرض العرب فتركه حتى اذا أتى الطائف خرج له مسعود بن معتب الثقفى فى رجال ثقيف فقالوا له أيها الملك نحن عبيدك وليس بيتنا يعنون اللات هو الذى تريد انما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فبعثوا معه أبارغال دليلا فلما نزل بالمغمس مات أبورغال فرجمت العرب قبره فبقى رجمه سنة ثم بعث أبرهة الاسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى الى مكة فساق اليـه أموال تهامة من قريش وغيرهم وأصاف اليها مائتى بعير لسيدنا عبد المطلب بن هاشم كبير قريش وسيدها فهمت العرب من قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم بقتاله ثم عرفوا أن لا طاقة لهم به فتركوا ذلك فبعث أبرهة حناطة الحميرى الى مكة وقال سل عن سيد هـذا البلد ثم قل له ان الملك يقول لك انى لم آت لحربكم انما جئت لهدم هـذا البيت فان لم تعرضوا الى دونه فلاحاجـة لى بدمائكم فان هو لم يرد حربى فائتنى به فأتى الرجـل سيدنا عبد المطلب وبلغه الرسالة فقال له لانريد حربه ولا نطيقه هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم عليه السلام فان يمنعه فهو بيته وحرمه وان يخل بينه وبينه فوالله ماعندنا دفع عنه فقال له فانطلق معى اليه فانطلق حتى أتى العسكر فاستأذن عليه فأذن له وكان سيدنا عبد المطلب أجمل الناس فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة

يجلس معه على سرير ملكه فنزل وأجلسه على بساطه الى جنبه ثم قال لترجمانه قل له ماحاجتك فسأله الترجمان فقال أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى فأخبره الترجمان فقال له قد كنت أعجبتنى ثم زهدت فيك تكلمنى فى الأبعرة وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك لاتكلمنى فيـه فقال له أنارب الابل وان للبيت ربا سيمنعه قال أبرهة ما كان ليمتنع منى فقال له أنت وذاك فردّ عليـه الابل وأتى قريشا فأخبرهم وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعب الجبال خوفا من مضرة الجيش فأخذ سيدنا عبد المطلب بحلقة الكعبة وقام معـه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه وعبد المطلب يقول

لاهـم ان العبـد يمـنع رحـله فامنع رحالك
وانصر علـى آل الصليـب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم * ومحالهم أبدا محالك
جرّوا جميع عيالهـم * والفيل كى يسبوا عيالك
عمـدوا حماك بكيدهم * جهـلا وماراقبوا جلالك

كذا ذكره بعضهم والمشهور فى بعض السير الاقتصار على البيت الأوّل والثالث ثم انطلق مع القوم الى شعب مكة فتحرزوا بها فلما أصبح أبرهة تهيأ للدخول الى مـكة وكان اسم الفيل محمودا فلما وجهوه الى مكة قام بجنبه نفيل بن حبيب وأخذ باذنه وقال ابرك محمودا وارجع راشدا فانك فى بلد الله الحرام ثم أرسـل اذنه فبرك الفيل فضربوه ليقوم فأبى فضربوه بالطبرزين فى رأسه فابى فوجهوه الى اليمن فقام يهرول الى الشام كذلك والى المشرق كذلك والى مكة فبرك وأرسـل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طير ثلاثة أحجار حجر فى منقاره وحجران فى رجليـه أمثال الحمص والعـدس لا تصيب أحـدا منهـم الا هلك وليست كلهم أصابت وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق ويسألون عن نفيل ليدلهم فقال حين رأى مانزل بهم

أين المفرّ والاله الطالب * والأشرم المغلوب ليس الغالب

وأصيب أبرهة فى جسده وخرجوا به تسقط أنامله أنملة أنملة كلما سقطت أنملة تبعتها مدة قيح ودم حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره على قلبه ويقال أول ما رئيت الحصبة والجدرى ومرائر الشجر كالحرمل والحنظل بارض العرب ذلك العام وما أشدّه وان الله اذا أخذهم بأضعف خلقه لما اعتمدوا على أقواها وكانت هذه الواقعة قبل ولادته صلى الله عليه وسلم بخمسين يوما فانها كانت فى المحرّم من عام ولادته صلى الله عليه وسلم ومن هنا كانت من كراماته صلى الله عليه وسلم والارهاصات الدالة على نبوته عليه السلام * وأما قصة رمى الحصى من كفه صلى الله عليه وسلم فهى ماحكاه أرباب السير من وقوع ذلك مرّتين أولاهما فى غزوة بدر الكبرى وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما عدّل صفوف المسلمين يوم القتال دخل العريش ومعـه أبو بكر رضى الله عنـه وصار يناشد ربه ويقول اللهـم انك ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد وأبو بكر يقول يانبى الله بعض مناشدتك ربك فان الله منجز لك ماوعدك ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا

ثم قال شاهت الوجوه ثم رماهم بها وقال لاصحابه شدوا فكانت الهزيمة على المشركين وجعل الله شأن تلك الحصباء عظيما فانها لم تترك أحدا من المشركين الا ملأت عينيه واستولى عليهم المسلمون قتلا وأسرا بعدون النفر منكبا على وجهه لا يدرى أين يتوجه يعالج نزع التراب من عينيه والثانية فى غزوة حنين روى عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم بعد ما جمع من المسلمين من تفرق ونشب القتال قبض قبضة من الحصباء فحصب بها وجوه المشركين ونواصيهم كلها وقال شاهت الوجوه فهزم الله أعداءه من كل ناحية حصبهم فيها واتبعهم المسلمون يقاتلونهم وغنمهم الله نساءهم وذراريهم وشاءهم وابلهم اه باختصار ولعظم شأن ذلك الرمى قال تعالى فى أمره وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ولا أظنك تفهم من هذا النفى والاثبات ماهو عام فى أفعال الخلق عند الاشاعرة من أن كل فعل بخلق الله وانما المعنى ان هذا الفعل لا تصل اليه قدرة المخلوق كما تصل فى سائر أفعاله فهو متمحض لكونه من الله وان كانت الصورة من العبد فتدبره وما ألطف صنيع الناظم فى ضم هذه المعجزة للارهاص الاول اذ كانا من نوع واحد وهو هلاك أعداء الله بالحصباء فى الحالتين فافهمه

﴿نبذا به بعد تسبيح ببطنهما * نبذ المسبح من أحشاء ملتقم﴾

النبذ الرمى من اليد كاللفظ من الفم ونصبه فى النظم على المصدر به بقوله رمى نحو جلست قعودا أو بمحذوف من لفظه دل عليه المقام أى نبذه نبذا على طريق الاستئناف المبين لاجمال ماقبله وهذا هو الأصوب ليسلم الناظم من التضمين المعيب فى القوافى ونبذ المسبح على معنى التشبيه والمسبح سيدنا يونس بن متى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام والأحشاء جمع حشا وهو ما انطوت عليه الضلوع والمراد بالملتقم الحوت الذى التقم يونس عليه السلام والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم نبذ الحصى من راحتيه بعد ما سبحت ببطنهما كنبذ يونس من بطن الحوت بعد تسبيحه وتسبيح الحصى بكفه صلى الله عليه وسلم من معجزاته الثابتة والمراد به التسبيح المسموع لا التسبيح الثابت لكل شئ بنص الكتاب وظاهر صنيع الناظم أن الحصى المرمى به سبح فى كفه صلى الله عليه وسلم قبل الرمى به قال شيخ الاسلام ابن مرزوق لعل الناظم اطلع على ذلك والا فحديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ كفا من حصى فسبحن فى يده حتى سمعنا التسبيح ثم صبهن فى يد أبى بكر فسبحن ثم فى أيدينا فما سبحن ومثله عن أبى ذر وذكر أنهن سبحن فى يد عمر وعثمان لا يدل الا على أن الحصى سبح فى كفه على الجملة اه قلت وهو وان كان مجملا يحتمل باجماله أن يكون التسبيح وقع حين الرمى كما يحتمل أن يكون فى غير ذلك الوقت الا أن الجمع ما بين حديث التسبيح المذكور وحديثى الرمى يقضى بالمغايرة فلا تدخل حالة الرمى تحت اجمال حديث التسبيح المذكور والوجه صرف اللفظ عن ظاهره الى ارادة التسبيح فى غير حالة الرمى ايماء الى معجزة تسبيح الحصى ولما كان معاد الضمير حسيا كما قدمناه سهل الامر وحاصل المعنى أن ما وقع من معجزة الرمى بالحصى كان بعد معجزة تسبيحه بكفه صلى الله عليه وسلم فان قلت يتوقف صحة هذا على تحقق الترتيب فى الخارج والروايات لا تقتضيه قلنا هى وان لم تقتضه صريحا لكن أحاديث تكليم الشجر وتسبيح الطعام والحصى وسوق

من ساقها يشعران بأن ذلك كان بحدثان بعثته صلى الله عليه وسلم وشيخ الاسلام لما لاح له السؤال ادعى ان بعد للترتيب كما تستعمل ثم لذلك أحيانا ولا أظنك ترضى عنه كما أنك لا ترضى باحتمال أن يراد التسبيح منه صلى الله عليه وسلم ثم يحتمل أن يكون الغرض من التشبيه بنبذ يونس عليه السلام الاشارة الى ما دلت عليه الآية التى قدمناها فى شرح البيت قبله من أن عظمة أثر هذا الفعل لا تلاقى القدرة البشرية وأن الفعل وان كانت صورته منه صلى الله عليه وسلم فهو حقيقة من الله تعالى كتمحض نبذ يونس من أحشاء الحوت واختصاص التشبيه مع هذا بين لشدة الملاءمة فى الرمى والتسبيح من المرمى وربما أيد هذا الاحتمال بناء الفعل للنائب فى البيت السابق لكنه لا يليق ببلاغة النظم ويحتمل أن يكون ايماء الى ماهو مشهور من أن ما من آية أوتيها نبى الا أوتى نبينا مثلها أو أعظم منها والاظهر أنه اشارة الى أن كرامة يونس بما ذكر انما كانت من أجله صلى الله عليه وسلم فهو من تمام التفريع المتقدم ذكره وذلك أنه لما تحقق كما بيناه سابقا ان نبوة كل نبى انما هى له صلى الله عليه وسلم على طريق الحقيقة فاذا كل كرامة تثبت لذلك النبى فهى فى الحقيقة لنبينا صلى الله عليه وسلم وقد تقدم فى النظم وكل آى أتى الرسل الكرام بها الخ ومن ثم نقل أنه صلى الله عليه وسلم قال كنت مع يونس فى بطن الحوت أو ما هذا معناه وفى شيخ الاسلام كلام فى توجيه النظم لا يرضى عند التأمل وقصة يونس عليه السلام مذكورة فى الكتاب المجيد فى غير ما مرة * وذلك أنه لما طالت دعوته قومه ودامت شكيمتهم وتمادى اصرارهم هاجر عنهم قبل أن يؤمر من الله تعالى فركب السفينة فوقفت فقالوا ههنا عبد آبق فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فقال أنا الآبق ورمى بنفسه فى الماء فالتقمه الحوت وابتلعه فنادى فى الظلمات أى ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة احشاء الحوت لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فكان من لطف الله أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه ليتنفس يونس عليه السلام حتى انتهوا الى البر فلفظته باجابة دعائه بذلك الدعاء وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له اه

﴿جاءت لدعوته الأشجار ساجدة * تمشى اليه على ساق بلا قدم﴾

المجىء الاتيان ودعوته أمره ونداؤه والاشجار ماله ساق من النبات وتعريفه جنسى والسجود وضع الجبهة على الارض خضوعا والمراد هنا مطلق الخضوع على طريق التجوز والمشى معروف ويروى تسعى وهو بمعناه وساق الشجر جذعها والقدم طرف الرجل والمعنى ان من معجزاته صلى الله عليه وسلم مجىء الشجر له صلى الله عليه وسلم حين دعاه للمجىء والشهادة له بالرسالة وثبوت ذلك من الشهرة بمكان حيث رواه الجم الغفير من التابعين عن عدة سادة من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فمن ذلك ما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فدنا منه أعرابى فقال يا اعرابى أين تريد قال الى أهلى قال هل لك الى خير قال وما هو قال اشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله قال من يشهد لك على ما تقول قال هذه الشجرة السمرة وهى بشاطئ الوادى فادعها فانها تجيبك قال فدعوتها فأقبلت تخد الارض حتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاثا فشهدت أنه كما قال ثم

رجعت الى مكانها ومنه ماروى عن بريدة سأل اعرابى النبى صلى الله عليه وسلم آية فقال له قل لتلك الشجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك قال فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فتقطعت عروقها ثم جاءت تخد الارض تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت السلام عليك يارسول الله فقال الاعرابى مرها فلترجع الى منبتها فرجعت فدلت عروقها فى ذلك الموضع فاستوت فقال الأعرابى ائذن لى أن أسجد لك قال لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها قال فائذن لى أن أقبل يديك ورجليك فأذن له * وعن الحسن أنه عليه الصلاة والسلام شكا الى ربه من قومه وأنهم يخوفونه وسأله آية يعلم بها أن لامخافة عليه فأوحى الله اليه أن ائت وادى كذا فيه شجرة فادع غصنا منها يأتك ففعل فجاء يخط الارض خطا حتى انتصب بين يديه فحبسه ماشاء الله ثم قال ارجع كما جئت فرجع فقال يارب علمت أن لامخافة على اه وان أردت الاحاطة بالرواية فى هذا المعنى فانظر الشفاء غير أن جميعها لايتضمن السجود مع المجىء كما هو ظاهر كلام الناظم وحديث السجود وان ثبت ليس فيه سعى ومجىء وهو ماروى عن جابر بن عبد الله لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بحجر ولا شجر الا سجد له ومن ثم حملنا السجود فى النظم على معنى الخضوع ثم السجود الثابت بحديث جابر المراد به الانخفاض الى أن يمس الارض لاحقيقة السجود اذ لايكون الا من البشر ذى الجبهة وبهذا يظهر أن لامنع فى مثل هذا اذ المختص بالله هو الحقيقى لا الانخفاض على سبيل التواضع هذا وما ألطف قول الناظم على ساق بلا قدم اذ يوهم الساق ذات القدم وان السعى عليها دونه مستغرب

﴿ كأنما سطرت سطرا لما كتبت * فروعها من بديع الخط باللقم ﴾

التسطير التخطيط على الاستواء والكتابة حقيقتها معروفة وفرع الشجرة غصنها والبديع بمعنى المبدع على صيغة المفعول وأصله المفعول على غير مثال ثم توسع فيه وأريد منه الصنع الغريب المستحسن وهو المراد هنا واللقم بفتح اللام محجة الطريق ووسطه وغرض الناظم التنبيه على أن مجىء الشجر له صلى الله عليه وسلم كان على حال اعتدالها من دون ميل ولا انحراف وذلك من تمام غرابة المعجزة فان الشجر اذا انتزع منبته لعبت به الرياح وشبهه رحمه الله تعالى حال الشجر فى مجيئها على وجه الاستقامة بحالة الكتب المبدع فى سطور مستوية والجامع الحسن والجمال والدلالة على المعنى فان ذلك المجىء أفصح من الكتابة بل ومن اللفظ فى الدلالة على المراد منه واتبع ذلك التشبيه تشبيه فى بعض المفردات كتشبيه الفروع بالكاتب وشقها الارض بالكتابة وقد أخذ هذا التشبيه فى معناه من قول لبيد بن ربيعة

وجلا السيول على الطلول كأنها * زبر تجد متونها أقلامها

فانه شبه حالة جلاء السيول عن آثار الطلول واظهارها بتجديد الاقلام متون الكتب واتبع هذا تشبيه الطلول بالزبر والسيول بالأقلام والجلاء بتجديد الكتابة

﴿ مثل الغمامة أنى سار سائرة * تقيه حر وطيس للهجير حمى ﴾

مثل مرفوع على الخبرية لمبتدا محذوف أى شأن الاشجار فيما ذكر مثل الغمامة فى شأنها المحكى فى البيت والغمامة السحابة وأنى بمعنى أين وتقيه مضارع وقاه بمعنى حفظه والحر ضد البرد

وأصل الوطيس التنور يخبز فيه ثم تجوز به عن الشئ الشديد الحر ثم توسع فيه فتجوز به عن الشديد الحر المعنوى فيقال الحرب عند اشتدادها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى هوازن الآن حمى الوطيس والهجير نصف النهار وحمى اشتد ومعنى البيت أن شأن مجىء الاشجار لدعائه صلى الله عليه وسلم فى الكون كرامة ومعجزة له صلى الله عليه وسلم مثل وقاية الغمام له من حر الشمس تسير معه حيثما سار وأصله ماخرجه الترمذى عن أبى بكر بن أبى موسى عن أبيه قال خرج أبو طالب ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أشياخ من قريش فلما أشرفوا على راهب يقال له بحيرا وحلوا رحالهم خرج اليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج اليهم فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال هذا سيد العالمين هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين فقال له أشياخ قريش ما أعلمك بهذا فقال انكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر الا خر ساجدا ولا يسجدان الا لنبى وانى عرفته بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفيه مثل التفاحة ثم رجع وصنع لهم طعاما فلما أتاهم به وكان صلى الله عليه وسلم فى رعى الابل قال أرسلوا اليه فاقبل وعليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه الى فىء الشجرة فلما جلس مال فىء الشجرة عليه فبينما الراهب قائم يناشدهم أن لايذهبوا به الى الروم فان الروم اذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه فالتفت فاذا بسبعة من الروم قد أقبلوا فاستقبلهم الراهب فقال ماجاء بكم قالوا انبئنا أن هذا النبى خارج فى هذا الشهر فلم يبق طريق الا بعث مليكا اليه بأناس قال أفرأيتم أمرا يريد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده قالوا لا فبايعوه وزود الراهب النبى صلى الله عليه وسلم من الكعك والزيت

﴿ أقسمت بالقمر المنشق ان له * من قلبه نسبة مبرورة القسم ﴾

القسم بمعنى اليمين وأقسمت بمعنى حلفت واللفظ خبرى والمعنى على الانشاء أى أنشئ بهذا اللفظ قسما بما ذكر والقمر الكوكب المعروف المقتبس نوره من ضياء الشمس يسمى بذلك لثلاث ليال من اهلاله الى آخر الشهر والمنشق اسم فاعل من الانشقاق مطاوع شققه اذا صدعه وقسمه وجملة ان له الخ جواب القسم والنسبة أصلها القرابة النسبية أو هى فى الآباء خاصة ثم توسع فيها فأطلقت على المشاكلة ومطلق الارتباط وذلك المراد هنا ومبرورة على الحذف والايصال والاصل مبرور فيها من بر فى يمينه اذا صدق فيها وأمضاها والاسناد مجازى وحقيقته مبرور القسم عليها مثل عيشة راضية وهو كثير جدا وكم منه فى الكتاب المجيد واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا فلا تكلف فى العبارة كما ادعى شيخ الاسلام ومعنى البيت الحلف على أن للقمر بوصف انشقاقه انتسابا الى قلبه صلى الله عليه وسلم الذى شق لا ريب فيه والحالف عليه بار فى يمينه ووجه النسبة أن كلا من الشقين له سببية فى المراد من الرسالة والتبليغ وذلك أن المراد من الرسالة تبليغ الشرائع الى الامة وهدايتهم بقبولها والتزام العمل بمقتضاها وذلك يستدعى أمرين أحدهما من قبل المبلغ وهو استعداده لحمل أعباء الرسالة وقوة قلبه لقبولها وتمام أمانته فيما يبلغ وماذلك الا بصبغة الهية واستعداد نورانى وتجرد من الاوصاف النفسية الى الكمالات الروحانية وذلك بشق قلبه صلى الله عليه وسلم وغسله من الصفات البشرية وحشوه حكمة وايمانا كما سيأتى ان شاء الله تعالى ثانيهما

من قبل المبلغ اليه وهو أن يكون مقبلا على المبلغ بكلا كله يعى كل ما يسمع منه و يلتزمه وذلك انما يكون بتمام صدقه عنده فيما يدعى والمراد من المعجزات التى من أعظمها انشقاق القمر ذلك ولما كان الوجه الاوّل أعرق فى المراد من الرسالة وهو الاصل فيها كما لا يخفى جعل النسبة من القسم الى القلب دون العكس فافهمه لانه من المواهب الربانية هذا ومراد الناظم رحمه الله ذكر المعجزتين المشار اليهما احداهما انشقاق القمر وهى ثابتة بنص الكتاب المجيد قال الله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمرّ * روينا فى الشفاء من طرق عديدة أن القمر انشق على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا وفى بعض الطرق قال كفار قريش سحركم محمد فقال رجل منهم ان محمدا ان كان سحر القمر فانه لا يبلغ من سحره أن يسحر الارض كلها فاسألوا من يأتى من بلد آخر هل رأوا هذا فأتوا فسألوا فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك فقال الكفار هذا سحر مستمرّ وفى بعض الطرق أن أهل مكة سألوا النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر وفى بعضها كان ذلك والنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمنى وقيل بمكة ثانيتهما شق قلبه صلى الله عليه وسلم وهى مما تواترت الاخبار على وقوعها وأكثر الروايات على ثبوتها وهو صلى الله عليه وسلم فى بنى سعد فروى أبو يعلى وأبو نعيم وابن عساكر أنه صلى الله عليه وسلم قال كنت مسترضعا فى بنى سعد بن بكر فبينا أنا ذات يوم فى بطن واد مع أتراب لى من الصبيان فاذا أنا برهط ثلاث معهم طست من ذهب ملئ ثلجا فأخذونى من بين أصحابى وانطلق الصبيان هرابا مسرعين الى الحىّ فعمد أحدهم فأضجعنى على الارض اضجاعا لطيفا ثم شق ما بين مفرق صدرى الى منتهى عانتى وأنا أنظر اليه لم أجد لذلك بأسا ثم أخرج أحشاء بطنى ثم غسلها بذلك الثلج فأمعن غسلها ثم أعادها مكانها ثم قام الثانى فقال لصاحبه تنح ثم أدخل يده فى جوفى وأخرج قلبى وأنا أنظر اليه فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ثم أشار بيده يمنة ويسرة كأنه يتناول شيأ فاذا أنا بخاتم من نور يحار الناظر دونه فختم به على قلبى فامتلأ نورا وذلك نور النبوّة والحكمة ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم فى قلبى دهرا ثم قال الثالث لصاحبه تنح فمدّ يده بين مفرق صدرى الى منتهى عانتى فالتأم ذلك الشق باذن الله تعالى ثم أخذ بيدى وأنهضنى من مكانى انهاضا لطيفا وتكرّر ذلك وهو صلى الله عليه وسلم ابن عشر سنين روى عبد الله بن أحمد فى زوائد مسند أبيه قال أبو هريرة يا رسول الله ما أوّل ما ابتدئت به من أمر النبوّة قال انى لفى صحراء واسعة أمشى ابن عشر حجج اذا أنا برجلين فوق رأسى يقول أحدهما لصاحبه أهو هو قال نعم فأخذانى فأضجعانى لحلاوة القفا ثم شقا بطنى وكان أحدهما يختلف بالماء فى طست من ذهب والآخر يغسل جوفى فقال أحدهما لصاحبه افلق صدره فاذا صدرى فيما أرى مفلوقا لا أجد له وجعا ثم قال اشقق قلبه فشق قلبى فقال أخرج منه الغل والحسد فأخرج شبه العلقة فنبذ به ثم قال أدخل الرأفة والرحمة قلبه فأدخل شيأ كهيئة الفضة ثم أخرج ذرورا كان معه فذرّ عليه ثم نقر ابهامى ثم قال اغد فرجعت بما لم أغد به من رحمتى للصغير ورأفتى للكبير اه ولا يخفى ما فى هذه الرواية من معارضة الاولى وروى شق الصدر عند مجىء

قوله بحلاوة القفا فى القاموس ان حلاوة القفا وسطه وذكر له موازين أخر اه

جبريل بغار حراء كما روى أنه شق أيضا ليلة الاسراء قال ابن حجر فى شرح الهمزية تواترت بها الروايات خلافا لمن أنكرها اه * قلت وممن أنكرها عياض فى الشفاء فى حديث الاسراء فراجعه بقى أن الناظم رحمه الله تعالى أقسم بانشقاق القمر وهو مبنى على القول بجوازه مع الكراهة كما فى الرابع والعشرين والمائة من قواعد الشهاب القرافى ولا يجوز تخريجه على استعمال لفظ القسم فى توطئة الكلام كما خرّج عليه حديث أفلح وأبيه ان صدق وقول الشاعر فان تك ليلى استودعتنى أمانة * فلا وأبى أعدائها لا أخونها
لما أن فعل القسم والوصف بالبرّ آخر البيت ينافيه فتنبه له

﴿وما حوى الغار من خير ومن كرم * وكل طرف من الكفار عنه عمى﴾

عطف على القسم السابق وجواب هذا قوله ما سامنى الدهر البيتين وحوى الشئ جمعه وأحرزه والغار الكهف فى الجبل وأل فيه لمعهود القصة المشهورة كما سيأتى ان شاء الله وهو فى جبل ثور أسفل مكة والخير بالفتح ضدّ الشرّ وبالكسر الكرم والشرف والاصل والهيئة كذا فى القاموس والكرم عندى أنه هنا اسم بمعنى التكريم والتعظيم اذ لا يناسب المقام كونه بمعنى الجود وكرم النفس وان أمكن أن يكون له مسيس لكنه يتكرّر مع الخير ان كان بالكسر فالأنسب بالمقام والمعجزة هو ما ذكرناه والجملة بعده حالية والطرف العين لا يجمع لانه فى الاصل مصدر والكفار جمع كافر اسم فاعل من الكفر ضدّ الايمان ويجمع على كفرة وكفار وقد تقدّم تفسير العمى ومعنى البيت وأقسم بما حواه الغار من الشرف والتكريم الالهى والحال أن أعين الكفار عموا عنه فلم يدركوا النبىّ وصاحبه فيه وان كانوا بصراء وقد تقدّم أن القوة المدركة اذا لم يترتب عليها أثرها كانت والعدم سواء فلما لم يدرك الكفار ما فى الغار مع صحة أبصارهم كانوا كأنهم عمى عن ذلك هذا وقد قيل ان لفظة كل فى البيت مخفوضة عطفا على كلمة ما فتكون قسما تهكميا كقول الشاعر

فان تك ليلى استودعتنى أمانة * فلا وأبى أعدائها لا أخونها

﴿فالصدق فى الغار والصدّيق لم يرما * وهم يقولون ما بالغار من أرم﴾

تفريع على ما تقدّم أو استدلال على الحكم عليهم بالعمى وهو أظهر والصدق ضدّ الكذب والمراد به هنا النبىّ صلى الله عليه وسلم على حذف مضاف أى ذو الصدق أو هو من الوصف بالمصدر على طريقة المبالغة فى ملازمة الوصف لموصوفه كقولهم رجل عدل والصدّيق كسكيت الكثير الصدق ولقب أبى بكر شيخ الخلفاء كذا فى القاموس واسمه عبد الله سماه به النبىّ صلى الله عليه وسلم بعد اسلامه وكان اسمه فى الجاهلية عبد الكعبة وأبوه أبو قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة بن كعب بن لؤى بن غالب أوّل من أسلم من الرجال وأوّل من صلى مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قول طائفة سئل ابن عباس رضى الله عنهما اى الناس أسبق اسلاما فقال أما سمعت قول حسان رضى الله عنه

اذا تذكرت شجوا من أخى ثقة * فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها * بعد النبىّ وأوفاها بما حملا
والثانى التالى المحمود مشهده * وأوّل الناس قدما صدّق الرسلا

وكان يلقب عتيقا لعتاقة وجهه أى حسنه وقيل لقول النبى صلى الله عليه وسلم من سره أن ينظر الى عتيق من النار فلينظر الى هذا وفضائله رضى الله عنه مشحونة بها الدواوين وكفى قوله صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن اخوة الاسلام لا يبقين فى المسجد خوخة الا خوخة أبى بكر ﴿لطيفة﴾ حدثنى من أثق بحديثه عن العالم الجليل أبى الفداء الشيخ اسمعيل التميمى عن عالم الديار التونسية أبى الفلاح الشيخ صالح الكواش أنه كان يكثر زيارة ضريح الولى الشهير أبى محفوظ سيدى محرز بن خلف الصديقى المتصل نسبه بأبى بكر الصديق رضى الله عنه ويعلل ذلك بأنه لما كان صديقى النسب كان طريقا دوما لان النبى صلى الله عليه وسلم أمر بسد جميع كوى المسجد الا كوة أبى بكر ابقاء نسوبا لطيفا الى أن طريقه غير منقطع اه وهو منزع لطيف واستنباط عجيب وقول الناظم لم ترما بمعنى لم يبرحا يقال لا أريم من مكانى بمعنى لا أبرح وجمله وهم يقولون الخ حالية وأرم بفتح الهمزة وكسر الراء بمعنى أحد ويقال فيه أريم بالياء قال أبو زيد ما بالدار أريم وما بها أرم اى ما بها أحد قال الشاعر

دار لاسماء بالغمران ماثلة * كالوحى ليس بها من أهلها أرم

وهو من الالفاظ التى لا تستعمل الا فى النفى ومعنى البيت أن النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضى الله عنه لم يبرحا بالغار ولم يزالا مقيمين به والحال أن الكفار حكموا بأنه ليس به أحد وذلك بعد التثبت والتأمل وقرب المسافة لما روى أن أبا بكر رضى الله عنه قال يا رسول الله لو أن أحدهم نظر الى قدميه لابصرنا فما ذاك الا لعمى أبصارهم عنهما بالمعنى الذى قدمناه فتم الاستدلال على الوجه المبين واقتبس الناظم بيته من قوله جل اسمه والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون فقد ذهب قوم الى أن المراد بالذى صدق به هو أبو بكر رضى الله عنه ووجهه أنه سبق بالتصديق غيره كما تقدم

﴿ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على * خير البرية لم تنسج ولم تحم﴾

ضميره للكفار والظن الاخذ بالطرف الراجح من الحكمين عند عدم جزم الذهن بأحدهما والمرجوح الوهم والحمام بفتح الحاء كسحاب طائر برى لا يألف البيوت أو كل ذى طوق كذا فى القاموس ومراد الناظم الاول لخصوصية الواقعة والعنكبوت اسم للناسجة المعروفة والبرية الخلق من برأ الله الخلق فيكون مهموزى اللام قلبت همزته ياء وأدغمت فى الياء أو من البرى وهو التراب فيكون يائى اللام والنسج معروف والحوم الدوران يقال حام الطائر حول الشئ يحوم حوما وحومانا دار ومعنى البيت ان الكفار لما رأوا العنكبوت ناسجة على فم الغار والحمام واقف هناك حكموا بأنه ليس به أحد لظنهم أنه لا يمكن ذلك النسج ولا أن يتخذ الحمام وكرا بعد دخولهم وكونهما سابقين الدخول بين المنع وذلك بحكم العادة وعدم الالتفات الى تكريم الله تعالى وخرقه العوائد وقوله لم تنسج الخ نشر على عكس اللف اذ الاخير ثانى مفعولى الظن الاول والاول ثانى مفعولى الظن الثانى وليست جملة الظن الثانية بمفعوليها معترضة بين الاولى ومفعولها الثانى كما قال شيخ الاسلام لان العطف يمنع ذلك فافهمه ﴿فائدة﴾ فى الروض الأنف للسهيلى فى مسند البزار ان حمام الحرم من نسل

حمام الغار هذا ومن اللطيف مما قيل فى العنكبوت ما فى شرح الشهاب على الشفاء من قول ابن النقيب

ودود القز ان نسجت حريرا * يجمل لبسه فى كل زى
فان العنكبوت أجل منها * بما نسجت على رأس النبى

وألطف منه قول الشهاب

على غار ثور عنكبوت بنسجه * لقد حاز فخرا فاق كل فخار
لذلك دود القز يهلك نفسه * وقد غار من نسج له بفم الغار

﴿وقاية الله أغنت عن مضاعفة * من الدروع وعن عال من الأطم﴾

جملة مستأنفة بين بها السبب الفرد فى حمايته صلى الله عليه وسلم فى هذه القصة وهى وقاية الله وحمايته والوقاية الحفظ أغنت بمعنى أجزأت والمضاعفة من الدروع هى التى تنسج حلقتين حلقتين والعالى المرتفع والأطم بضم الهمزة والطاء القصر وكل حصن مبنى بالحجارة وكل بيت مربع مسطح الجمع آطام كذا فى القاموس ومعنى البيت ان وقاية الله وحفظه اذا صادفا الانسان أغنياه عن التحصن بالدروع الحصينة وهى المضاعفة والحصون العالية الشامخة وتانك حالتا التحصن لانه اما فى مدافعة وحصنه فى العادة الدروع وغايتها المضاعفة واما فى ممانعة واختفاء وذلك بسكنى الحصون المانعة وغايتها العالية ومن ثم كانت الجبال العالية من أهم مطامح أنظار العرب اذ لا حصن لهم الا الجبال ألا ترى قول السموأل ممثلا

لنا جبل يحتله من نجيره * بعيد يرد الطرف وهو كليل

واذا تدبرت قوله تعالى أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت تيقنت ما ذكرناه والنبى صلى الله عليه وسلم حين كان فى الغار ليس له شئ من التحصن المعتاد بل كان فى حالة هى أقرب الى الظفر به فى مجارى العادات لكن وقاية الله التى هى عمدة المؤمنين خصوصا أكملهم ايمانا ويقينا كفته أعداءه وأغنته عن التحصن المعتاد فان قلت الحفظ فى الحقيقة على العقيدة الاسلامية ليس الا من الله تعالى على كل حال قلنا هو كذلك لكن ظهور ذلك كل الظهور وخلوص اطمئنان النفس بالحقيقة انما يكون عند انتفاء الاسباب العادية بالكلية وما أشبه حالته صلى الله عليه وسلم فى الغار بحالة يونس عليه السلام اذ كان فى ظلمات ثلاث منقطعا عن أسباب النجاة العادية فنجاه الله بمحض عنايته والقصة التى أشار اليها الناظم رحمه الله هى المذكورة فى الكتاب المجيد بقوله عز اسمه الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه الآية وتفصيلها ما فى حديث عائشة رضى الله عنها وهو مخرج فى الصحاح قالت كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار اما بكرة واما عشية حتى اذا كان اليوم الذى أذن الله سبحانه فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة والخروج من مكة أتانا بالهاجرة فى ساعة لا يأتى فيها قالت فلما رآه أبو بكر قال ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة الا لأمر حدث فلما دخل تأخر أبو بكر له عن سريره فجلس عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عند أبى بكر الا أنا وأختى أسماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج عنى من

عندك فقال يانبي الله انما هما ابنتاي وماذاك فداك أبي وأمي فقال ان الله قد أذن في الخروج والهجرة فقال أبو بكر الصحبة يارسول الله فقال الصحبة قالت فوالله ماشعرت قط قبل ذلك أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت أبابكر يبكي يومئذ ثم قال يانبي الله ان هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا وكان أبو بكر رجلا ذا مال فكان حين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة قال له لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا فطمع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم انما يعني نفسه فابتاع راحلتين فحبسهما في داره يعلفهما ورق السمر اعدادا لذلك اليوم واستأجر عبد الله بن الاريقط يدلهما على الطريق ودفع اليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج أتى أبابكر فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ليلا الى الغار فدخل أبو بكر قبله يلتمس الغار أفيه سبع أوحية يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ولما فقدت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها وبعثوا القافة اثره في كل وجه فوجد القائف قبل ثور أثره فلم يزل يتبعه حتى انقطع لما انتهى الى ثور وشق على قريش خروجه وجزعوا لذلك ولما كانت ليلة بات النبي صلى الله عليه وسلم بالغار أمر الله سبحانه شجرة فنبتت في وجه الغار وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا على فم الغار وأتى المشركون من كل بطن حتى اذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم على قدر أربعين ذراعا معهم قسيهم وعصيهم تقدم منهم رجل فنظر فرأى حمامتين على فم الغار فقال لاصحابه ليس في الغار شئ رأيت حمامتين على فم الغار وقال آخر ادخلوا الغار فقال أمية بن خلف وما أربكم الى الغار ان فيه لعنكبوتا أقدم من ميلاد محمد وعن أنس أن أبابكر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن أحدا نظر الى قدمه لرآنا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ماظنك باثنين الله ثالثهما واختلف في مكث النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر في الغار فروى عن مجاهد ثلاثا وهو الصحيح قاله أبو عمرو بن عبد الله اه بنقل شيخ الاسلام وفي الروض الانف أن الشجرة التي أنبت الله على الغار يقال لها الراءة وأنها تكون مثل قامة الانسان ولها خيطان وزهر أبيض يحشى منه المخاد فتكون كالريش لخفته ولينه لانه كالقطن قال الشاعر

ترى ودك السديف على لحاهم * كمثل الراء لبده الصقيع

﴿نكتتان﴾ الاولى قال السهيلي انتبه أيها العبد المأمور بتدبر كتاب الله لقوله اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا كان معهما بالمعنى وباللفظ أما بالمعنى فكان معهما بالنصر والارفاد والهداية والارشاد وأما باللفظ فان اسم الله تعالى كان يذكر اذا ذكر رسوله واذا دعى فقيل يارسول الله أو فعل رسول الله ثم كان لصاحبه كذلك يقال ياخليفة رسول الله وفعل خليفة رسول الله فكان يذكر مع ذكرهما بالرسالة وبالخلافة ثم ارتفع ذلك ولم يكن ذلك لاحد من الخلفاء ولا يكون اه ﴿الثانية﴾ ورد في غزوة بدر اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء اجتهادا كليا وان أبابكر قال له بعض مناشدتك ربك فان الله منجز لك ماوعدك ووجه ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يومئذ في مقام الخوف وأبابكر كان في مقام الرجاء هكذا في الروض الانف عن شيخه فيقال ماوجه انعكاس الأمر في قصة الغار وجوابه أنه صلى الله

عليه وسلم في واقعة بدر هو أيقن من غيره بصادق وعده تعالى غير أنها حالة ملابسة أسباب عادية هي المدافعة بالقوة والسلاح والكامل في المعرفة أخوف مايكون في مقام التلبس بالاسباب وآمن مايكون اذا انقطعت عنه وهو صلى الله عليه وسلم في الغار تجرد عن سائر الأسباب العادية فكان حينئذ أعلق بالرجاء وهكذا شأن العارفين ولله در العالم الصالح الشيخ احمد بن طوير الجنة الوافد على تونس في عشرة الخمسين بعد المائتين اذ يقول ان لله عبادا آنس ما كانوا اذا استوحشوا وأوحش ما كانوا اذا أنسوا السحر السحر اه يشير الى خصوصية قيام السحر وان العبد فيه آنس بالحقيقة للاستيحاش من الخلق فاعرف ذلك والله أعلم

﴿ماسامني الدهر ضيما واستجرت به * الا ونلت جوارا منه لم يضم﴾

جواب القسم الثاني المعطوف وسامني كلفني وأولاني قال في القاموس وأكثر مايستعمل في العذاب والشر وثاني مفعوليه ضيما ومعناه الظلم والدهر الزمن الطويل واستجار طلب أن يجار أي ينقذ ويعان ومنه الجوار بالكسر وهو أن يعطي الرجل غيره ذمته يكون بها جاره فيجيره ولحوم المعنى على الحماية عداه الناظم بالباء والمعنى أنه أخبر عن نفسه ماسه الزمان بسوء أي أصابه فيه بسوء واحتمى بالنبي صلى الله عليه وسلم احتماء خاصا الا وتخلص من ذلك السوء الدهري وكان في ذمته التي لا ترام وقليل ذلك في حق من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم وبما قررنا علم أن النسبة الى الدهر مجازية من باب النسبة الى الظروف وهي شائعة وناسب الناظم رحمه الله تعالى بين القسم والمقسم به معنى اذ كانت حالة القسم ذمة وجوارا لأبي بكر به صلى الله عليه وسلم

﴿ولا التمست غنى الدارين من يده * الا استلمت الندى من خير مستلم﴾

الالتماس الطلب والغنى بكسر الغين والقصر ضد الفقر والداران الدنيا والآخرة والاستلام اللمس باليد أو الفم ويتجوز به عن تناول المعروف كما فعل الناظم اذ علقه بالندى وهو الجود ومستلم على الحذف والايصال أي خير مستلم منه ومعنى البيت واضح قال شيخ الاسلام فان قلت اخباره عن نيل ما التمس من النبي صلى الله عليه وسلم من غنى الدنيا بين مشاهد فكيف يصح اخباره عن نيل غنى الآخرة قلت ذلك مشاهد بقوة يقين الايمان بمنزلته صلى الله عليه وسلم عند ربه اه

﴿لا تنكر الوحي من رؤياه ان له * قلبا اذا نامت العينان لم ينم﴾

لا ناهية والخطاب لكل صالح له والمراد بالنهي تحقيق الأمر وتثبيته فلا يلزم أن يكون خطابا مع المنكر والوحي لغة الاشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والالهام والكلام الخفي وكل ماألقيته الى غيرك وأوحى اليه بعثه وألهمه كذا في القاموس وفي عرف الشرع اسماع كلام الله بواسطة الملك أو دونه والرؤيا مايراه النائم في النوم قال القاضي في التفسير وهي انطباع الصورة المنحدرة من افق المخيلة الى الحس المشترك والصادقة منها انما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الحاصلة هناك ثم ان المخيلة

يحاكيه بصورة تناسبه فترسلها الى الحس المشترك فتصير مشاهدة ثم ان كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت الا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير والا احتاجت اليه اه والنوم معروف وسببه فى غالب العادات امتلاء الدماغ بأبخرة رطبة تتصاعد اليه من المعدة عند امتلائها بالطعام فتضعف الأعصاب وترتخى فتبطل حركات الحواس الباطنة المدركة وتعطل أشعة نور القلب الذى هو مناط التعقل فلا يكون للنائم شعور بشئ ومن ثم قيل ان النوم موت أصغر وبما بينا يظهر ما فى نفى النوم عن القلب من التجوز للعلاقة التى أشرنا اليها ومعنى البيت ان الوحى من رؤياه صلى الله عليه وسلم أمر ثابت لا مساغ لانكاره ولا استبعاد فيه بناء على المعتاد من تعطيل أصل المدركات الذى هو القلب بالنوم فان نومه صلى الله عليه وسلم لا يعدو عينه ولا يعطل ادراك قلبه النورانى بل قلبه فى نومه كهو فى يقظته وأصله قوله صلى الله عليه وسلم كما فى الشفاء ان عينى تنامان ولا ينام قلبى قال الشهاب فى شرح الشفاء ولذا كانت رؤياه صلى الله عليه وسلم قسما من الوحى لاتصاله بعالم الملكوت فى نومه وكذا سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ومن ثم كان نومه صلى الله عليه وسلم لا يبطل وضوءه ثم لا يخفى أن مقتضى ذلك أن يكون المراد من مرائيه صلى الله عليه وسلم ما كان على ظاهره دون تعبير وتأويل كرؤياه صلى الله عليه وسلم أنه وأصحابه دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا كما قص ذلك فى الكتاب المجيد أما ما يؤول من مرائيه الصادقة كرؤياه بقرا تذبح فكانت القتلى يوم أحد فليس من الوحى وانما هى رؤيا صادقة وقال شيخ الاسلام الجميع وحى ويشهد له أصل هذا المعنى وهو حديث عائشة رضى الله عنها قالت أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة من النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ الى آخر الحديث الصحيح المعروف فى بدء الوحى المذكور أول صحيح البخارى وبيان الشهادة أن المتبادر من قولها الا جاءت مثل فلق الصبح ان ذلك بتعبيرها ووضوح تأويلها فهو مثل مضروب لشدة وضوح تأويل الكلام المخرج على خلاف ظاهره ولا يعهد مثله مثلا لصدق الاخبار البين بمطابقته الواقع ويؤيد ما ذكرنا سوق البخارى الحديث فى كتاب التعبير فافهمه

﴿فذ الآن حين بلوغ من نبوته * فليس ينكر فيه حال محتلم﴾

الفاء للتعليل بما لها من السببية بين سابقها ولاحقها والثانى هنا السبب والاول المسبب والاشارة الى مسبق من كون الوحى من رؤياه صلى الله عليه وسلم والبلوغ الوصول وقد تقدم معنى النبوة والفاء للتفريع وحال الانسان صفته وهيئته ومحتلم بكسر اللام اسم فاعل من احتلم بمعنى رأى فى النوم غير أنه اختصت الرؤيا بالخير والبشارة والحلم بضدهما ومن ثم ورد فى الحديث الصحيح الرؤيا من الله والحلم من الشيطان أى من تخييلاته وتشويشه ومن ثم ورد الامر بالاستعاذة عقبها والنفث عن اليمين والشمال والتحول الى الجنب الآخر كما جاء فى الحديث وكان لا اعتبار بها فى التعبير كما حكاه الله تعالى فى سورة يوسف عليه

السلام قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين ومعنى البيت أن ثبوت الوحى من رؤياه صلى الله عليه وسلم كان عند ابتداء نبوته صلى الله عليه وسلم وابان ظهورها فليس هناك حال محتلم استهوته التخيلات الشيطانية حتى يكون محلا للانكار فمضمون البيت استدلال وتعليل لمضمون ما قبله من الحكم فى البيت السابق ارتكابا للبرهان اللمى بعد البرهان الانى على أبلغ وجه وأنظمه فان المراد من الاول تأكيد ما يتولد للسامع من الحكم السابق فانه اذا سمع الحكم بتحقيق الوحى من الرؤيا جال فى خلده هل القلب مستيقظ حال النوم حتى يمكن ذلك فاجابه جواب السائل بقوله ان له الخ ليزول عنه ذلك التحيير فليس المقام حينئذ لتعليل الحكم وكم فى الكتاب المجيد من هذا النوع قال تعالى وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم وعليه قول بشار

بكرا صاحبى قبل الهجير * ان ذاك النجاح فى التبكير

فى المفتاح لابى يعقوب السكاكى روى أن بشارا لما أنشد البيت قال له خلف الأحمر بحضر أبى عمرو بن العلاء لو قلت يا أبا معاذ مكان ان ذاك النجاح بكرا فالنجاح فى التبكير كان أحسن فقال بشار انما قلتها أعرابية وحشية فقلت ان ذاك الخ كما تقول الاعراب البدويون ولو قلت بكرا فالنجاح كان من كلام المولدين ولا يشبه ذلك الكلام فقام خلف وقبله انتهى ثم ان الناظم لما رفع عن السامع الحيرة بالتوكيد وتقرر عنده الحكم عضده بالاستدلال اللمى بالبيت الثانى هذا وأصل كلام الناظم ما أشرنا اليه من حديث عائشة رضى الله عنها قال القاضى عياض فى الاكمال فى شرح ذلك الحديث فيه حكمة من الله وتدريج لنبيه صلى الله عليه وسلم لما أراد الله جل اسمه به لئلا يفجأه الملك ويأتيه صريح النبوة بغتة فلا تحملها القوى البشرية فبدأ أمره بأول خصال النبوة وتباشير الكرامة من صدق الرؤيا وما جاء فى الحديث الآخر من رؤية الضوء وسماع الصوت وسلام الحجر والشجر عليه بالنبوة حتى استشعر عظيم ما يراد به واستعد لما ينتظره فلم يأته الملك الا لأمر عنده مقدماته وبشاراته وفيه أن الرؤيا الصادقة احدى خصال النبوة وجزء منها وأول منازل الوحى وان رؤيا الانبياء عليهم السلام وحى وحق صدق لا أضغاث فيها ولا تخييل ولا سبيل للشيطان اليها وقال أبو عبد الله القزاز قوله من الوحى من لبيان الجنس وليست الرؤيا من الوحى فتكون للتبعيض ولذا قال فى النوم ثم هى كالوحى فى الصحة قال القاضى وقد جاء فى الحديث أنها جزء من أجزاء النبوة وقد قدمنا انها من جملة خصالها والوحى أنواع وضروب فلا يبعد أن تكون من للتبعيض انتهى قلت فى الفرق بين كونها للجنس وكونها للتبعيض بافادة الثانى كونها وحيا دون الاول توقف يعلم من معنى من التى لبيان الجنس وكأن القزاز يفهم انها لبيان الجنس المنطقى ولا يخفى عدم صحته عند من مارس العربية على أنه لا معنى للتبعيض فى الحديث بل يتعين البيان لا بهام ما ومحل الاستشهاد بالحديث على أن الرؤيا من الوحى الحمل القاضى بالاتحاد كما هو بين وقال الفاضل الأبى مرجحا طريقة القزاز النبى من خص من البشر بالوحى اليه والرسول من أمر بتبليغ ما أوحى اليه ويصح ارسال من تقدمت نبوته وارسال من لم تتقدم فيثبتان له معا مزية والاظهر فيه صلى الله عليه وسلم وفى موسى عليه السلام

انهما من هذا القسم فرؤياه من حيث انها تقدمت ارساله ليست وحيا كما قاله القزاز وانما الرؤيا التي هي وحي ما كان بعد النبوة انتهى وفيه أنه تقدم في هذا الشرح عند قول الناظم نبينا الآمر الخ عن الشهاب القرافي ما اقتضى عدم اختصاص الوحي بالنبوة أو الرسالة وان المختص هو الوحي بالشرع وحينئذ لا يتم تقريره فتدبره والله أعلم

﴿تبارك الله ما وحي بمكتسب * ولا نبي على غيب بمتهم﴾

تبارك تنزه وتعالى والمكتسب الحاصل بالكسب والطلب يقال كسب واكتسب أي حصل وقيل كسب للتحصيل واكتسب للاجتهاد في التحصيل على قاعدة الافتعال من دلالته على التكلف في تحصيل الفعل والغيب يطلق على ما غاب عنك والمتهم المستراب والمعنى تنزه الله تعالى عن أن يكون في الوجود وحي مكتسب بالانسان باجتهاده وأن يكون نبي من الانبياء عليهم الصلاة والسلام في اخباره عن الغيب متهما والمقصود بذلك تحقيق ما أخبر به أولا فان توهم نفي الوحي من الرؤيا انما يناسب الاكتساب في تحصيله حيث كانت حالة النائم غير حالة كسب وطلب فلا يتم لمكتسب شيء أن يدعي حصوله في تلك الحالة أما اذا كان مجرد تكريم من الله تعالى لمن خصه بذلك من عباده على طريق خرق العادة فلا تختلف فيه حالتا النوم واليقظة فعلى هذا لا يتأتى انكار ذلك من حيث جوازه وقد أخبر به من ثبتت نبوته وصدقه واستحال في حقه الاخبار بخلاف الواقع فلا يتأتى انكار وقوعه بل انكاره ملزوم لاتهام من ثبت صدقه وذلك باطل فلازمه مثله وقد اقتبس الناظم عجز البيت من قوله تعالى وما هو على الغيب بظنين وأشار بصدر البيت الى مذهب من زاغ في النبوة وقال باكتسابها وتفصيله ورده في كتب الكلام

﴿كم أبرأت وصبا باللمس راحته * وأطلقت أربا من ربقة اللمم﴾

كم اسم مبهم يراد به في مقام الاخبار التكثير يحتاج الى تمييز يرفع ابهامه تقديره في البيت كم مرة وأبرأت من برأ المريض اذا شفي من مرضه والوصب بكسر الصاد من الوصب بفتحها وهو المرض واللمس المس باليد والراحة الكف والأرب بضم الهمزة وفتح الراء أصله صغار البهم أريد به هنا الصبيان على سبيل الاستعارة والربقة عروة في حبل ذي عرى يسمى الربق يشد به البهم واللمم الجنون والمعنى كثيرا ما أبرأت وشفت راحته الكريمة بمجرد لمسه المرضى وأطلقت الصبيان المصابين بمس الجان من أدنى ذلك المس وذلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم فمن النوع الأول رده صلى الله عليه وسلم عين قتادة حين أصيبت يوم أحد حتى وقعت على وجنته فصارت أحسن عينيه ومنه رده يد معوذ بن عفراء حين قطعها أبو جهل يوم بدر فجاء يحملها الى النبي صلى الله عليه وسلم فبصق عليها وألصقها فلصقت ومنه أن خبيب ابن يسار أصيب بضربة يوم بدر على عاتقه حتى مال شقه فرده صلى الله عليه وسلم ونفث عليه حتى صح ومن الثاني ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة جاءت بابن لها به جنون فمسح صدره فثع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفي ومثل ذلك كثير حوته كتب السير وغيرها

﴿وأحيت السنة الشهباء دعوته * حتى حكت غرة في الأعصر الدهم﴾

أحياه جعله حيا والحياة تطلق على الخصب والمطر كما في القاموس وهو من المجاز اذ الحياة حقيقة صفة تقتضي الحس والحركة الارادية وتفتقر الى البدن والروح تجوز بها عن اظهار بهجة الزمان وتهييج القوى النامية من النبات فيه وهو مجاز شائع ومنه في الكتاب المجيد كثير والسنة العام لكنه شمسي ولفظ العام قمري وغلب استعمال لفظ السنة في سنة القحط حتى صار علما بالغلبة عليها قال تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات قال القاضي بالسنين بالجدوب لقلة الامطار والمياه والسنة غلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر ويؤرخ به ثم اشتق منه فقيل أسنت القوم اذا قحطوا اه وانظر بلاغة المعجز في قصة يوسف عليه السلام قال تزرعون سبع سنين دأبا الى قوله ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون حيث توخى النظم الكريم للسنة الخصبة لفظ العام وبهذا يعرف رتبة الناظم في ايقاع الالفاظ مواقعها باختيار لفظ السنة ايماء الى كونها مجدبة ووصفها بالشهباء تأكيدا لذلك وفي القاموس الشهب محركة بياض يصدعه سواد كالشهبة بالضم الى أن قال وسنة شهباء لا خضرة فيها ولا مطر اه والدعوة المرة الواحدة من الدعاء وحكت شابهت والغرة من القوم شريفهم وغرة كل شيء أفضله وغرة الفرس بياض في جبهته فوق الدرهم وهي من صفات حسنة والأعصر جمع عصر بفتح العين وسكون الصاد وقد تضم عينه مع اسكان الصاد وضمها والدهم جمع أدهم وهو الاسود والمراد به هنا العام المخصب ذو الخضرة مقابل المراد بالشهباء ومعنى البيت ان من معجزاته صلى الله عليه وسلم وكرامته على ربه نزول المطر وتزخرف الارض بدعوته صلى الله عليه وسلم حين أصابت الناس السنة الشهباء فاحيا شبابها حتى كانت أخصب الاعوام وصارت لشهرة خصبها بالنسبة الى غيرها من السنين المخصبة كالغرة البينة الظهور في الفرس الأدهم والاشارة بهذا الى ما رواه البخاري وغيره من حديث أنس رضي الله عنه قال أصابت الناس سنة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر يوم الجمعة قام اعرابي فقال يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا أن يسقينا فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وما في السماء قزعة فثار سحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره صلى الله عليه وسلم حتى رأيت المطر يتحادر عن لحيته قال فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد والذي يليه الى الجمعة الاخرى فقام ذلك الاعرابي أو رجل غيره فقال يا رسول الله تهدم البناء وغرق المال فادع الله لنا فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فقال اللهم حوالينا ولا علينا قال فما جعل يشير بيده الى ناحية من السماء الا تفرجت قال وسال وادي قناة شهرا وما جاء أحد من ناحية الا حدث بالجود اه والجود بفتح الجيم المطر الواسع الغزير وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال بعد اجابة دعوته في الغيث لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسره فقال بعض أصحابه كأنك يا رسول الله أردت قوله وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للارامل فقال أجل ولا يخفى على عارف بأساليب الكلام أن اشارة الناظم لا تحتمل غير القضية المذكورة والواقعة المخصوصة خصوصا مع ضميمة الابيات الآتية بعد على ما اشتهر بين الناس ولا يحتمل النظم الاشارة الى عموم اجابة استسقائه صلى الله عليه وسلم وان كان كثيرا

مشهورا وقد عهدت بركته فى ذلك قبل النبوة بل فى حال صغره روى أن أهل مكة تتابعت عليهم سنو جدب فاستسقى بهم سيدى عبد المطلب فقام فاعتضد النبى صلى الله عليه وسلم فرفعه على عاتقه وهو يومئذ غلام قد أيفع ثم قال اللهم ساد الخلة وكاشف الكربة أنت عالم غير معلم ومسؤل غير مبخل وهذه عبادك واماؤك بعذرات حرمك يشكون اليك سنتهم فاسمعن اللهم وأمطر علينا غيثا مريعا مغدقا فما راموا حتى انفجرت السماء بمائها وفى ذلك قال أبو طالب البيت السابق وبما بيناه يتعين مانقله شيخ الاسلام عن بعضهم وارتضاه من أن قوله وأحييت معطوف على كم ولا يصح عطفه على أبرأت لان احياء السنة بدعوته لم يتفق الامرة واحدة اه يريد السنة المعينة كما أوضحناه والله أعلم

﴿بعارض جاد أو خلت البطاح بها * سيب من اليم أو سيل من العرم﴾

الباء سببية تتعلق بأحييت والعارض السحاب المعترض فى الافق وجاد بمعنى كثر مطره ومنه ماتقدم فى الحديث السابق وأو للغاية بمعنى الى كما فى قوله

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى * فما انقادت الآمال الا لصابر

وخلت بمعنى ظننت ومضارعه فى الافصح مكسور حرف المضارعة والبطاح جمع الابطح على غير قياس والقياس الاباطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى ويقال فيه البطيحة والبطحاء والسيب بالكسر مجرى الماء وبالفتح مصدر ساب الماء اذا جرى وهو المراد هنا واليم البحر والسيل الماء الكثير السائل والعرم المطر الشديد والمعنى أن احياء السنة كان بسحابة اعترضت فى الافق بعد أن لم يكن بالسماء سحاب وكان مطرها غزيرا الا كما يفهم من وصف الاعتراض حتى يظن الرائى البطاح التى ليس من شأنها امساك المياه لاتساعها وتسطحها قطعة من بحر أو جعفرا من واد لكثرة ما استقر بها من الماء

﴿لما شكت وقعه البطحاء قال له * على الربا والهضاب انهل وانسجم﴾

هذا البيت والثمانية أبيات بعده قال شيخ الاسلام تقع فى بعض نسخ النظم وليست بثابتة فى روايتنا وذكر بعض الثقات من أصحابنا ان الذى زادها الفاضل أبو على بن الحباب الاندلسى الغرناطى من مشايخ القاضى الشهير أبى العباس الشريف الحسنى شارح مقصورة حازم وسمعت أنها لبعض الفاسيين ولولا اشتهارها ماتصدينا لشرحها اه قلت والمعروف عندنا بتونس أنها من القصيدة ونظمها لم يباين النظم بوجه مع أن فيها تمام القصة التى أشار اليها الناظم وذلك صنيعه فى الهمزية اذ قال

ودعا للانام اذ دهمتهم * سنة من محولها شهباء
فاستهلت بالغيث سبعة أيا * م عليهم سحابة وطفاء
تتحرى مواضع الرعى والسـ * ـقى وحيث العطاش توكا السقاء
فأتى الناس يشتكون أذاها * ورخاء يؤذى الانام غلاء
فدعا فانجلى الغمام فقل فى * وصف غيث اقلاعه استسقاء
ثم أثرى الثرى فقرت عيون * بقراها وأحييت أحياء

قوله والبطاح جمع الابطح الخ كأنه رحمه الله أخذ هذا من ظاهر عبارة القاموس والذى صرح به غير واحد كما فى الصحاح عن الاصمعى والمحكم أن البطاح والبطحاوات جمع لبطحاء والاباطح جمع أبطح والبطائح جمع بطيحة اه من تاج العروس

فترى الارض غبه كسماء * أشرقت من نجومها الظلماء
تخجل الدر واليواقيت من نو * ر رباها البيضاء والحمراء

ولا يخفى أن الأبيات المدعى زيادتها فى النظم تحوم حول هذا المعنى فالاقرب ماهو مشهور والله أعلم والوقع النزول والسقوط وتقدم معنى البطحاء ونسبة الشكاية اليها مجازية اذ الشاكى أهلها كما تقدم أو أن الشكاية مجاز عن ظهور الحال السيئة وفاعل قال ضمير المصطفى صلى الله عليه وسلم وعبر بالقول له الذى حقيقته خطابه بالأمر عن الدعاء بتحويله مجازا ايماء الى سرعة الاجابة وقوة سببية الدعاء حتى كأنه هو الآمر للسحاب بالانجلاء والربا جمع ربوة وهو ما ارتفع من الارض والهضاب جمع هضبة وهو الجبل المنبسط على الارض وانهل من الانهلال يقال انهل المطر اذا سال بشدة وقريب منه الانسجام وقد تقدم وتقديم الظرف أعنى على الربا للحصر على الفعلين للقصر أى لا على المدن والبطاح والمعنى حين كثر وقع المطر على البطاح وخشى أهلها من الهدم فشكوا اليه صلى الله عليه وسلم ذلك وطلبوا منه الدعاء بامساكها عنهم والطالب وان كان واحدا لكنه مراد الجمع فدعا الله تعالى بالدعاء السابق فى الحديث الذى سقناه سابقا وفى رواية لمسلم وهى أعلق بلفظ النظم أنه صلى الله عليه وسلم قال اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام والهضاب وبطون الاودية ومنابت الشجر قال الراوى فأقلعت وخرجنا نمشى فى الشمس اه وبهذا يعلم أن فى النظم حذفا تقديره فانجلى كما تقدم عنه فى الهمزية حذفه ايماء الى لزوم وقوعه لاجابة دعائه حتى كأنه معلوم أما قوله

﴿فأدت الارض من رزق أمانتها * باذن خالقها للناس والنعم﴾

فليس فرع الدعاء بالانجلاء كما لا يخفى وانما هو مفرع عن الدعاء الاول الذى هو سبب الاحياء وأدت بمعنى ردت يقال أدى الامانة ردها الى مالكها والارض اسم جنس مؤنث وقياس واحده أرضة الا أنه لم يرد والجمع أرضات وشذ فى جمعه الأراضى والرزق ماينتفع به مطلقا وخصه المعتزلة بالحلال والامانة الوديعة والاذن قال شيخ الاسلام يفسر بالامر وقال ابن عطية فى تفسيره هو التمكين من الشئ مع العلم بما مكن منه والنعم اسم جنس جمعى قيل الابل والبقر والغنم وقيل الابل فقط وقيل الابل والشاء قال الفراء يذكر ولا يؤنث وقال السهيلى فى الروض الانف النعم الابل فاذا قيل الانعام دخل فيها البقر والغنم والشاء والمعنى أنه بسبب الاحياء أخرجت الارض مافى قواها الطبيعية من أنواع النباتات على كثرة أصنافها وتباين صفاتها الذى به انتفاع الناس فى أنفسهم ونعمهم وهو أهم شئ عندهم فى الغيث وقوله باذن خالقها احتراس لطيف من توهم السببية الحقيقية وايماء الى أن الغيث سبب عادى للنبات فقط وأن السبب الحقيقى هو أمر الله تعالى وفق ارادته ولما كان ماتخرجه الارض بملاقاة نزول المطر كامنا فى قواها الباطنة وسبقت الارادة بأن ذلك لنفع الناس والانعام كما شهد بذلك الكتاب المجيد قال تعالى والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولانعامكم وقال جل اسمه أنا صببنا الماء صبا

ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم حسن كل الحسن استعارة الناظم الأمانة له ووقع ترشيحها بالاداء أجمل موقع

﴿وألبست حللا من سندس ولوت * عمائما برؤس الهضب والأكم﴾

ألبست عطفا على أدت والحلل جمع حلة بالضم وهى ازار ورداء ولا تكون حلة الا من ثوبين أو ثوب له بطانة كذا فى القاموس وفيه السندس ضرب من رقيق الديباج معرب بلا خلاف والى جعل الشئ طاقا فوق طاق ومنه لويت الحبل فتلته والعمائم جمع عمامة وهو ما يلف على الرأس والاكم جمع أكمة بالتحريك مادون الجبال أو الموضع الشديد الارتفاع مما حوله وهو غليظ لا يبلغ أن يكون حجرا كذا فى القاموس وفى البيت تشبيه ما كسا وجه الارض من أنواع [illegible] والازهار بالحلل بجامع التجمل بكل والالباس ترشيح وتشبيه ما كان من ذلك برؤس الروابى [illegible] التى هى تيجان العرب واللى ترشيح ومعنى البيت حينئذ بين وقد لهج الشعراء [illegible] هذا التشبيه وتصرفوا فيه بأنواع التصرفات فراجع ما يناسبه من أشعارهم

﴿فالنخل باسقة تجلو قلائدها * مثل البهار على الخدين والعنم﴾

تفصيل [illegible] اجمال قوله فادت الارض والنخل مبتدأ ذو خبرين بعده والنخل اسم جنس كالنخيل [illegible] واحده نخلة والباسقة الطويلة فى القاموس بسق النخل بسوقا طال وعليهم علاهم اهـ وتجلو أى تكشف وتوضح والقلائد جمع القلادة وحقيقتها ما وضع فى العنق للتجمل استعير هنا للعناقيد للنخل اذ بها يتم حسنها كما أن بالقلادة يكمل حسن المقلد والبهار نبت جعد له نور أصفر ينبت أيام الربيع ويقال له العرار قال شيخ الاسلام وهو الذى يقال له ببلاد المغرب النرجس قال الشريشى شارح المقامات هو نبات له قضبان خضر فى رؤسها أقماع تخرج نورا ينبسط منها على الاقماع ورق أبيض فى وسط البياض دائرة قائمة من ورق أصفر ولذا وصفه أنوشروان بأنه ياقوت أصفر بين در أبيض على زبرجد أخضر أخذه بعضهم فقال

وياقوتة صفراء فى وسط درة * مركبة فى قائم من زبرجد

وقال ابن المعتز

كأن عيون النرجس الغض بيننا * مداهن در بينهن عقيق
اذا بلهن القطر خلت دموعها * بكاء عيون كحلهن خلوق

ثم قال وهذه الصفة التى أثبتها أهل المشرق للنرجس هى التى يصف بها أهل المغرب البهار قال القسطلى

بهار يروق بمسك ذكى * وصبغ بديع وخلق عجب
غصون الزبرجد قد أورقت * لها فضة نورت بالذهب

الى هنا كلام الشريشى بنقل شيخ الاسلام وقد تقدم لنا ذكره كالخدين والعنم صدر النظم غير أن شيخ الاسلام لم يتعرض هناك لشرح وأثبت الوجد فلذا اتبعناه فى اطالة الكلام عليه هنا غير أن الظرف أعنى على الخدين لا دخل له فى التشبيه فى البيت السابق وانما ذكر لبيان محل ظهور أثر الوجد من الدمع ولون السقم وفى هذا البيت له اعتبار فى التشبيه أو المقصود تكميل حسن النخل ونضارتها وذلك بتشبيه حال ثمرتها المنتزع من تدلى أصفرها على خضرة

ورقها

ورقها بحالة البهار المعلق على الخد المعذر فظهر الفرق بين القصدين والمراد بنوعى الثمرة من البسر والتمر فالاول للاول والثانى للثانى ولا يخفى كما قررناه انه لا دخل للكون على الخدين فى تشبيه النوع الثانى بالعنم اذ ذلك ليس من شأنه ومعنى البيت واضح مما بيناه

﴿وفارق الناس داء القحط وانبعثت * الى المكارم نفس النكس والبرم﴾

فارق تنحى وانجلى والداء المرض واضافته الى القحط للبيان أو حقيقية بان يراد بالمرض ما ينشأ عن القحط من الآلام والقحط الجدب وقحط المطر يقحط قحوطا احتبس وقيل قحط بفتح الحاء فى المطر وبالكسر فى المكان وانبعثت أسرعت مطاوع بعثه والمكارم جمع مكرمة وهى الخصلة الحميدة المضادة لصفة اللؤم والنكس بكسر النون الرجل المقصر عن غاية الكرم والجمع انكاس كذا فى القاموس والبرم بالتحريك من لا يدخل مع القوم فى الميسر وفى المثل أبرما قرونا أى ثقيل ويأكل مع ذلك تمرتين تمرتين والجمع أبرام كذا فى القاموس قال شيخ الاسلام وهو بخيل عند الجاهلية الأول والمعنى أن الناس لما أمطروا فارقهم القحط الذى هو أعظم داء وفارقهم الامراض الناشئة عن القحط وأسرع الى تحصيل الخصال الكريمة من عرف بالبخل والشح واللؤم وذلك لغلبة الخير وكثرة الخصب وفى التعبير بالانبعاث الدال على ترتبه على فعل فاعل اشارة الى أن قوة الخصب غلبت طبيعة البخل هذا اذا حملناه على حقيقته وقد يحمل على التجوز بالنكس والبرم عن الارض المجدبة والمعنى عليه واضح لا يخفى

﴿اذا تتبعت آيات النبى فقد * ألحقت منفخما منها بمنفخم﴾

تتبعت طلبت طلب المتأمل للشئ المتكاثر فردا فردا وأل فى النبى عهدية لا محالة اذ لا مساغ لدخول غير الممدوح بهذا النظم صلى الله عليه وسلم فى هذا المقام ولحقه ولحق به لحاقا بالفتح أدركه وألحقه به غيره والمراد هنا اللحاق فى الوصف المذكور والمنفخم العظيم المرتفع وتنكيره للتعظيم كاعادة لفظه والمعنى اذا استقصيت آيات نبينا صلى الله عليه وسلم ومعجزاته وجدتها على نسق واحد فى الفخامة والجلالة كدلالة الآية السابقة من ابراء المرضى واطلاق المصابين بلمس راحته الكريمة واحياء موات الارض بالغيث بسبب دعائه صلى الله عليه وسلم فى المذكور منها كالمذكور فى صفته والمراد أنها متماثلة فى المراد منها من الدلالة على عظيم قدره صلى الله عليه وسلم وان اختلفت ضروبها وأصنافها

﴿قل للمحاول شأوا فى مدائحه * هى المواهب لم أشدد لها زيمى﴾

الخطاب عمومى كسابقه لكل من يتأتى خطابه على طريق التوسع فى الضمير والمحاول المريد الطالب للشئ اسم فاعل من حاول الامر اراده حذف مفعوله المعين وهو مديحه صلى الله عليه وسلم بقرينة ما بعده وشأوا أمر من الشأو وهو السبق وقد يراد منه معنى المفاعلة ومنه شاأوت القوم سابقتهم وهذا المراد هنا والمدائح جمع مدحة فى القاموس والمديح والمدحة والأمدوحة ما يمدح به الجمع مدائح وأماديح اهـ والمدح الثناء بالجميل من الاوصاف وهو فى لسان الادباء غير جار على التفرقة بينه وبين الحمد باختصاصه بمقابلة الجبلى من الصفات والحمد بالاختيارى منها فانهم يسمون الثناء بالجميل مطلقا فى أشعارهم مديحا والمواهب جمع

قوله والمدائح جمع مدحة الخ فى شرح القاموس أن المدائح جمع مديح على غير قياس ولم يذكر جمع المدحة وقياسه مدح كسدرة وسدر اهـ

موهبة وهى العطية والزيم جمع زيمة بالكسر قطعة من الابل أقلها بعيران أو ثلاثة وأكثرها خمسة عشر ونحوها وكثيرا ما يكنى بشد الرحل عن التأهب للشئ وأخذ الحزم والجد فى تحصيله وهو المراد هنا والمعنى حث المريد لمدائحه صلى الله عليه وسلم على المسابقة فى ميدانها لينال منها ما تيسر له مما لا يقتضى الاحاطة المتعذرة بعدم حصر كمالاته صلى الله عليه وسلم كما يلوح الى ذلك التشبيه بالميدان والسبق القاضى بكثرة المزاحمين الطالبين وعلل هذا الحث بالاستئناف فى قوله هى المواهب أى أنها مما تتوفر الدواعى على الرغبة فيها لانها هى العطايا النافعة لمن حصل عليها وهى التجارة الرابحة وفيها تنافست الفحول الكمل وتسابقت الى تحصيلها ممن قدر ربحه وفاز قدحه ككعب بن زهير وحسان بن ثابت وغيرهما ممن تقدم وتأخر ومنهم الناظم فقد تقدم صدر الشرح ما حصل عليه بمدحه صلى الله عليه وسلم وانما ذكر هذا المعنى عقيب البيت السابق دفعا لتوهم استقصاء مدحه صلى الله عليه وسلم منه فان مضمونه كما قدمناه تتبع الآيات الدالة على فخامة قدره صلى الله عليه وسلم وربما يتوهم من ذلك امكان ادراك صفاته الفخيمة واستقصائها بالمدح كاستقصاء الآيات فدفع هذا التوهم بهذا البيت وبين به أن محال مدائحه لا يمكن ادراك الغاية له وان تسابق فيه المتسابقون غير أن ما لا يدرك كله لا يترك قله وقد صرح بهذا المعنى فى همزيته اذ قال

أبذكر الآيات أوفيك مدحا * أين منى وأين منها الوفاء

وتقدم قوله لو ناسبت قدره البيت وفيه اشارة الى هذا وسيشير بعد فى قوله فما تطاول البيت الى عجز المادحين عن استقصاء مدحه صلى الله عليه وسلم الملوح اليه هنا وصرح به فى الهمزية اذ قال

ان من معجزاتك العجز عن وصـ * ـفك اذ لا يحده الاحصاء

كيف يستوعب الكلام سجايا * ك وهل تنزح البحار الركاء

ليس من غاية لمدحك أبغيـ * ـها وللقول غاية وانتهاء

لم أطل فى تعداد مدحك نطقى * ومرادى بذلك استقصاء

غير أنى ظمآن وجد ومالى * بقليل من الورود ارتواء

وقوله لم أشدد لها زيمى بذلك المعنى الذى بيناه تأسف ولوم لنفسه حيث لم يستعمل كل الحزم فى مدائحه صلى الله عليه وسلم مع ما بين من حالها وانما هى العطايا لا غير هذا ما أراه فى شرح هذا البيت ولشيخ الاسلام فيه شرح لا أرتضيه فراجعه

﴿ولا تقل لى بماذا نلت جيدها * لما يقال لفضل الله ذا بكم﴾

الخطاب فى هذا النهى كالخطاب فى الامر السابق والنيل الاصابة يقال نلته أناله وأنالته نيلا ونالا ونالة أصبته كذا فى القاموس والجيد ككيس ضد الردئ والجمع جياد وجيادات وجيائد والضمير للمدائح والفضل الاعطاء بغير عوض وذا اشارة الى فضل الله وبكم باء الجر داخلة على كلمة الاستفهام العددى وهو خبر مبتدا محذوف بعد والتقدير بكم هو والجملة خبر ذا ولا يكون خبرا عن ذا لمكان صدارته الموجبة لتقديمه خبرا ويظهر لى أنه تجوز بكم فى حقيقتها من السؤال عن الاعداد الى مطلق السؤال عن عموم الاسباب ليناسب كما فى صدر البيت ولان نفى عموم الاسباب أعلق بالفضل من نفى خصوصية سبب الثمن والمعنى

انه لما نفى عن نفسه فى البيت السابق صرف العناية واستعمال الحزم فى تحصيل مدائحه وقد أتى منها بما شهد بفضيلته معاصروه وشاعت محاسنه بين الخاصة والعامة كان حاله مظنة السؤال عن السبب المقتضى لهذه الدرجة فأجاب بأن ذلك من فضل الله الذى لا يسع سببا ولا يستدعى حزما ولا طلبا بل بمجرد العناية الالهية التى اذا منحها العاجز قدر كما قال

ان العنايات اذا صادفت * ألحقت العاجز بالقادر

وهو مضمون قوله

﴿لولا العناية كان الامر فيه على * حد السواء فذو نطق كذى بكم﴾

أى لولا عناية الله تعالى وعونه لتساوى الناطق والأبكم فى العجز عن المديح بالحاق الاول بالثانى ولولا حرف شرطى يربط بين امتناع الجواب ووجود الشرط والعناية الاهتمام يقال عناه الامر يعنيه ويعنوه عناية أهمه والمراد به فى حقه تعالى لازمه من الاعانة والاقدار على المراد والامر بمعنى الشأن والضمير المجرور بفى يعود على النيل المفهوم من الفعل فى سابقه والسواء الاستواء والمراد هنا الاستواء فى الفعل وعدمه بدلالة لاحقه والبكم بفتح الباء والكاف مصدر بكم بكسر الكاف وقد جانس بينه وبين بكم فى سابقه غير أن الاول مركب والثانى مفرد على حد قول الحريرى

قدم لنفسك زادا * مادمت مالك مالك * من قبل أن تتفانى * ولون حالك حالك

ومعنى البيت واضح مما قررناه

﴿دعنى ووصفى آيات له ظهرت * ظهور نار القرى ليلا على علم﴾

دعنى بمعنى اتركنى وقد تقدم بيانه فى شرح قوله دع ما ادعته الخ والواو للمعية ووصفى مفعول معه وكونها عاطفة وما بعدها معطوف على معطوف دعنى يفسد المعنى كما لا يخفى على عارف بصياغة الكلام والوصف النعت يقال وصفه يصفه وصفا وصفة نعته ويختلف المراد منه بحسب المقامات ففى مثل هذا المقام المراد به المدح يراد به وصف التحلية وفى ضده ضده وقد يراد به أصل الايضاح فقط وذلك مقرر فى العربية وتقدم معنى الآيات قيل المراد هنا خصوص آيات القرآن العزيز قال شيخ الاسلام ولعل قائل هذا جعل قوله بعد آيات حق بدلا من هذه وهذا محتمل ويحتمل العموم اه والظاهر العموم لذكر آية الاسراء بعد كما لا يخفى ظهرت تبينت وهو وصف لآيات لم يرد به تخصيص حتى يرد اقتضاؤه أن من آياته صلى الله عليه وسلم ما لم يظهر وانما هو نعت لازم اذ الظهور لازم لكل آية من آياته عليه السلام كذا قال شيخ الاسلام * قلت غفل رحمه الله تعالى عن وصف الظهور بالبالغ الغاية فى الشهرة حتى لا يخفى على أحد المراد بقوله ظهور نار الخ ولا يعزب عن علمك ان آياته صلى الله عليه وسلم وان اشتركت فى الظهور لكنها متفاوتة فيه كآية القرآن المجيد وما تضمنه من قصة الاسراء فهما من الآيات العظام بلا نكر واقتصار الناظم عليهما بعد يقتضى اعتبار التخصيص فى الوصف كما هو شأن توصيف النكرات والقرى الضيافة وناره نار يوقدها الكرام من العرب ليهتدى بها الى منازلهم السائر ليلا ويتمدحون بذلك من حيث الدلالة على الكرم حتى كان كناية قوية الدلالة عنه قال السموأل فى لاميته المشهورة

وماخمدت نار لنا دون قاصد * ولا ذمنا في النازلين نزيل

وللاعتناء باظهارها بجعلونها برؤس الجبال بحيث يهتدي اليها كل طارق وصار ذلك مثلا يضرب في شدة ظهور الامر كما قيل

وان صخرا لتأتم الهداة به * كأنه علم في رأسه نار

ومن ثم قيدها الناظم بقوله ليلا على علم فان العلم هو الجبل وأما معنى البيت فانه لما لوح في الابيات السابقة الى أن كمالاته صلى الله عليه وسلم لا يحيط بها المديح ولا يدرك عدها ولو توجه لها كل فصيح وان مانا له من بعض مدائحه انما ناله بعناية الله وفضله لا بجزمه وجده وبين أن الآيات الدالة على فخامته كل منها فخيم في معناه ولوح الى عدم امكان حصرها كما شرحناه قال هنا اتركني مع وصفي آياته التي يمكن الاحاطة بها فاصرف الهمة نحوها دون وصف كمالاتها فان صرف الهمة الى المعجوز عنه غير معقول وان تحصل منه شئ فذلك بمجرد الفضل الالهي وهذا معنى التعليل بعد في قوله فما تطاول الخ ثم ان الآيات وان تساوت في العظمة فهي متفاوتة في ظهور الدلالة على عظمته صلى الله عليه وسلم وكان الاعظم منها أحق بالعناية والذكر بالوصف بالجميل فلذا اقتصر منها على التصريح بآية الكتاب المجيد وقصة الاسراء فافهم ذلك المراد له رحمه الله تعالى واعرف لطف اشارته ودونك ما في شيخ الاسلام من الشرح فانه غير مرضي عندي

﴿فالدر يزداد حسنا وهو منتظم * وليس ينقص قدرا غير منتظم﴾

الدر اللؤلؤ واحده درة ويزداد بنمو ومادته تقتضي سبقية أصل كالحسن هنا والجملة بعد حالية والانتظام الاجتماع في السلك مطاوع نظمه اذا جمعه والنقص الحطيطة والقدر مبلغ الشئ كالمقدار ومعنى البيت افصاح بالجواب عن سؤال ينتجه وصف الآيات في سابقه وهو أن يقال اذا كانت الآيات التي أردت وصفها مثل ماذكرت من كونها في الظهور كالنار على علم ليلا بحيث لا تخفى محاسنها على أحد فما معنى توصيفها ومدحها اذ لا معنى للمدح والتوصيف الا ذكر صفات الممدوح والاعلام بها وحاصل الجواب ان خصوصية نظم المديح والافراغ في قالب البلاغة وفنونها زيادة حسن لتلك الصفات الحسنة في ذاتها وهذا مدرك بالبداهة فان وجود الصفات في الخارج وادراكها ولو حسا لا يبلغ حسن ذكرها في الأوزان الشعرية والصيغ البلاغية والتشابه البيانية والتحسينات البديعية كما ان ذلك الحسن النظمي يزداد بالنغمات المسموعة حسنا لا يكون مع مجرد النظم فالحسن في ذاته تزداد كمية حسنة بادراجه في نظم الكلام البليغ ولا ينقص حسنه الذاتي بدونه وان نقص حسنه العارض به وضرب لهذا مثلا محسوسا وهو اللؤلؤ فان حسنه الذاتي حاصل نظم أو لم ينظم اذا نظم وفي السلك ورتب الترتيب التحسيني ازداد حسنه وان شئت الفرق عيانا فانظر ما عقده أبو عبد الله الشافعي التونسي في ازهار النكات من خبايا المحوكات وأصله كلام نثري في شرح التفتازاني على التلخيص وهو ولا تعجبوا من قصر ذوائبه فانها كالليل ووجهه كالربيع والليل في الربيع مائل الى القصر فعقده الشيخ المذكور نظما بقوله

قصرت ذوائبه كليل مسرة * لا تعجبوا فالوجه منه ربيع

في ليله ميل الى قصر المدى * ميل القلوب بلى له التوديع

وبقوله أيضا لا غرو ان قصرت ذوائب من بغت * نا طيبه انجذبت له الابصار

أو ما محياه الربيع شمائلا * طابت لياليه وهن قصار

فأنت ترى ما صار اليه ذلك المعنى بتلوين النظم من كمال الحسن ولذة السمع

﴿فما تطاول آمال المديح الى * ما فيه من كرم الأخلاق والشيم﴾

الفاء تعليلية وكلمة ما استفهامية في الاصل مرادبها الانكار هنا وأصل التطاول مد الانسان عنقه قائما لينظر الى ما بعد عنه فتجوز به عن محاولة غير المقدور والآمال جمع أمل كجبل ونجم وشبر الرجاء والى ما فيه يتعلق بالتطاول والاخلاق جمع خلق والشيم جمع شيمة وهما بمعنى وقد تقدم شرحه عند قول الناظم فاق النبيين البيت والعطف هنا تفسيري ومعنى البيت انكار حقيقة محاولة استقصاء مدائحه صلى الله عليه وسلم باستقصاء صفاته الموجبة للمدح من اخلاقه الكريمة وكثيرا ما ينفى الشئ اذا كان لا محصول له وان أمكن وجوده فالحقيقة هنا انكار فائدة التطاول لكنه بالغ فيه بانكار الحقيقة كما هو مستعمل كثيرا ومن اللطيف في ذم التطاول قول شيخ المعرة

فان كنت تهوى العيش فابغ توسطا * فعند التناهي يقصر المتطاول

﴿آيات حق من الرحمن محدثة * قديمة صفة الموصوف بالقدم﴾

رفع آيات على الابتداء وحذف الخبر أي من آياته الدالة على نبوته آيات القرآن الكريم وهذا على ما اخترناه من ارادة العموم في الآيات السابقة وآية القرآن طائفة منه أقلها ستة أحرف مميزة ببداية وفاصلة واضافتها الى الحق من اضافة الموصوف الى الصفة لان الله وصف القرآن به فقال هو الحق مصدقا ومن الرحمن صفة له والرحمن من أسمائه تعالى من الرحمة وقد شاع أن الصيغة للرحمة اللاحقة لكل موجود * قال الشيخ لطف الله في المعارج والرحمانية لكل شئ جعل ماهيته مستعدة لما خلقت له مستتبعة لسببه كاطالة رقبة الابل على التعوج فانه خلق لتحمل الأوزار الثقيلة وطوله لم يمكن الحاملين منه فاحتيج الى الاناخة فلو كانت رقبته قصيرة أو طويلة مستقيمة لشق عليه القيام وربما عطب في مقاساته واذا أمعنت النظر رأيت ذلك في سائر المخلوقات ناطقها وصامتها اه ومن هنا لا يصح اطلاق هذا الاسم على غيره تعالى كلفظ الله قال بعضهم ويدل عليه قرانه به في قوله جل اسمه قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ومن المقرر المعلوم ان أسماءه تعالى التي يستحيل ارادة معناها الوضعي في حقه يعتبر فيها لازمه كارادة الانعام في الرحمن والمحدث الموجد ضد القديم والموصوف بالقدم هو الله تعالى ومعنى البيت ان من الآيات الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم آيات الكتاب المجيد التي هي حق لا ريب فيه المنزلة من الله تعالى رحمة بعباده كما وصفها به في قوله جل اسمه الم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين ومن هنا ظهر اختيار اسم الرحمن هنا ثم وصف تلك الآيات بوصفين متضادين وهما القدم والحدوث ايماء الى أن لها اعتبارين كل وصف منهما لها باعتبار الاول الالفاظ المقررة المتلوة الواردة على أعلى طرفي البلاغة المعجزة بذلك من اراد المعارضة المسمى كلام الله والقرآن تسمية شائعة في لسان أهل الشرع

ولا مرية فى حدوث ذلك ضرورة وهذا الاعتبار مناط الوصف الاول الاعتبار الثانى موافق تلك الالفاظ فى الدلالة على المراد منها وهو الكلام النفسى القائم بذاته تعالى الذى اذا كشف الحجاب عنه فهم منه مايفهم من اللفظ ويسمى كلام الله وقرآنا أيضا غير أنه ليس من الآيات فى شئ وانما نسبتها اليه للاشتراك فى الدلالة على المراد ولكونه المدلول الاول لها بناء على أن الالفاظ تدل أولا على مافى النفس من المراد وبهذا الاعتبار وصفت الايات بالقدم وفسر بانها صفة القديم ولا يعزب عليك مما بيناه مافى ذلك التوصيف من التوسع وأشار الناظم بما ذكر الى أن الخلاف الشائع بين أهل السنة والمعتزلة فى حدوث القرآن وقدمه ليس على ظاهره الشائع ضرورة أنه لا مساغ للقول بقدم الالفاظ المنزلة كما لا مساغ للقول بحدوث الكلام النفسى انما النزاع فى ثبوت الثانى فاهل السنة يثبتونه ويكون قديما لا محالة لانه صفة ذاتية والمعتزلة ينفونه فعند أهل السنة لفظ القرآن له معنيان قديم وحادث وعند المعتزلة لا معنى له الا الحادث هذا حقيقة الخلاف عند المحررين من مهرة علم الكلام فاستفده

﴿لم تقترن بزمان وهى تخبرنا * عن المعاد وعن عاد وعن ارم﴾

الاقتران الاجتماع والضمير المستتر للآيات بالاعتبار الثانى الذى لحقها به الوصف بالقدم والزمان الوقت المقدر بحركة الافلاك وسير الكواكب يطلق على القليل والكثير والضمير بعد للآيات بالاعتبار الاول لانه الذى به الاخبار والمعاد المصير والمرجع من عاد يعود عودا اذا رجع والمراد هنا خصوص مرجع الآخرة وعاد قبيلة بعث اليها هود صلى الله عليه وسلم سميت باسم عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام عاش عاد ألف سنة ومائتين ورأى من صلبه أربعة آلاف ولد وكان كافرا يعبد القمر وارم جده كما ذكر فى نسبه قال الكلبى ارم هو الذى يجتمع اليه نسب عاد وثمود وأهل السواد وأهل الجزيرة كان يقال عاد ارم وثمود ارم فاهلك عاد وثمود وبقى أهل السواد وأهل الجزيرة ومعنى البيت ان تلك الآيات مع كونها غير زمانية اذ الزمانى ماله أول وهى لكونها قديمة لا تصاحب الزمان الحادث تخبرنا وتعلمنا باحوال الماضى من الامم كعاد وارم والمستقبل كالمعاد فهى غير زمانية تخبر عن الزمانين وكأنه رحمه الله توهم التضاد كالايهام فى السابق فى الجمع بين الصفتين ومنه قول أبى تمام فى الشيب

له منظر فى العين أبيض ناصع * ولكنه فى القلب أسود أسفع

وقد ذكر فى الشفاء أن من وجوه اعجاز القرآن الاخبار عن المغيبات وعن القرون الماضية والامم البالية والشرائع الداثرة وعقد لذلك فصلين

﴿دامت لدينا ففاقت كل معجزة * من النبيين اذ جاءت ولم تدم﴾

الضمير الى الآيات بالاعتبار الاول والدوام الاستمرار وفاقت علت فى الشرف والمعجزة أصلها اسم فاعل من أعجزنى الامر أى فاتنى ولم أستطعه والمراد بها فى حق الانبياء أمر خارق للعادة يقع على وفق دعوى الرسول الرسالة مقارنا للدعوى مع عدم المعارضة وهى منزلة منزلة قول الله تعالى صدق عبدى فيما يبلغ عنى ومعنى البيت اثبات مزية لمعجزة القرآن فاقت بها كل معجزة سواها وقعت على يد نبى من الانبياء عليهم الصلاة والسلام وهى استمرارها من لدن نزولها الى انقراض الدنيا وغيرها من المعجزات تزول بحصول المراد منها من الدلالة على تصديق

الرسول الذى وقعت على يده ووجه كون ذلك شرفا لها على غيرها اشاعة ادراكها حسا لذى كل عصر من الاعصار ولم يدرك غيرها الغير من شاهدها الا بالاخبار عن أحوالها والاخبار القاطعة وان أفادت اليقين لكن للعيان لطيف معنى وفى ذلك اعلان بالتحير لا يخفى من فضل الله تعالى على نبيه أن جعل من آياته كتاب تشريعه المضمون حفظه لتبقى لامته مدركة مشاهدة وبهذا يتبين ان غيره من الكتب السماوية لا يشارك الكتاب المجيد فى ذلك اذ لم يكن انزالها للاعجاز فان قلت ما اقتضاه صريحه من نفى الدوام عن كل معجزة عدا القرآن ينافيه ماصرح به فى الهمزية من دوام جميع معجزاته صلى الله عليه وسلم حتى جعل ذلك مزية له عليه الصلاة والسلام دون غيره من الانبياء حيث يقول

لم تخف بعدك الضلال وفينا * وارثو نور هديك العلماء

فانقضت آى الانبياء وآيا * تك فى الناس مالهن انقضاء

قلت المراد بالآيات مطلق المزايا والكرامات كما صرح بذلك الحفنى فى حواشى شرحها أى من كراماته ومزاياه صلى الله عليه وسلم دوام شريعته وهديه ببقاء علماء أمته بخلاف غيره من الانبياء فان ماتميز به من الشرائع قد نسخ ويؤيد هذا المحمل تفريع ذلك الكلام على مضمون البيت السابق فافهمه

﴿محكمات فما يبقين من شبه * لذى شقاق ولا يبغين من حكم﴾

محكمات جمع محكمة على صيغة المفعول من حكمه اذا جعله حاكما فمعناه حاكمات أو من حكمه بمعنى أحكمه اذا قيل بقياس التضعيف على التعدية بالهمز كما هو رأى بعضهم فمعناه متقنات فى نظمها وبلاغتها ممنوعة من تطرق الخلل اليها وكونها من أحكمت الشئ بمعنى أوضحته حتى لا يحتاج الى التأويل ينافيه منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات وجواب شيخ الاسلام عنه غير ناهض فراجعه مع التدبر وما يبقين ما يتركن والشبه جمع شبهة وهى الالتباس وما يتخيل دليلا وليس كذلك والشقاق الخلاف والعداوة ويبغين يطلبن من بغيت الشئ أبغيه طلبته والحكم بالتحريك الحاكم ومعنى البيت أن هذه الآيات حاكمة الحكم الفصل الذى لا تبقى معه شبهة لمخالف من المتنازعين سواء كان النزاع فى أصل التصديق وذلك باعجازها أو فى حادثة بين اثنين وذلك بما تضمنته من الاحكام الشرعية وفى الحديث فى وصف القرآن من حكم به عدل ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله هذا على تفسير محكمات بأول تفسيريه وعلى الثانى يكون المعنى أنها فى غاية الاتقان فى النظم وأعلى مراتب البلاغة بحيث لا يطرقها شبهة معاند فى كونها من عند الله فيرجع الى أحد قسمى الاول وقوله ولا يطلبن حكما صالح للربط بكلا التفسيرين فان الحاكم الذى لا يحكم عليه غيره أثبت فى باب الحكم ونفوذ الامر ضرورة ان نفى تسلط حكم الغير عليه انما هو لانحطاط مرتبته عنه فى أدوات الحكم ولما كانت هذه الآيات لا مرمى وراءها فى معانيها وأحكامها لم يبق مساغ لان يتسلط عليها غيرها بحكم لان تحكيم الناقص فى الكامل خلاف المعقول وقد أومأ الى هذا أبو الطيب بقوله

يا أعدل الناس الا فى معاملتى * فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وكذلك ما كان فى غاية الاتقان والمنع من تطرّق الخلل فانه غنى فى الدلالة على المراد منه عن تصرّفات الحكم ومما لا يخفى ان المراد أن الآيات هذا وصفها فى نفس الامر ولا ينافيه انكار المعاند المحتوم ضلاله وقد قال تعالى ذلك الكتاب لا ريب فيه أى ليس أهلا لأن يرتاب فيه وان وقع الريب لمن أضله الله وأتى بصيغة الجمع فى الشبه ايماء الى تعدد شبهات المبطلين وأن القرآن ماح لجميعها

﴿ما حوربت قط الا عاد من حرب * أعدى الأعادى اليها ملقى السلم﴾

المحاربة فى الاصل المقاتلة ويتجوز بها عن مطلق المنازعة والمجادلة وهو المراد هنا وقط ظرف لعموم ما مضى مبنى على الضم كقبل وبعد وعاد رجع وصار والحرب محرّكة مصدر حربته بفتح الراء سلبته وحرب بالكسر اشتد غضبه وأعدى ان كان من العداوة بمعنى الاشدّ عداوة فالبناء غير مقيس لان فعله غير ثلاثى وان كان من العداء أى تجاوز الحدّ والظلم أى أشدّهم ظلما فهو مقيس والأعادى جمع أعداء جمع عدوّ وهو ضدّ الولىّ والسلم بفتحتين وسكون اللام مع فتح السين وكسرها الصلح والمعنى أن تلك الآيات ما قصدها مجادل بانكار وتكذيب ونسبتها الى غير حقيقتها كقولهم انها سحر وأساطير الأوّلين أو شعر أو أنها كلام مجنون الى غير ذلك من الأقاويل الباطلة الا صار ذلك المجادل المكذب مسلما لها راجعا عما يدّعيه فمنهم من أسلم وتمت له الهداية ومنهم من سبق عليه القضاء فدام على كفره وان سلم للآيات وعرف مقدارها ومما يشهد لهذا ما تقدم لنا فى مقدمة الشرح من قصة الوليد بن المغيرة هذا ما ظهر لى فى معنى البيت وهو غير مضمون ما بعده كما لا يخفى ولشيخ الاسلام فى شرح البيت مسالك لا أرضى سلوك واحد منها فراجعه وحكم فكرك السليم

﴿ردّت بلاغتها دعوى معارضها * ردّ الغيور يد الجانى عن الحرم﴾

الردّ الصرف والبلاغة مصدر بلغ المكان اذا وصل اليه وأما فى عرف الادباء وصاغة الكلام فقد اضطربت فيها عبارة المتقدمين وأحسن عبارة وجيزة فيها سرّ مطابقة الكلام لما يقتضيه الحال واجمال تفسيرها أن يتوخى فى سرّ الكلام من الخواص والمزايا ما يقتضيه حال الخطاب فاذا هى أمر اضافى لا يمكن اطلاق القول فى نوع من الكلام أنه بليغ على الاطلاق فرب كلام بليغ فى مقام لا يكون كذلك فى مقام آخر ومن المزايا التى يتوخيها يتحرى الكلام المقاطع والمطالع والمبدأ والمخرج والنهاية ومعلوم فى فن المعانى أن لها طرفين أعلى وهو حدّ الاعجاز وهى البلاغة القرآنية والمعارض اسم فاعل من عارضته فى الشئ اذا أتيت بمثل ما أتى به والغيور صيغة مبالغة يستوى فيها المذكر والمؤنث من الغيرة بفتح الغين وهى حالة نفسانية تحدث عند امتداد الأيدى لخرق سياج الحماية تثير انبعاث القوة الغضبية الحامية واليد الجارحة المعروفة وكثيرا ما يراد بها القدرة مجازا وهو الانسب هنا والجانى اسم فاعل من جنى عليه جناية اذا فعل به مكروها والحرم اما بضم الحاء وفتح الراء نساء الرجل وما يحميه واما بفتحتين جمع حريم وهو ما يحميه الانسان ويقاتل عنه والمعنيان متقاربان وانما الخلاف فى الشكل والمعنى أن هذه الآيات لكونها فى أعلى طرفى البلاغة الذى هو حدّ الاعجاز صرفت وأبطلت دعوى المعارض لها المدعى الاتيان بمثلها بعد التحدى

وطلب

وطلب ذلك منه الطلب التعجيزى كما صرحت بذلك الآيات الكريمة فكان العجز صفتهم والفضيحة نتيجة دعواهم والذلة ثمرة ما غرسه هواهم مع تحريك حميتهم بتسفيه أحلامهم وحط أعلامهم وتشتيت نظامهم وذم آلهتهم وآبائهم وهو ينادى عليهم بضعا وعشرين عاما أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين فلم يكن منهم الا نكس الرؤس ومخادعة النفوس بأنه افتراء أو سحر أو أساطير الاوّلين وهم اذذاك فرسان البلاغة الدافقة لا يشكون أن البلاغة طوع مرادهم وصياغة الكلام ملك قيادهم قد حووا فنونها مع كثرة أنواعها ولم يكن ما عجزوا عن مثله الاعلى منوال لغتهم التى بها يتحاورون ومنازعهم التى عنها يناضلون ومن ثم أدركوا حسن فواصله وأذعنوا للعجز من آياته وفواصله * ذكر أبو عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ فاصدع بما تؤمر فسجد وقال سجدت لفصاحته وسمع آخر رجلا يقرأ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا فقال أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام اه وفيما ذكره الناظم اشارة الى أن الاعجاز القرآنى ببلاغته وهو مذهب المحققين من العلماء ومحل اشباع الكلام فى هذا الخلاف غير هذا الكتاب فليراجع

﴿لها معان كموج البحر فى مدد * وفوق جوهره فى الحسن والقيم﴾

الضمير للآيات والمعانى جمع معنى وهو ما يراد من اللفظ بأىّ طريق من الدلالات كان والموج اضطراب البحر كذا فى القاموس وعليه اقتصر شيخ الاسلام وأنت ترى أنه غير مناسب للمراد فلعله تجوّز به عن الأمواج أعنى الهيآت المتعاقبة عند اضطراب البحر والمدد الزيادة وفوق ظرف مكان لاحدى الجهات الست المعروفة ثم توسع فيه فأطلق على العلوّ فى المعانى والصفات كما هو المراد هنا والقيم جمع قيمة وأصلها ما يقاوم به من العوض ثم توسع فيه بارادة الشرف والكمال لما كان تغالى الأثمان يتبع غالبا ارتفاع صفات الكمال والمعنى أن لتلك الآيات معانى كثيرة لا تحصى ولا تقف عند حدّ بل ما من معنى وصل اليه الذهن الا وظهر بعده معنى وهكذا الى أن يقف الادراك البشرى ولا تستوفى المعانى كما أن البحر عند اضطرابه تتولد فيه أمواج متعاقبة واحدة بعد أخرى فهى دائمة ما دام الاضطراب فى استمداد بعضها من بعض استمدادا يقف دونه الادراك والمراد من التشبيه كالقسمة اللاحقة له فى المصراع الثانى تمثيل المعقول بالمحسوس تقريبا للافهام كما فى قوله جل اسمه مثل نوره كمشكاة الآية وقد تلطف فى هذا التشبيه ما شاء فان أمواج البحر يتولد بعضها من بعض كذلك المعانى البلاغية يتولد بعضها من بعض مع مناسبة المقام والمراد من النسبة الى الجوهر ظاهر يعنى أن شرف معانى هذه الآيات يزيد المعانى البلاغية التى هى مناط الاعجاز فى شرفها وحسنها فوق الجواهر المعروفة بالشرف والحسن

﴿فما تعدّ ولا تحصى عجائبها * ولا تسام على الاكثار بالسأم﴾

تفريع على مضمون ما قبله والعدّ الحساب والاحصاء الاحاطة بالشئ علما وأكثر استعماله فى المعدودات وكأن الفرق بينه وبين العدّ أن الاوّل احاطة الجملة المعدودة والثانى تتبع افرادها بالحساب والعجائب جمع عجيبة وهو الشئ الذى يتعجب منه كالحسن والخارق

والنادر وتسام تطلب من السوم المستعمل فى البيع يقال منه سا ومنه سواما والاكثار المراد به كثرة ترداده من قولهم أكثر الرجل أى كثر ماله ولو قال على التكرار لكان أنسب وأظهر فى المراد والسأم بفتح الهمزة مصدر سئمت بكسرها أى مللت والمعنى أن هذه الآيات لما كانت معانيها فى الكثرة التى لا تتناهى والحسن الذى لا يباهى لا يمكن عدها ولا الاحاطة بها ولا تمل مع تكرارها وهذا مما فاقت به الجواهر فانها وان كانت ملائمة للطبع بحسنها لكنها يلحقها الملل بالاكثار من تداولها وتسأمها الانفس وكذلك الشأن فى كل كلام مكرر وفى المثل أثقل من حديث معاد وآيات الكتاب على خلاف ذلك فانها ما ذكرت الا وكانت لها حلاوة ورونق مستأنفان كأنها أول ما طرقت السمع قال القاضى فى الشفاء وقد عد جماعة من الائمة ومقلدى الامة فى اعجازه وجوها كثيرة منها أن قارئه لا يمله وسامعه لا يمجه بل الاكباب على تلاوته يزيده حلاوة وترديده يوجب له محبة لا يزال غضا طريا وغيره من الكلام ولو بلغ فى الحسن والبلاغة مبلغا يمل مع الترديد ويعادى اذا أعيد اه ومن الحكم المشهورة من العادات معاداة المعادات فأنت ترى أن هذه الخصيصى للفظ الآيات الكريمة لا لمعانيها وأنها ثابتة لها فهمت معانيها أم لا ومن هنا حملنا الاكثار على التكرار وصرفنا النظم عن ظاهره المتبادر من حمله على حقيقته وصفا للمعانى فى البيت السابق وحمله على الظاهر مع كونه غير مطابق للمنقول لا يستقيم فى نفسه فان الكثرة مع تجدد الحصول الذى يقتضيه عدم التناهى ليس مظنة الملل فلا مزية فى نفيه عنه وانما كانت معانيه لا تستقصى لكونها كما تقدم بلاغية وقد قدمنا أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال فالاحاطة بها تتبع ادراك ما علمه المتكلم من الأحوال ومقتضياتها والادراك البشرى لا يساوى العلم القديم فافهمه

﴿قرت بها عين قاريها فقلت له * لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم﴾

أصل قرور العين جريان الدمع البارد منها بسبب الفرح والسرور وقدمنا بيانه أول الشرح ثم شاع التكنية به عن السرور وارتياح النفس بحصول الملائم والقارئ اسم فاعل من قرأت الكتاب قراءة أتبعت بعضه بعضا وظفرت بكسر الفاء فى الماضى وفتحها فى المستقبل من الظفر وهو الفوز بالمطلوب والمراد بالحبل هنا العهد مجازا والاعتصام به الامتناع به من المؤذيات والمعنى أن قارئ تلك الآيات الكريمة حصل من السرور والفرح وما يلائم روحه ما أوجب نشاط نفسه وانبساطها وأنه جدير بأن يهنأ بذلك ويقال له لقد فزت بمطلوبك وهو حبل الله المتين وعهده الوثيق فاعتصم به من كل مخوف فى الدنيا والآخرة * وشواهد هذا كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم انى تارك فيكم خليفتين كتاب الله حبل ممدود بين السماء والارض وعترتى أهل بيتى وانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض قال شيخ الاسلام وخرج أبو عيسى عن الحرث الأعور قال مررت فى المسجد فاذا الناس يخوضون فى الحديث فدخلت على على رضى الله عنه فقلت يا أمير المؤمنين ان الناس قد خاضوا فى الأحاديث قال وقد فعلوا قلت نعم قال أما انى لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الا انها ستكون فتنة فقلت ما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الحكم والهدى من غيره أضله الله وهو

حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذى لا تزيغ به الاهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الترداد ولا تنقضى عجائبه من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا به هدى الى صراط مستقيم خذها يا أعور اه وكأن الناظم اقتبس أسا نيدها من هذا الحديث الشريف

﴿ان تتلها خيفة من حر نار لظى * أطفأت حر لظى من وردها الشبم﴾

التلاوة القراءة والخيفة الخوف والحر ضد البرد واللظى النار أو لهيبها ولظى معرفة جهنم كذا فى القاموس ولا رادتها هنا أضيفت النار اليها وأطفأت من طفئت النار كسمع طفوأ ذهب لهيبها كانطفأت وأطفأتها وهو متجوز به هنا عن النجاة من أذاها ضرورة أنها لا تطفأ فى ذاتها وانما يمنع التالى من ايلام حرها وتعلقه بالحر قرينة على المراد واظهار الحر ولظى لارادة التهويل والتعظيم والورد بكسر الواو الماء الذى يورد كذا فى تكملة القاموس للمرتضى والشبم بكسر الباء البارد والمعنى أن هذه الآيات الكريمة اذا تلاها الانسان تقربا الى الله بها بقصد النجاة من عذاب النيران يوم القيامة كانت نجاة له منها * وشواهد هذا من السنة كثيرة منها ما رواه مسلم من حديث أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اقرؤا القرآن فانه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه وعن أبى هريرة رضى الله عنه يجىء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول يارب حله فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يارب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يارب ارض عنه فيرضى عنه فيقال له اقرأ وارق وتزداد بكل آية حسنة اه ومن لطيف تلويحات الناظم رحمه الله الايماء بجعل ثمرة القراءة النجاة من النيران الذى هو من لوازم الكرامة الواردة بها الاحاديث الى أن حظ المكلف من العبادة الخروج من المخالفة والامن من العقاب وأما الجزاء فهو محض الفضل فتنبه له

﴿كأنها الحوض تبيض الوجوه به * من العصاة وقد جاؤه كالحمم﴾

الضمير للآيات والحوض معروف وهو مجتمع الماء ذو الحافات وأل فيه عهدية والمعهود حوضه صلى الله عليه وسلم وتبيض الوجوه كناية عن التنعم الظاهر أثره بحسن البشرة وتخصيص الوجه اما لكونه يظهر فيه التنعم وضده أو هو مجاز عن الذات والعصاة جمع عاص ومن بيانية على الاول أو تبعيضية على الثانى والحمم كصرد الفحم واحدته بهاء والمراد من التشبيه التكنية عن بلوغ الشدة ولهيب العطش حتى يتغير البدن وتسطو حرارة الدم فيسود والمعنى أن هذه الآيات فى ارتياح القارئ لها وانشراح صدره بها وانزياح ظلمة الجهالة عن صدره بتلاوتها كأنها حوضه صلى الله عليه وسلم فى تنعم أمته بالورود منه حين يردونه وقد اشتد بهم عطش الموقف حتى تتغير بشرتهم فيشربون منه وقد صار سوادهم بياضا وبؤس ما يجدونه تنعما فالمقصود بيان مزية تلاوة هذه الآيات بما يظهر على تاليها من التنوير فى الدنيا بعد بيان مزيتها فى الأخرى وفى التشبيه استتباع غير خفى كما قدمناه فى خلال الشرح وتشبيه الانتفاع بالحكم والمعارف بالرى من الماء كثير شائع ومن السحر فيه قول الشيخ عارف شيخ الاسلام بمحروسة القسطنطينية العظمى

ان الأئمة كالمناهل فى الهدى * والناس مثل الوارد الظمآن
والنفس ان رويت بأول مشرب * عنيت بلا كره لشرب الثانى

وأحاديث الحوض كثيرة ففى صحيح البخارى عن ابن عمر قال النبى صلى الله عليه وسلم حوضى مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه لا يظمأ أبدا وعن سهل بن سعد انى فرطكم على الحوض من مر على شرب ومن شرب لا يظمأ أبدا ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفونى ثم يحال بينى وبينهم قال النعمان بن أبى عياش وزاد فيها أبو سعيد الخدرى فاقول انهم منى فيقال انك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول سحقا سحقا لمن غير بعدى اه والورود على حوضه صلى الله عليه وسلم قبل الحساب كما هو ظاهر الروايات وفيه أمان من النار كما لا يخفى هذا وقد حمل شيخ الاسلام قوله وقد جاؤه كالحمم على حالة خروج العصاة من النار بالشفاعة وتوقف مع ظاهر اللفظ ومع المروى فى ذلك فتحير فى بيان مراد الناظم وشرحه شرحا غير ملتئم الاطراف فراجعه

﴿وكالصراط وكالميزان معدلة * فالقسط من غيرها فى الناس لم يقم﴾

الصراط الطريق والميزان معروف والمعدلة بفتح الدال وتكسر العدل وانتصابه على التمييز المبين لوجه الشبه والأظهر اختصاصه بالثانى لاشتهار صفة العدل من الميزان دون الصراط ومن ثم أعاد أداة التشبيه وحذف وجه الاول لظهوره وهو الوصول الى المقصود والفاء للتفريع على الثانى على الاظهر والقسط بكسر القاف العدل وبفتحها الجور تقول أمر الله بالقسط ونهى عن القسط وقيام العدل ظهوره والمعنى أن هذه الآيات الشريفة طريق موصل الى الهدى لمن تمسك به وعمل بما فيه كالطريق المحسوس الموصل الى المقصود الذى لا يضل سالكه وهى المبينة للحقوق والاحكام بيانا عادلا لا يقع حيف ولا جور به كالميزان المحسوس الذى لا يكون باعتباره جور لكونه أضبط المقادير وأعدلها وقوله فالقسط من غيرها الخ تفريع على التشبيه بالميزان فى العدل والمراد بالغير المغاير لها فى جملة أوصافها التى منها أنها كالميزان معدلة والمراد بالناس الامة المخاطبة بها ولا يخفى أنه لا يمكن العدل فيهم الا من هذه الآيات وشاهده نص الحديث المتقدم فى شرح قوله قرت بها عين قاريها البيت ولا يرد عليه السنة والاجماع والقياس من الادلة الشرعية لرجوع جميعها الى الكتاب المجيد اذ هو الاصل الذى بنى عليه التشريع فاندفعت سائر الشكوك وقد ورى الناظم رحمه الله تعالى بالصراط والميزان اللذين فى الآخرة وأحسن فى التورية ما شاء خصوصا مع تقدم الحوض ومن الجيد فى ذلك ما ذكره فى سمط اللآلى من أعذب ما وقفت عليه فيما للشعراء فى ذكر اللمى مالى رفع الازار عن محاسن الجوار

تقول لما قلت هذا اللمى * أسكرنى لما ترشفت فالك
سوالك ماذاق لمى مبسمى * أستغفر الله ذكرت السوالك

﴿لا تعجبن لحسود راح ينكرها * تجاهلا وهو عين الحاذق الفهم﴾

الحسود صيغة مبالغة من الحسد وهو تمنى زوال نعمة المحسود ووصولها الى الحاسد وقيل تمنى زوالها وان لم تصل اليه وهذا أقبح الحالين وراح بمعنى صار وأصله المصير عشية ثم استعمل

فى المطلق والتجاهل أن يظهر الانسان من نفسه الجهل وليس بذى جهل والجهل ضد العلم والحاذق اسم فاعل من حذق الرجل عمله بكسر الذال حذقا وحذاقة أحكمه والفهم بكسر الهاء بمعنى العالم من فهمت الشئ علمته والمعنى لا غرابة فى انكار من غلب على قلبه الحسد لتلك الآيات الكاملة الباهرة البالغة الدرجة العليا فى الكمال أى انكار كونها آية من عند الله توصلا بذلك الى انكار تصديق من جاء بها صلى الله عليه وسلم وذلك لما انطبعت عليه النفوس من حسد كل ذى نعمة حتى قال أبو تمام

واذا أراد الله نشر فضيلة * طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت * ما كان يعرف طيب عرف العود

اه وقد تلطف ما شاء من أخذ معنى الثانى فقال

بنى جهور أحرقتم بجفائكم * جنانى فما بال المدائح تعبق
تعدونى كالعنبر الورد انما * تطيب لكم أنفاسه حين يحرق

اه ثم من لازم الحسد العلم بالنعمة ولذا قال تجاهلا أى مع أنهم تجاهلوا عن حقيقتها وتعاموا عن رؤية أشعتها مع كونهم ليسوا من أهل الغفلة والجهالة بل من أهل الفطنة والعلم وذلك ان المنكر اما العرب أو اليهود أما الاول فانهم من النباهة وادراك الكتاب بالمرتبة التى شهدت بها أخبارهم المتقدم نبذة منها بحيث شهدت أنباؤهم بتسليم اعجازه باطنا وتصديقه صلى الله عليه وسلم وأظهروا التنكير حسدا وعنادا روى ان أبا جهل قال والله ان محمدا لصادق ولكن كا وبنو هاشم يطعمون ونطعم وما فعلوا خصلة الا وفعلنا مثلها حتى اذا كنا كفرسى رهان قالوا انه يأتينا الوحى من السماء فمن لنا بهذه لا نؤمن به أبدا وأما القسم الثانى فهم من أهل العلم بالكتاب المبين به مبعثه عليه السلام وصفته ووقته ومع ذلك أنكروه حسدا لذهاب النبوة من بنى اسرائيل وقد نعاهم الله تعالى بقوله الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون

﴿قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد * وينكر الفم طعم الماء من سقم﴾

تعليل لنفى الغرابة والتعجب من حال المنكرين الحاسدين المفهم بالبيت قبله والرمد داء يصيب العين معروف يؤذيه مقابلة كل ذى شعاع والطعم ما يؤديه الذوق والسقم المرض والمعنى أن العين الرمداء تنكر ضوء الشمس لعدم ادراكها والمريض لانحراف مزاجه ينكر طعم الماء وليس ذلك لعدم ضوء الشمس وعدم طعم الماء وانما ذلك لسلب الادراك عن المدرك بسبب العارض فلا يكون ذلك قادحا فيهما وما أحسن ما قيل

ماضر شمس الضحى فى الافق طالعة * أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

والمراد ضرب المثل لانكار الآيات من الحاسدين فان انكارهم لا يضر رفعة شأنها وعلو رتبتها لعارض الحسد كما لا يضر انكار الأرمد للشمس والسقيم لطعم الماء وقد هنا للتحقيق كما فى قوله تعالى قد نرى تقلب وجهك فى السماء وقوله قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون قال شيخ الاسلام ولحملها على التعليل معنى لطيف وهو الايماء الى قلة الانكار لأجل الحسد بالنسبة الى التصديق من سليم الصدر كما أن انكار العين للشمس قليل لقلة الرمد بالنسبة الى

صحتها وكذلك ما بعد ولا يعزب عليك أن المحكوم بقلته هو انكار العين والفم والرمد والسقم لبيان محل القلة لا أنهما وصفان معتبران في محل القلة حتى تنكر حينئذ فافهمه وما ألطف تمثيل الناظم فان الحسد من الامراض العظيمة الناشئة عن انحراف المزاج فتسليط القوة الشهوانية مؤثر في هوان البدن أشد تأثير وذلك بكثرة الهموم والأحزان الواردة كلما التفتت النفس الى نعم المحسود فيتضاعف الغضب من غير ما ضرر يعود على المحسود ولا نفع يكون للحاسد مع ما في ذلك من الخسران الديني من الاعتراض على الحكمة الالهية وعدم الرضا بقسمة الفاعل المختار فالحاسد جان على حدقة التوحيد وعلى نفسه بما جرّ اليها من الكمد والاحزان وعلى المحسود بما يتمناه له من زوال النعمة ومن هنا كان الحاسد أظلم الناس كما قال أبو الطيب

وأظلم خلق الله من بات حاسدا * لمن بات في نعمائه يتقلب

على أحد احتمالين في البيت يظهر ثانيهما بعود ضميربات على الحاسد فافهمه

﴿يا خير من يمم العافون ساحته * سعيا وفوق متون الأينق الرسم﴾

التفات من الغيبة الى الخطاب وتلوين للنظم من باب الى باب تحريكا لنشاط السامع وتنبيها على ان المعروف بتلك الآيات العظام الدالة على رفعة شأنه جدير بأن يكون نصب عين كل مؤمل وفيه ايماء الى التنويه بآية الاسراء حيث مهد لها الخطاب وذكر الاوصاف المناسبة تلويحا الى أنه لا تنبغي حكايتها والخطاب في شأنها الا لصاحبها واستعمال حرف البعد للدلالة على علو رتبته ويممته وتيممته قصدته ومنه تيمم الصعيد للصلاة والعافون جمع عاف وهو طالب المعروف والساحة الناحية والفضاء بين الدور والسعي المشي والمتون جمع متن وهو الظهر وأصله ما يكتنف الصلب عن يمين وشمال فهما متنان أيمن وأيسر والأينق بتقديم الياء جمع ناقة والاصل أنوق بألف فنون فواو مضمومة استثقلوا ضمها فقدموها ساكنة ثم قلبوها ياء والرسم بضم الراء والسين جمع رسوم وصف الناقة التي تؤثر في الارض من شدة الوطء والمعنى وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه أفضل مقصود للسؤال لتحقق أنه بحر الفضل والنوال وانه أكرم من يممت أعتابه ورجيت لنيل المراد أبوابه والمراد من ذكر قسمي العافين من المشاة والركاب تعميم الاحاطة القاضي بأن أل في الجمع للاستغراق فلا يلزم اعتبار حقيقة الحركة الظاهرية وقصر المزية عليها بل المعنى على ارادة كل أمل ورجاء سواء بالحركة الظاهرة أو التوجه القلبي وصرف الهمة اليه وان راعيت خصوصية المناسبة للآية المذكورة بعد حملت اللفظ على ظاهره لتمام المناسبة وفيه ايماء لطيف الى أن نيل فضيلة الاسراء وما حصل فيها من المزايا والمكارم مناسبة لما تخلق به صلى الله عليه وسلم من أعلى رتبة الكرم البشري حتى كان حقيقا بأن يسعى اليه كل مؤمل ومن جنس العمل الجزاء ولا يعزب عنك تخصيص عموم من بالمخلوق بقرينة المقام أما اذا حملنا اللفظ على ظاهره من السعي والساحة وركوب النوق فهو القرينة الواضحة فتنبه

﴿ومن هو الآية الكبرى لمعتبر * ومن هو النعمة العظمى لمغتنم﴾

الكبرى تأنيث الاكبر والمعتبر اسم فاعل من اعتبرت الشئ اذا صرفت فكرك اليه والنعمة

رغد العيش واليد والمنة والعظمى تأنيث الاعظم والمغتنم اسم فاعل من اغتنمت الشئ أخذته غنيمة وهي الشئ الذي تفوز به والمعنى أنه عليه الصلاة والسلام الآية الكبرى الدالة على توحيد الله تعالى وتوحده بصفات الجلال والجمال وأنه المستحق للعبادة وذلك أن المراد من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام الدلالة على توحيد الله تعالى وهداية الخلق لعبادته والطهارة ما أظهر على أيديهم من المعجزات تدعيما للمراد منهم ولما كانت آياته صلى الله عليه وسلم أعظم الآيات وأكبرها كان هو الآية الكبرى الدالة على ذلك المراد ثم لما كانت بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام مجرد تفضل من الله ونعمة كما هو مذهب أهل الحق كان كل رسول نعمة ولا محالة فيكون أشرف الرسل وأكرمهم هو النعمة العظمى وهو مضمون المصراع الثاني ولا يخفى عليك أن صيغتي التفضيل تقضيان بالمشاركة في الأصل والانفراد بالتمزي وللتنصيص على هذا المراد أعاد كلمة من للايماء الى أن العطف على مدخول حرف النداء فيؤدي المراد فما توهمه بعضهم من عطف من هنا على من السابقة المسلط عليها لفظ خير مفسد للمعنى اذ التقدير ويا خير من هو الآية الكبرى الخ وقد علمت أنه خلاف المراد فافهمه وفي الوصف في البيت مناسبة أيضا لما يذكر بعد من آية الاسراء وذكرني قول الناظم الآية الخ قول أبي الطيب في ذم كافور وقد أبدع ما شاء

ولله آيات وليست كهذه * أظنك يا كافور آيته الكبرى

لعمرك ما دهر به أنت طيب * أيحسبني ذا الدهر أحسبه دهرا

﴿سريت من حرم ليلا الى حرم * كما سرى البدر في داج من الظلم﴾

سرى وأسرى بمعنى سار ليلا هذه طريقة جمهور أهل اللغة وقال السهيلي سرى لازم وأسرى متعد لكن كثر حذف مفعوله فظن أهل اللغة أنهما بمعنى واحد سبحان الذي أسرى بعبده أي أسرى البراق بعبده فحذف المفعول استغناء عنه لان المقصود بالخبر ذكر محمد صلى الله عليه وسلم أو حذف لقوة الدلالة عليه قال واتفق الرواة على تسميته اسراء ولم يقل أحد منهم سرى واتفق القراء على أسرى ولم يقل أحد منهم سرى اه بنقل شيخ الاسلام والحرم مكة المعروفة بحرم الله الشامل للمسجد منها وغيره واختاره عن المسجد الذي ورد به الكتاب ليأتي على كلتا الروايتين في الاسراء فقد روى عنه عليه السلام أنه قال بينا أنا في المسجد في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتاني جبريل بالبراق الحديث وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان نائما في بيت أم هانئ بنت أبي طالب بعد صلاة العشاء فأسرى به فعلى هذه الرواية يتأول ما في الكتاب المجيد بارادة الحرم أجمع من لفظ المسجد اذ كله مسجد وليلا نصب على الظرفية وتنكيره لارادة الوحدة دفعا لتوهم أن يكون الاسراء لعظمته في ليال ذوات عدد والمراد بالحرم الثاني بيت المقدس والبدر القمر عند كماله والداجي اسم فاعل من دجا الليل دجوا ودجوّا أظلم ومن الظلم صفة له لتأكيد والمعنى أن من آياته البينة التي لا سترة في كونها آية قضية المعراج الثابتة بنص الكتاب المجيد وأنها متضمنة لآيات كثيرة فبدأ حكايتها من مبدئها بقوله سريت أي أنه صلى الله عليه وسلم سار في الليل من حرم مكة الى المسجد الاقصى الذي لا يتيسر في المعتاد بلوغه الا بليال ذوات عدد كسير البدر في الليل الشديد الظلمة

وما ألطف هـذا التشبيه وقد أخذ المصراع الاول من قول نجم الدين عمارة بن أبى الحسن الحكمى حين قـدم من مكة الى مصر يمـدح ملكها عيسى بن الظافر العبيدى والعيس التى حملته اليه

ورحن من كعبـة البطحاء والحرم ＊ وفدا الى كعبة المعروف والكرم
فهـل درى البيت أنى بعـد فرقتـه ＊ ماسرت من حرم الا الى حرم

وقد أخـذه عبد الحكيم بن الخطيب القرافى اذ قال فى رجـل وجب عليـه القصاص فرماه المستوفى له بسهم أصاب كبده

أخرجت من كبد القوس ابنها فغدت ＊ تئن والأم قـد تحنو على الولد
وما درت أنه لما رميت به ＊ ماسار من كبد الا الى كبد

﴿وبت ترقى الى أن نلت منزلة ＊ من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم﴾

بات يفـعل كذا فعـله ليلا كما يقال ظل يفعله اذا فعله نهارا وترقى تصعد من رقيت السلم بكسر القاف اذا صعدت فيه وهو من الافعال التدريجية كما رأيت والمنزلة المرتبة ومن بيانية وقاب قوسين بيان لها والقاب المقدار أى مقدار قوسين وهى كلمة يكنى بها عن شدة القرب كقولهم هو منى مقـعد القابلة وهو منى معقد الازار وادراك الشئ بلوغـه ورومه طلبه والمعنى أنه عليه الصـلاة والسـلام لما بلغ المسجـد الاقصى عرج به الى السمـاء فبات يصعد فى درج الارتقاع الى أن بلغ مرتبة القرب التى لم يبلغها أحد ولم تخطر ببال أحد لعلو شأنها وبعـد شأوها قال شيخ الاسلام انما اقتصر على نفى الماضى ولم يتعرض لنفى المستقبل اكتفاء بأن هذا الكلام فى تفضيله على من ثبتت نبوته وما ثبت بالبرهان كونه نبيا لزم صـدقه قطعا وقد أخبر أنه لا نبى بعده فلم يشتغل الناظم بالاخبار عن المستقبل اه ثم صريح النظم أن الذى كان قاب قوسـين هو النبى صلى الله عليه وسـلم وهو الدانى المتدلى فى آية النجم روى عن ابن عباس محمـد دنا فتدلى من ربه وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال فارقنى جبريل وانقطعت عنى الاصوات وسمعت كلام ربى وفى الصحيح دنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منـه قاب قوسين أو أدنى فأوحى اليه بما شاء وقال جعـفر بن محمـد والدنو من الله لا حد له ومن العباد بالحدود وقال أيضا وانقطعت الـكيفية عن الدنو ألا ترى كيف حجب جبريل عليـه السلام عن دنوه ودنا محمد صلى الله عليـه وسلم الى ما أودع قلبه من المعرفة والايمان فتدلى بسكون قلبه الى ما أدناه وزال عن قلبه الشك والاشتباه قال القاضى أبو الفضل عياض رحمه الله تعالى اعلم أن ما وقع من اضافة القرب من الله أو الى الله فليس بدنو مكان وقرب بدن وانما دنو النبى من ربه وقربه منـه ابانة عظيم منزلته وتشريف رتبته واشراق أنوار معرفته ومشاهدته أسرار غيبه وقدرته ومن الله تعالى مبرة وتأنيس وبسط واكرام اه

﴿وقدمتك جميع الانبياء بها ＊ والرسل تقديم مخـدوم على خدم﴾

قدمتك أى اعترفت بتقدمك وأذعنت له وأصـله التقدم فى الحس ثم استعمل كثيرا فى السبق الى مراتب العز والشرف وهو المراد ها والضمير فى بها للمنزلة فى البيت السابق والباء للسببية والرسل عطف على الانبياء كما هو الظاهر وتقـديم مخدوم الخ نصب على المصـدرية

لبيان النوع وفيه دلالة على ارادة تقـديم الشرف والرتبة والمراد بالمخدوم على خدم الاشرف على الشريف والمعنى أن جميع الانبياء والرسل اعترفوا بتقدمه صلى الله عليه وسـلم بتلك المنزلة التى نالها من ربه ليـلة الاسراء وعلموا بها أنه أشرفهـم وأكرمهـم عنـد ربه وذلك باطلاعهم عـلى منزلته تلك وما أعلمهـم الله بها كما أشار الى ذلك أخذ العهد فى قوله جل اسمه واذ أخـذ الله ميثاق النبيين الى قوله قالوا أقررنا وقد وقع فى بعض روايات حـديث الاسراء أن جماعـة من النبيين أثنوا على الله تلك الليلة فقال النبى صلى الله عليه وسلم كلكم أثنى على ربه وأنا مثن على ربى الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين وكافة للناس بشيرا ونذيرا وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شئ وجعل أمتى خير أمة وجعل أمتى أمة وسطا وجعل أمتى هم الاولون والآخرون وشرح لى صـدرى ورفع لى ذكرى وجعلنى فاتحا وخاتما فقال ابراهيم عليه السلام بهذا فضلكم محمد اه فاقرار ابراهيم بفضيلته وتفضيله على الانبياء الحاضرين وهم أفضل بقية الانبياء على جميعهم الصلاة والسلام والافضل من الافضل أفضـل الجميع واذا تذكرت قول الناظم وكل آى البيت وقوله فانه شمس فضـل البيت وما تقـدم فى شرحهـما انشرح صدرك لما شرحناه به فان قيل هلا حمل التقديم على التقديم فى الصلاة لما ورد فى بعض روايات حديث الاسراء أنه صـلى الله عليه وسلم صلى بجماعـة من الانبياء فالجواب أن لفظ جميع زيد لدفع ارادة هـذا فافهمه فان قيل قول ابراهيم عليـه السلام فى تلك الرواية بهذا فضلكم محمد اشارة الى ماحمـد به ربه بما ينافى ارادة التفضيل بالمنزلة فالجواب أن ما ذكر من توابع المنزلة التى نالها فلا منافاة فان قيل ما وجـه الاقتصار على مزية تلك المرتبـة وان الانبياء يقرون بافضليته مطلقا فالجواب أن فى اقتصار الناظم على ذلك ايماء لطيفا الى أن اعتبارها مزية تفضـيل لا ينافى قوله صلى الله عليه وسلم لا تفضلونى على يونس بن متى المحمول عند بعض العلماء على معنى نفى المزية بكونى قاب قوسين وكونه فى ظلمات ثلاث اذ ليس القرب حسـيا وان كلا بالنسـبة الى علمه تعالى سواء ووجه عدم المنافاة أن اسـتواء الرتبتين بالنسبة الى علمـه تعالى وقـدرته لا ينافى التشريف بالنسبة الى ما تقتضيه احـدى الرتبتين من اظهار الشرف واعلان التميز فافهمه

﴿وأنت تخترق السبع الطباق بهم ＊ فى موكب كنت فيه صاحب العلم﴾

الواو للحال وأصـل مادة الاخـتراق من خرق الثوب شـقه ومزقه وتجوز به فقيـل خرقت المفازة قطعتها واخترقت الارض مررت بها عرضا على غير طريق كذا فى الاساس والظاهر الحمل على المجاز بتشبيه مجاوزة أجرام السموات بشق الثياب لما أنها أجسام غـير حاجـبة وفى اختياره المـادة ايماء الى خرق العادة فى ذلك بناء على رأى الحكماء فى الافلاك من أنها لا تقبل الخرق والالتئام والسبع الطباق السموات السبع لكونها واحدة فوق أخرى وبهم باؤه للمصاحبة والضمـير للانبياء لا بقيـد الجميع اذ المراد خصوص الانبياء الذين تلقوه فى السموات الآتى ذكرهم فى حـديث الاسراء ان شاء الله كما أن المراد المصاحبة لهـم فرادى كما يدل عليـه الحديث الآتى والموكب الجماعة ركبانا أو مشاة أو ركاب الابل للزينة والعلم الراية وصاحب العـلم كناية عن الرياسـة والمعنى وقد تقدمتك جميع الانبياء فى حال كونك مجاوزا

السموات السبع فى جماعة من الملائكة الكرام اجتمعوا اجتماع زينة اهتماما بقدومك كما يفعل بملاقاة العظماء واحترس بقوله كنت فيه الخ عن كونه صلى الله عليه وسلم فى ذلك الموكب أجنبيا منه تلقى به تعظيما فأفاد بانه أصيل فيه بل هو عماده وبه احتفلت زينته وبهذا يستفاد من النظم أنه أفضل من الملائكة كما استفيد مما قبله أنه أفضل من الانبياء فلله دره ما أمتن نظمه رحمه الله

﴿حتى اذا المدح شأوا لمستبق * من الدنو ولا مرقى لمستنم﴾

حتى غاية لترقى اذ هو الاصل فى الاخبار ولانه أعلق بالتدريج من تخترق مع أنه ذكر قيدا والشأو الغاية والامد والمستبق المسابق والدنو القرب والمرقى جمع مرقاة وهى الدرجة والمستنم اسم فاعل من استنم أى علا والمعروف تسنم يقال تسنم الحائط أى علاه كذا قال شيخ الاسلام وهو موافق لما فى كتب اللغة فلعل أصل رواية النظم لمستنم بالنون وكلمة اذا شرطية جوابها خفضت فى قوله

﴿خفضت كل مقام بالاضافة اذ * نوديت بالرفع مثل المفرد العلم﴾

الخفض الحط ضد الرفع وعند النحاة اللفظ المعروف أو الحالة المدلول عليها به وأصل المقام موضع القيام ويتجوز به عن الرتبة كما هنا والاضافة فى الاصل الامالة الى الشئ والاسناد اليه قال امرؤ القيس

فلما دخلناه أضفنا ظهورنا * الى كل حارى جديد مشطب

ويتجوز به عن الاسناد المعنوى كما هنا ومنه الاضافة عند النحاة بمعنى النسبة المخصوصة نوديت بمعنى دعيت والرفع ضد الخفض وعند النحاة الحركة أو الحالة المعروفتان ومثل كلمة تسوية والمفرد الذى لا يماثله أحد فى جنسه من استفرد الشئ أخذه فردا لا ثانى له ولا مثل واختار المفرد عن الفرد الشائع فى ذلك المراد تكميلا للتورية والعلم سيد القوم والجمع أعلام. ومعنى البيتين أنه صلى الله عليه وسلم لم يزل راقيا فى مقامات العلى حتى اذا بلغ منها المرتبة التى لم تبق بعدها مرتبة وغاية يطمع فيها المتسابق ويحدث نفسه بها المتسنم الطالب للعلو ظهر انحطاط كل مقام بسبب تلك النسبة والاسناد الذى بلغه اذ دعى فى ذلك المقام دعاء مصاحبا لرفعة شأنه وهو الفرد الذى ساد قومه فلفظة مثل هنا مثلها فى قولهم مثلك لا يبخل والمراد بالنداء نداؤه للمعراج وللدخول الى حيث لم يصل له نبى غيره وخصوص النداء بصيغته فقد روى أنه عليه السلام لما وصل الى العرش وهو منتهى السكون والمكان قيل له السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته فقال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وعن ابن عباس فى قوله دنا فتدلى قال فارقنى جبريل فانقطعت الاصوات فسمعت كلام ربى وهو يقول ليهدأ روعك يا محمد ادن ادن اهـ ودخل فى قوله كل مقام مقام النبيين والملائكة وبما بينا من أن المراد به اظهار ذلك لعلو مرتبته يعلم أن ليس المراد الظاهر وهو حدوث الخفض كما ظهر أن لا حقيقة للنداء النحوى ولا للمفرد العلم المراد من أقسامه عند أرباب صناعته كما ظن شيخ الاسلام فاوسع الكلام فى البناء على ذلك فراجعه ان شئت نعم أحسن الناظم كل الاحسان فى التورية بتلك الالقاب الاصطلاحية مع مراعاة النظير والتورية ظاهرة فى تلك الالقاب

الاصطلاحية

قوله والمرقى جمع مرقاة الخ المرقى كما فى كتب اللغة موضع الرقى لا جمع مرقاة فان جمعها مراق وقوله فلعل أصل رواية النظم الخ هو الذى كتب عليه الشيخ خالد وعمر ... [illegible]

الاصطلاحية وهى بجمعها مرشحة كل واحدة ترشح الاخرى ومن جيد التورية بألقاب الصناعات النحوية وان لم تبلغ حسن هذا النظم فيها قول أبى الحسن الغراب أحد الشعراء التونسيين

غدا الشوق من دمعى وسقمى مظهرا * علىّ ولكن فاعل الشوق مضمر

وكانت له اليد الطولى فى هذا النوع حتى كاد أن يكون غالب شعره ايهاما وتورية بلا تكلف فمن جيد قوله فى ذلك فى مليح يجمع حب الزيتون

جمعت هوى ظبى وقد كان جامعا * لزيتونة من فوق أغصانها النوى

أيا جامع الزيتونة الفائت الورى * تفضل بمعروف على جامع الهوى

ومن جيد مراعاة النظير ما تقدم صدر الشرح من قول ابن رشيق

أصح وأقوى ما سمعناه فى الندى * من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث ترويها السيول عن الحيا * عن البحر عن كف الأمير تميم

﴿كيما تفوز بوصل أىّ مستتر * عن العيون وسرّ أىّ مكتتم﴾

كى حرف جرّ معناه التعليل كاللام والفعل بعدها منصوب بأن مقدرة وقد تدخل عليها اللام فتكون مصدرية ناصبة بنفسها وما زائدة والفوز الظفر بالمطلوب وأى صفة دالة على الكمال تضاف الى مثل موصوفها تقول مررت برجل أىّ رجل أى كامل فى وصف الرجولية وقد يحذف موصوفها كما هنا اذ التقدير بوصل مستتر أىّ مستتر تتميما الاصل استعمالها ولا يلزم هذا التقدير فى أى مكتتم فان السر مما يماثل معنى الكتمان والمماثلة ولو معنى كافية فى صحة استعمالها يقال مررت برجل أىّ فتى والاستتار الاحتجاب وعن العيون يتعلق به والمكتتم المخفىّ والمعنى كان ما كان من الترقى ونيل المنزلة والوصول الى مرتبة انحطت عنها جميع الرتب لتنال الوصل المستتر أكمل استتار عن عيون كل الأغيار وتظفر بالسرّ المكتوم الذى لم يطلع عليه ملك مقرّب ولا نبىّ مرسل فيتحقق مقام المحبوبية بلا ريب فان شأن وحال المحبوب الاستتار لاظهار مكانته بالانفراد ولله درّ الفارضى اذ يقول على لسان الحضرة المحمدية

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا * سرّ أرق من النسيم اذا سرى

وقد وقع التصريح بما أفاده ذلك التلويح عن الوصول الى سدرة المنتهى كما فى رواية أبى هريرة رضى الله عنه من طريق الربيع بن أنس رضى الله عنه قال الله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم سل فقال انك اتخذت ابراهيم خليلا وأعطيته ملكا عظيما وكلمت موسى تكليما وأعطيت داود ملكا عظيما وألنت له الحديد وسخرت له الجبال وأعطيت سليمان ملكا عظيما وسخرت له الجن والانس والشياطين والرياح وأعطيته ملكا لا ينبغى لاحد من بعده وعلمت عيسى التوراة والانجيل وجعلته يبرئ الاكمه والابرص وأجرته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن له عليهما عليهما السلام سبيل فقال له ربه قد اتخذتك حبيبا فهو مكتوب فى التوراة محمد حبيب الرحمن وأرسلتك الى الناس كافة وجعلت أمتك هم الاولون وهم الآخرون وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى وجعلتك أوّل النبيين خلقا وآخرهم بعثا وأعطيتك سبعا من المثانى لم أعطها نبيا قبلك وأعطيتك

خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشى لم أعطها نبيا قبلك وجعلتك فاتحا وخاتما فكانت أول خزينة فى هذا الحديث مزية المحبوبية التى شهد لها الحال وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما عبر بكى موسى عليه السلام وقال صعد شيخ ورفع شاب فقيل له انه الحبيب وأما السر المشار اليه فى البيت فهو العلوم الربانية والاسرار القدسية التى ملأ ربه بها قلبه حتى صار مدينة العلم ولتهويل شأن ذلك جاء الابهام فى قوله جل اسمه فأوحى الى عبده ما أوحى روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنى ربى ليلة الاسراء علوما شتى فعلم أخذ على كتمانه وعلم خيرنى فيه وعلم أمرنى أن أبلغه وهو قوله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وكان صلى الله عليه وسلم يسر الى أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ما خبره فيه ربه كما كان يسر الى حذيفة رضى الله عنه من علم الحدثان وعلم المنافقين وفى الصحيح من حديث حذيفة رضى الله عنه حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم علمين أما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته لقطع منى هذا البلعوم وأنت تعلم بتقسيم حديث ابن عباس أن لا اشكال فيما أخفى صلى الله عليه وسلم فاندفعت الظنون التى ذكرها شيخ الاسلام

﴿فحزت كل فخار غير مشترك ＊ وجزت كل مقام غير مزدحم﴾

حوز الشئ ضمه الى النفس والفخار بفتح الفاء مصدر فخر يفخر فخرا اذا تمدح وبالكسر مصدر فاخرته ففخرته اذا صرت أكثر منه فخرا ومشترك بفتح الراء اسم مفعول صلته محذوفة أى غير مشترك فيه وغير نصب على الحال من ضمير الفاعل والجواز تعدى الشئ وقطعه والمراد هنا لازم ذلك وهو الحلول وازدحم القوم على كذا تضايقوا والصيغة كمشترك ومعنى هذا البيت كالفذلكة لما تقدم والنتيجة له ولهذا صدره بالفاء ومعناه أنه علم مما تقدم أنه صلى الله عليه وسلم نال كل فخار من دون مشاركة ووصل كل مقام من غير مزاحم ولا يخفى تقييد كل بما يلائم المخلوق هذا ظاهر النظم غير أنه يرد عليه أن نفى الشركة فى كل فرد من أفراد الفخار ونفى المزاحمة فى كل فرد من أفراد المقامات بين المخالفة للواقع فكثيرا ما شاركه غيره من الانبياء والملائكة فى بعض أفراد الفخار والمقامات وأجاب شيخ الاسلام بحمل الكلية على المجموع كما يقال كل الناس يحمل الصخرة العظيمة وهو وان كان دفعا لكنه خلاف الظاهر مع أنه لا كبير مدح عليه وعندى أن قوله غير فى الاول صفة فخار وفى الثانى صفة مقام والضمير المستكن عائد على الموصوف على طريق الحذف والايصال والمعنى حزت كل فخار لا اشتراك فيه وجزت كل مقام لا ازدحام فيه فيكون مدحا عاليا اذ يقتضى المشاركة والانفراد وهو المراد فتدبر فانه الملاقى لما تقدم وما ذكره بعد فى قوله

﴿وجل مقدار ما أوليت من رتب ＊ وعز ادراك ما أوتيت من نعم﴾

جل عظم ومقدار الشئ مبلغه وولى الامر ولاية صار واليا عليه والرتبة المنزلة وكذا المرتبة وعز الشئ يعز عزا وعزة وعزازة قل لا يكاد يوجد فهو عزيز وأوليته الاحسان أوصلته اليه ومعنى البيت واضح وهو مضمون سابقه على عكس ترتيبه الا أن الاول أفاد أنه صلى الله عليه وسلم حصل على الامرين فيه وأفاد بهذا الانباء عن عظم شأن ذينك الامرين فكان لكل معنى

﴿وأصل﴾ قصة الاسراء التى عقد الناظم فيها هذه الابيات ثابت بنص الكتاب قال جل ثناؤه سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا وفى الصحيح عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك وهو أجود طريق فى رواياتها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى تربط بها الانبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفطرة ثم عرج بى الى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت فقال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا بآدم صلى الله عليه وسلم فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح فاذا أنا بابنى الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكرياء صلى الله عليهما وسلم فرحبا بى ودعوا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء الثالثة فذكر مثل الاول ففتح لنا فاذا أنا بيوسف عليه السلام واذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء الرابعة وذكر مثله فاذا أنا بادريس فرحب بى ودعا لى بخير قال الله تعالى ورفعناه مكانا عليا ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فذكر مثله فاذا أنا بهرون فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء السادسة فذكر مثله فاذا أنا بموسى فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا الى السماء السابعة فذكر مثله فاذا أنا بابراهيم عليه السلام مسند ظهره الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون اليه ثم ذهب بى الى سدرة المنتهى فاذا أوراقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال قال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الله الى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة فنزلت الى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك لا يطيقون ذلك فانى بلوت بنى اسرائيل وخبرتهم قال فرجعت الى ربى فقلت يا ربى حط عن أمتى فحط عنى خمسا فرجعت الى موسى فقلت حط عنى خمسا قال ان امتك لا يطيقون ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف قال ولم أزل أرجع بين ربى تعالى وبين موسى حتى قال يا محمد انهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه شيئا فان عملها كتبت عليه سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت الى موسى فاخبرته فقال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت قد رجعت الى ربى حتى استحييت منه انتهى قال القاضى عياض رحمه الله لم يأت أحد غير ثابت بأصوب من هذا وقد خلط فيه غيره عن أنس تخليطا كثيرا اه وقد وقعت فى أحاديث الاسراء زيادات كثيرة ذكرنا ما أشار اليه الناظم منها فى شرح أبياته المتقدمة ＊ واعلم أن مذهب معظم السلف والمسلمين أن الاسراء بجسده صلى الله عليه وسلم يقظة قال عياض وهو الحق وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما وكثير من الصحابة وقيل بالروح مناما ومن حجتهم

ماحكوا عن عائشة رضي الله عنها ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي حكاية موهونة اذلم تكن عائشة رضي الله عنها زوجة له صلى الله عليه وسلم زمن الاسراء لانه وقع قبل الهجرة قيل بخمسة أعوام قال عياض وهو الأشبه وقيل قبلها بعام وكانت عائشة في الهجرة بنت ثمانية أعوام ولم يدخل بها صلى الله عليه وسلم الا بالمدينة قال عياض وهذا كله يوهن المنقول عنها بل الذي يدل عليه صريح قولها أنه بجسده لا نكارها أن تكون رؤياه لربه رؤيا عين ولو كانت عندها مناما لم تنكره انتهى ﴿تنبيه﴾ وقع للقاضي عياض في القول بان الاسراء بجسده صلى الله عليه وسلم بعد ما نسبه لجماعة ما نصه وهو دليل قول عائشة رضي الله عنها انتهى فوقع في الوهم أن المراد بذلك المحكي عنها بقولها ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترض قوله وهو دليل قول عائشة الخ بقوله كيف يكون الاسراء يقظة دليل قول عائشة ما فقدت جسده الشريف الدال على أنه مناما لا يقظة وهذا عجيب فهذا سهو منه بلا ريب قال الشهاب لا شك أنه وارد وان كلامه لا يخلو من اشكال اه وأنت تعلم أن ليس المراد بقول عائشة ما وهموا فيه ومراده هو قولها بانكار الرؤية البصرية كما أوضحه القاضي فلله الكمال وفي بعض طرق حديث الاسراء أنه صلى الله عليه وسلم قبض على يديه فنودي يا محمد افتح يدك فقال الهي في احدى يدي حسنات أمتي وفي الاخرى سيآتهم فنودي يا محمد افتح يدك فقد قبلنا حسناتهم وغفرنا سيآتهم ولما أراد الانصراف قال رب ان لكل قادم من سفره تحفة فما تحفة أمتي قال أنا لهم ما عاشوا وأنا لهم اذا ماتوا وأنا لهم في القبور وأنا لهم في النشور انتهى فهنيأ لنا بهذه التحفة العظمى وكانت لنا بهذا المصطفى المزية الكبرى فحق لنا اظهار كمال السرور والاعلان بالبشارة أداء لحق النعمة وكان من أجمل الكلام موقعا قوله عقيب هذا

﴿بشرى لنا معشر الاسلام ان لنا * من العناية ركنا غير منهدم﴾

بشرى مصدر بشرته وبشرته مخففا ومشددا اذا أخبرته أولا بما يسره فلا تكون الا في الخبر ولا تطلق على الاخبار الثاني وأما فبشرهم بعذاب أليم فعلى التجوز والمعشر الجماعة والاسلام لغة الانقياد وفي الشرع ما تضمنه حديث جبريل الثابت في الصحيحين وفي كونه مرادفا للايمان أم لا الكلام الطويل المعروف في أصول الدين وأصول الفقه وركن الشئ جانبه الاقوى ويتجوز به عن العز والمنعة يقال فلان يأوي الى ركن شديد أي الى عز ومنعة والمعنى لما تبين من رتبته صلى الله عليه وسلم ما تبين وشرح من مقامه وما فضله الله به مما شملته قصة الاسراء الذي منه اظهار فضله وتميزه على كل نبي مرسل وكان من البين أن شرف المتبوع يستدعي شرف التابع فلاجرم كانت أمة الاجابة وهم معاشر الاسلام جديرين بالبشرى والسرور وحقيقين بالفرح والحبور حيث كان انتسابهم الى ذلك المقام المعظم شأنه الدال ذلك الانتساب على كمال عناية الله بهم ولله در الامام الشافعي اذ يقول

ومما زادني شرفا وتيها * وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي * وأن صيرت أحمد لي نبيا

﴿لما دعا الله داعينا لطاعته * بأكرم الرسل كنا أكرم الامم﴾

دعا

دعا ساق وداعينا ما يدعونا الى الخير أو الشر من العقل أو النفس شبه حمل أحدهما الانسان على احدى الحالتين بالداعي اليها وقد شاع لفلان داع لكذا اذا كان له باعث من نفسه عليه وضمير المتكلم مع غيره مراد به معشر الاسلام المتقدم الذين هم أمة الاجابة وضمير الغيبة المضاف اليه الطاعة للنبي صلى الله عليه وسلم وبأكرم الخ يتعلق بالفعل بعده والمراد بأكرم الرسل هو المراد بالضمير أعاده بالظاهر على خلاف مقتضى الظاهر تصريحا بوصفه الذي هو سبب وصف أمته بعد والمعنى لما ساق الله الباعث من أنفسنا الذي هو مناط التكليف وهداه الى طاعته صلى الله عليه وسلم التي هي طاعة الله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله كنا معشر الاسلام المجيبين المطيعين باجابة أكرم الرسل أكرم الامم قال تعالى كنتم خير أمة أخرجت للناس وكذلك جعلناكم أمة وسطا وأما كونه عليه الصلاة والسلام أكرم الرسل فما لا يحتاج الى دليل وفي قوله داعينا ايماء لطيف الى سبقية العناية الربانية بمن أراد الله هدايته وان ما برز للخارج تابع للقدر السابق وأن كلا ميسر لما خلق له كما صرح به الحديث الصحيح هذا ولشيخ الاسلام محمل للبيت تنافرت به معانيه وأشكلت عليه مبانيه فراجعه مع التأمل لتعلم ما فيه

﴿راعت قلوب العدا أنباء بعثته * كنبأة أجفلت غفلا من الغنم﴾

راعه يروعه روعا أفزعه وأل في العدا جنسية والانباء الاخبار والبعثة بكسر الباء الارسال والنبأة الصوت وقيل الخفي و جفلت الغنم وأجفلت أسرعت في الهروب وأجفلها غيرها صيرها جافلة والغفل جمع غافل والغنم اسم جنس مؤنث يطلق على الذكر والأنثى والمعنى أن أخبار بعثته صلى الله عليه وسلم التي صدرت من الكهان والمنجمين وغيرهم أفزعت قلوب الاعادي لدينه لما كانوا يسمعون أن دينه سيظهر على كل دين وانه يسفه أحلامهم ويبين ضلالهم ويضع السيف في رقاب مخالفيه فتحيروا لذلك أشد التحير وذهبوا كل مسلك يرونه منجيا من أمره مذبذبين لا يدرون أين المقصد النافع كما هو شأن غفل الغنم اذا سمعت صوتا مفزعا فتنفر شذر مذر ولات حين مفر ومصداق قوله حكايات كثيرة تضمنتها كتب السير والحديث منها ما في صحيح البخاري من حديث أبي سفيان حين أرسل اليه هرقل في ركب من قريش وسأله عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو سفيان فلما فرغ هرقل من قراءة كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعثه اليه مع دحية وأخرجنا كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات فقلت لأصحابي لقد أمر أمر ابن أبي كبشة يعني النبي صلى الله عليه وسلم كناه بذلك لأن بعض أجداده لامه يسمى أبا كبشة انه ليخافه ملك بني الاصفر قال أبو سفيان فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الاسلام اه وكان ابن الناطور صاحب ايلياء يحدث أن هرقل حين قدم على ايلياء أصبح يوما خبيث النفس فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك وكان ينظر في النجوم فقال رأيت الليلة حين نظرت أن ملك الختان قد ظهر فمن يختتن من هذه الامة قالوا ليس يختتن الا اليهود فبيناهم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبرهم عن خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظروه فوجدوه مختتنا وسألوه عن العرب فقال يختتنون فقال هرقل هذا ملك هذه الامة قد ظهر ثم كتب لصاحبه برومية نظيره في العلم

وسار الى حمص فأتاه كتاب صاحبه بما يوافق على خروج النبىّ صلى الله عليه وسلم فجمع هرقل عظماء الروم وغلق الابواب وقال يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وثبت ملككم فتبايعوا هذا النبىّ فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الابواب فوجدوها قد غلقت فلما رأى نفرتهم وأيس من ايمانهم قال ردّوهم فقال لهم انى قلت مقالتى أختبر بها شدّتكم على دينكم وقد رأيت فسجدوا له ورضوا عنه اه وقد تقدّم ذكر شئ من ذلك فى أخبار مولده صلى الله عليه وسلم

﴿مازال يلقاهم فى كل معترك * حتى حكوا بالقنا لحما على وضم﴾

مازال كلمة دوام وضميرها له عليه السلام وضمير الجمع بعد للعدا وحكوا اشابهوا والقنا جمع قناة وهى الرمح وباؤه سببية متعلقة بحكوا والوضم مايوضع عليه اللحم من الخشب ونحوه ليتوقى به الارض قال الشاعر

ليس براعى ابل ولاغنم * ولابجزار على ظهر وضم

ويقال للحقير الذليل لحم على وضم على طريقة الاستعارة ومنه يتبين وجه التشبيه فى النظم والمعنى أن الكفار الذين روّعتهم أنباء بعثته صلى الله عليه وسلم شاهدوا ماخافوه ولحقهم ماطيروا منه من وقع السيف فيهم واصابة الرماح لهم حتى جرّعوا كأس المذلة وكسوا لباس الهوان فصاروا والغاية مذلتهم كاللحم على الوضم وفى اختيار هذا التشبيه للمذلة مناسبة تامة للتشبيه فى البيت السابق أى كما أن نفرة الغنم وفزعها من الصوت غير مانع من استئصالها ومآ لها أن تكون لحما على وضم كذلك نفرة الكفار عند سماع مبعثه لم يكن نافعا ومآلهم بعنادهم المذلة والهوان

﴿ودوا الفرار فكادوا يغبطون به * أشلاء شالت مع العقبان والرخم﴾

ودوا تمنوا والضمير للعدا والفرار مصدر فرّ يفرّ اذا هرب وكاد يفعل كذا قارب ولم يفعل ومن ثم كان ايجابها نفيا ونفيها ايجابا كما قيل فى فذبحوها وما كادوا يفعلون ولايخفى مافيه وأن المراد بما كادوا الآية تأسيس معنى الاخبار بعسر الامر قبل الفعل كما صرح به فى التسهيل والغبطة تمنى مثل حال المغبوط من غير ارادة زواله وأشلاء جمع شلو بكسر الشين وسكون اللام وهو العضو من اللحم وأشلاء الانسان أعضاؤه بعد البلا والتفرق وهم أشلاء فى بنى فلان أى بقايا فيهم وشالت ارتفعت والعقبان جمع عقاب وهو الطائر المعروف والرخم جمع رخمة وهو طائر معروف أيضا ويقال له الأنوق وعشه لاينال حتى قيل فى المثل أعز من بيض الأنوق والمعنى أن العدا بسبب مالحقهم من المذلة والهوان تمنوا الفرار والنكوص بالادبار وذلك من أقبح الصفات عند العرب التى بها يتشاتمون وبضدها يفتخرون قال بشامة بن حرب النهشلى

انى لمن معشر أفنى أوائلهم * قول الكماة ألا أين المحامونا
لو كان فى الألف منا واحد فدعوا * من فارس خالهم اياه يعنونا
اذا الكماة تنحوا أن ينالهم * حد الظباة وطئناهم بأيدينا

وقال قطرىّ بن الفجاءة المازنى

لايركنن أحد الى الاحجام * يوم الوغى متخوّفا لحمام

فلقد أرانى للرماح دريئة * من عن يمينى مرّة وأمامى

ومن تتبع وقائع العرب وأيامها علم يقينا أن الموت عندهم أهون من الفرار وأنه من أسمات المؤسسة للعار وأن الموت عندهم فى المعارك هو الحياة كما قال الحصين بن الحمام

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد * لنفسى حياة مثل أن أتقدما

لما حملهم على تمنيه مع عدم الفوز به الا الهوان الأعظم وبعض الشرّ أهون من بعض فـفى حكاية التمنى عنهم اشارة الى شدّة مالحقهم من المذلة والخطيطة وكفى أنه بلغ بهم الحال الى تمنى عدم البقاء على تلك الحالة ولو بالقتل كما أشار اليه فكادوا الخ أى أنهم غبطوا الأموات منهم الذين طارت العقبان والرخم بأعضائهم ولايخفى مافى ذلك من الاستتباع اللطيف اذ كان بصدد الاخبار عما لحق الاعداء من المذلة فأومأ الى أن ذلك مختص بالأحياء منهم أما من سبق اليه السيف فقد صار نهبة الطيور وفى عنوان جمع الكثرة فى العقبان ايماء الى كثرة هذا النوع فاذا كانت حالة أعدائه المرتاعين ببعثته مابين حىّ فى قيد الهوان ومابين ميت صار نهبة للرخم والعقبان فلله درّ الناظم ما أبدع لطائفه وهو مأخوذ من قول أبى الطيب

يطمع الطير فيهم طول أكلهم * حتى تكاد على أحيائهم تقع

﴿تمضى الليالى ولايدرون عدّتها * مالم تكن من ليالى الأشهر الحرم﴾

تمضى بمعنى تذهب والليالى جمع واحده ليلة ولما كان أصل التاريخ الليل اعتبرت الليالى فى الاستعمال مرادا بها مايشمل أيامها وفى عنوان الجمع ايماء الى ذلك لتوسط الايام بين الليالى وفيه أيضا تنبيه على شدّة الروع والخوف وأنهم لايأمنون فى الاوقات التى شأنها السكون والراحة فكيف الحال فى أوقات النهار والدراية والعلم بمعنى والعدّة العدد والأشهر الحرم ذو القعدة والحجة والمحرم ورجب وسميت حرما لحرمة القتال فيها فى الاسلام وكذا فى الجاهلية عند عامة العرب الا خثعما وطيئا فانهما يستحلانها ومن ثم كان صاحب النسىء يقول حرمنا عليكم القتال فى هذه الاشهر الحرم الادماء المحلين ومعنى البيت أن المشركين لشدّة ماداخل قلوبهم وخامر نفوسهم وشغل بواطنهم من الرعب والفزع من أهوال مواقع قتال الصحابة رضى الله تعالى عنهم انتفى عنهم الادراك حتى كأنهم لايدركون أول المدركات وهو عدد الايام الذى يستوى فى العلم به النبيه والغبىّ لما الظن باهمال مشاعرهم واقامة مواسمهم المنوطة بتعيين الايام وتعطيل سائر ضرورياتهم والروع اذا استولى على القلب حجب الادراك وأثبت شبه الوله وحير الافكار وربما تفاقم أمره حتى يعقبه الموت وقوله مالم تكن الخ يعنى به أنهم اذا أمنوا من الصولة والدفاع فى تلك الاشهر واطمأنت قلوبهم بعض الاطمئنان رجع اليهم ادراكهم فتنبهوا لمعرفة الايام وعددها وفيه ايماء لطيف الى أنهم لايرجعون الى الادراك الكلى لما يتوقعونه من عود الأمر بعد انقضاء تلك الايام بل هذه الحالة عليهم أشد كما هو بديهىّ هذا وتحريم القتال فى الاشهر الحرم كان من عهد ابراهيم واسمعيل عليهما السلام وذلك لما دعا ابراهيم عليه السلام لذريته بمكة اذ كانوا بواد غير ذى زرع أن يجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم فكان فيما فرض على الناس من حج البيت قوام لمصلحتهم ومعايشهم ثم جعل الاشهر الحرم أربعة ثلاثة سردا وواحدا فردا وهو

رجب أما الثلاثة فللحجاج واردين الى مكة وصادرين عنها شهرا قبل شهر الحج وشهرا بعده قدر ما يصل الراكب من أقصى بلاد العرب ثم يرجع وأما رجب فللعمار يأمنون فيه مقبلين وراجعين نصف شهر للاقبال ونصفه للرجوع اذ لا تكون العمرة من أقصى بلاد العرب كما يكون الحج وأقصى بلاد المعتمرين خمسة عشر يوما فكانت الاقوات تأتيهم فى المواسم أبق هذا الامر من ملة ابراهيم الى أن جاء الاسلام فكان القتال فيه محرما صدرا من الاسلام ثم اباحته آية السيف وبقيت حرمة الاشهر الحرم لم تنسخ قال الله تعالى منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم فتعظيم حرمتها باق وان أبيح القتال فيها وقد روى عن عطاء أن تحريم القتال فيها حكم ثابت لم ينسخ كذا فى الروض الانف

﴿كأنما الدين ضيف حل ساحتهم * بكل قرم الى لحم العدا قرم﴾

حل بالمكان يحل بالضم نزل والقرم بكسر الراء السيد وأصله من أقرمت البعير فهو مقرم اذا أكرمته ولم تحمل عليه شيأ والقرم بكسر الراء صفة من قرم الى اللحم أى اشتهاه وضمير الجمع لما دلت عليه الضمائر قبل وهم العدا * والمعنى كأن دين الاسلام لما نزل بساحة ديار العدا من الكفار ضيف بمعشر من السادة كل منهم يشتهى لحوم العدا حل بديارهم وهم أقرى الناس للضيف وأبعد من معرة اللؤم فلا جرم يقيلون ضيفهم خصوصا اذا كان سيدا ما يشتهيه والمراد التلميح بسرعة وقع سهام الاسلام فيهم وسهولة استئصالهم حتى كأنه أمر وقع عن طيب أنفسهم بل وقع لتشييد مكارمهم المألوفة وطباعهم المعروفة كأن لم يكن موقع دفاع ولا مظنة قراع وفيه استتباع بمدح نوع العرب بذلك الوصف الذى خصهم الله به سواء فيه مسلمهم وكافرهم هذا ولشيخ الاسلام فى شرح البيت وما قبله محمل ردى وكلام عند العارف غير مرضى فراجعه ان شئت

﴿يجر بحر خميس فوق سابحة * يرمى بموج من الأبطال ملتطم﴾

يجر يقود وضميره للنبى صلى الله عليه وسلم أو الى الدين وهو أقرب وأرشق معنى كما سيأتى فى بيان المعنى ان شاء الله والخميس الجيش سمى به لانه مخمس مقدمة وقلب وميمنة وميسرة وساق واضافة البحر اليه من اضافة المشبه به الى المشبه وسابحة وصف للفرس مرادا به الجنس يقال فرس سابح اذا امتد يده للجرى وهو مأخوذ من السباحة فى الماء بمعنى العوم ولا يخفى ما فى التركيب من الغرابة اذ شأن البحر السبح فيه وكونه فوق السابحة من المستغرب والأبطال جمع بطل بالتحريك وهو الرجل الشجاع والتطام الامواج ضرب بعضها بعض * والمعنى أن الدين يقود الى الكفار جيشا كالبحر فى اتساعه وعظم أهواله متعاقبة أبطاله فى الاقدام تعاقب أمواج البحر تحملهم سابحة أى جنسها الشامل للوحدة والتعدد المراد هنا ولا بد من الحمل على التغليب ويقرب أن سابحة مستعار لعزيمة النافذة التى يعقبها الفعل فيبقى مدلول وحدة اللفظ على ظاهره والنسبة الى الجميع كذلك والمعنى أن ذلك الجنس مع كثرته واتساعه محمول لعزيمة واحدة وذلك مما يوجب شدة قوته ونفوذ شأنه بحيث ان القلة مع اتحاد العزيمة لا تقابلها الكثرة مع تعدد العزائم كما هو الشأن فى غزواته صلى الله عليه وسلم ومن هنا ورد الحث على الاجتماع وعدم التفرق وجاء يد الله مع الجماعة ويؤيد هذا المحمل نسبة الجر الى الدين

المفيد

المفيد أن ذلك الجيش لا محرك له الا الدين وأن تكون كلمة الله هى العليا والباعث اذا كان دينيا كان أشد وحدة وأبعد شئ عن التفرق ومن ثم كان مركز الاجتماع المأمور به فى قوله واعتصموا بحبل الله جميعا واختيار صيغة المضارع للدلالة على التجدد على معنى أن ذلك الجر يتجدد مرة بعد أخرى

﴿من كل منتدب لله محتسب * يسطو بمستأصل للكفر مصطلم﴾

بيان للأبطال المنتدب اسم فاعل انتدب للامر أجاب اليه وهو مطاوع ندبه اليه اذا دعاه ولله متعلق به على تقدير مضاف أى لدعاء الله ومحتسب صفة لمنتدب من احتسب فعلا قدمه وادخره ومتعلقه معتبر نظير الاول والسطو القهر بالبطش والمستأصل القالع يقال استأصله قلعه وللكفر مفعوله والمصطلم من الصلم بمعنى القطع أو قطع الاذن والانف كذا فى القاموس والمعنى أن أولئك الابطال كل منهم مسرع لدعاء الله تعالى ورسوله الى القتال والجهاد محتسب أجره فى ذلك عند الله أى جاعل قتاله ذخرا عند الله وذلك بكمال اخلاص العمل لله دون شائبة غرض آخروان كلا منهم ذو آلة قاطعة للكفر قالعة له وحيث كانوا فى الاخلاص بذلك الوصف ولهم من الآلات ما شرح حاله فما الظن بوقعهم فى العدو فهو كالدليل المؤيد لما قبله

﴿حتى غدت ملة الاسلام وهى بهم * من بعد غربتها موصولة الرحم﴾

حتى غاية ليجر باعتبار ما يقتضيه من التكرار كما تقدم وغدت بمعنى صارت فاعله ملة الاسلام وجملة وهى الخ حال هو مناط الفائدة وموصولة الرحم خبر الضمير وبهم ومن بعد متعلق به والغربة البعد والرحم القرابة والمعنى ما زال الاسلام يقود الجيوش من أولئك الابطال المرة بعد المرة وسيوفهم ونبالهم تفعل بالعدا ما تفعل حتى نصر الله الدين وأظهر ملة الاسلام وصارت فى حمية من عصاباتهم ومنعة من عشائرهم بعد أن كانت فى جهالة وغربة وخمول لقلة الأنصار ففيه تشبيه حالة الاسلام بحالة من يكون غريبا لقلة عشائره ثم كثرت أهلوه وأقاربه فظهر أمره وعز نصره وذلك لما فى الطباع من حماية الأقارب وذوى الأرحام ذبا عن الحوطة الجامعة والقدر المشترك فان اهانة الانسان توجب هوانا وذلة فى عشيرته فالباعث على الحماية فيها لما كان غريزيا كان أقوى من الباعث لعارض من الاسباب الخارجية ومن هذه القضية الطبيعية كان من حكمة الله تعالى أن سبق الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم من أبعد الناس نسبا به وتأخر اسلام قومه وبنى عمه فانه لو بادر أهله بالاسلام لقيل قوم أرادوا الفخر برجل منهم وتعصبوا له عصبية قرابة فلما بادر الأباعد وقاتلوا على حبه من كان من عشيرتهم ومن غيرهم وهم من العرب المعروفين بشدة الحمية والتعصب علم أن ذلك عن بصيرة صادقة ويقين قد تغلغل فى قلوبهم ورهبة من الله أزالت صفة قد كانت كامنة بنفوسهم لا يستطيع ازالتها الا الذى فطر الفطرة الأولى وهو القادر على ما يشاء كذا فى الروض الانف وهو من نفائسه

﴿مكفولة أبدا منهم بخير أب * وخير بعل فلم تيتم ولم تئم﴾

مكفولة بالنصب حال من الضمير فى موصولة ويجوز رفعه على أنه خبر ثان والكفالة القيام بحق المكفول وضرورياته والأبد الدوام والبعل الزوج وتيتم بفتح التاء الثانية من يتم الصبى

بالكسر اذا مات أبوه واليتم فى الناس من قبل الأب وفى البهائم من قبل الام وآمت المرأة تئيم اذا خلت عن زوج والمعنى أن ملة الاسلام صارت فى كفالة أبدية من حماية أولئك الابطال كفالة لا يتطرقها خلل لأنها فيهم ما بين شفقة الابوة القاضية طبعا بجلب الكمال وغيرة البعولة القاضية بدفع الصائل المريد هتك الحرمة وليس فى الطباع البشرية أقوى من هاتين والمراد ان جملة أولئك الابطال حصل منهم لحماية الملة مجموع ما يحصل من حماية الاب والزوج هذا معنى كلام الناظم رحمه الله وهو معنى لطيف وتشبيه غريب وأسلوب عربى فان حماية الحرم من طبيعة العرب التى عليها يتفاضلون وبها يتمادحون يقول الفرزدق

أنا الذائد الحامى الذمار وانما * يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

غير أن فى كلام المصنف اشكالا وابهاما أما الاول ففى جعل الكفالة أبدية وهى انما تدوم ببقائهم فى دار الدنيا فاذا انقرضوا انقرضت كفالتهم وأما الثانى فان المتفرع على أبدية الكفالة نفى اليتم والأيوم فى الاستقبال ونفيه فى الماضى يوهم أن لا يكون المستقبل كذلك ويمكن الجواب عن الاول بأنه لما كان أهل الصدر الاول هم الذين أظهروا الاسلام واصلوا عليه حتى عز أمره وارتفع شأنه كان كل ذاب عنه بعد تبعا لهم سالكا مسالكهم فحماية المتأخر المباشر تأسس بحمايتهم وتشييد لها فصح أن تلك الكفالة دائمة ما دام الاسلام قائما ولما كان السبب فى أصل الحماية شبه الأبوة والبعولة وهو منقطع جاء التعبير بالماضى فى محله وهو الجواب عن الثانى وفى ذلك ايماء خفى الى أن حماية من بعد العصر الاول دون حمايته وهكذا يضعف الامر بتضاعف القرون حتى يعود الاسلام الى غربته كما جاء فى الحديث الشريف فافهمه

﴿هم الجبال فسل عنهم مصادمهم * ماذا رأى منهم فى كل مصطدم﴾

بيان لحال أولئك الابطال وشرح لمواقعهم على طريق الاجمال أتى به على طريقة الاستئناف جوابا لما يقتضيه السابق من تشوف نفس السامع الى معرفتهم ولو بالسمة والوصف فالضمير الى الابطال والجبال جمع جبل وهو معروف الحقيقة استعير هنا للابطال لشدة وطأتهم على الكفار وقوة ثباتهم فى الحروب بحيث انهم فى الوقوف فى المعارك كأنهم الجبال الرواسى أو لكونهم ثبتوا الاسلام بعد تزلزله كما ثبتت الارض بالجبال بعد أن كانت تميد فحصل الاستقرار عليها والانتفاع بما فيها والتركيب من قبيل هو البطل الحامى أى هم من سمعت بهم وعرفت حالتهم فى الحروب حالة الثابت الذى لا يتزحزح والمصادم اسم فاعل من صادمه اذا ضاربه وقارعه والمصطدم محل الفعل والفاء فى فسل فصيحة أى اذا أردت معرفة صدق ما ذكرناه فسل الخ وقوله ماذا الخ جملة استفهامية مرادبها التهويل والتفخيم والمعنى أنهم كالجبال فى شدة الوطأة والثبات فسل من وقف لهم فى المعارك وذاق طعم بأسهم فانه عليم بذلك اذ قد شاهد منهم فى كل معترك أمرا هائلا وكونه فى الكل شاهد على أنه الديدن حتى لا يكون اتفاقيا فى بعض المواقع هذا ما ظهر لى فى معنى البيت وفيه نوع تأمن التعقيد ثم المراد من السؤال استطلاع أخبارهم من التواريخ المشهود بصحتها نزل مطالعتها منزلة السؤال والاخبار المضمنة بها منزلة المخبر عنه وهو تجوز مشهور مستملح وقصر

السؤال بالمصادم لانه الاعلم بحال مصادمه لما ذاقه من طعم بأسه قال أحد بنى سعد

فلو سألت سراة القوم سلمى * على أن قد تلون بى زمانى

لخبرها ذوو أحساب قومى * وأعدائى فكل قد بلانى

وأنت تعلم أن النكات البلاغية والتمليحات الادبية مقامها مقام الخطابة الشعرية المبنية على التحسين والاعتبارات اللطيفة لا تقبل التحقيق المنوط بمقام الاستدلال والوقوف على الحقيقة وبالتفاتك الى ذلك تعلم ما وقع لشيخ الاسلام هنا

﴿وسل حنينا وسل بدرا وسل أحدا * فصول حتف لهم أدهى من الوخم﴾

حنين واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا سمى بذلك باسم حنين بن قانية ابن مهبائيل كذا ذكر السهيلى عن البكرى ويسمى أيضا أوطاس من وطست الشئ اذا كدرته وأثرت فيه قاله السهيلى يؤنث لفظه ويمنع من الصرف ان أريد به البقعة وعليه قول بعضهم

نصروا نبيهم وشدوا أزره * بحنين يوم تواكل الابطال

ويذكر ويصرف باعتبار المحل وعليه جاء قوله جل اسمه ويوم حنين وبدر اسم بئر بينه وبين المدينة من طريق مكة ثمانية وعشرون فرسخا حفرها رجل من غفار اسمه بدر وقيل هو بدر ابن قريش بن مخلد بن النضر الذى سميت قريش به قاله السهيلى وأحد جبل بالمدينة سمى بهذا الاسم لتوحده وانقطاعه عن جبال أخر هنالك وورد فيه قوله صلى الله عليه وسلم هذا جبل يحبنا ونحبه وروى أنه يوم القيامة حين تبس الجبال بسا فتكون هباء منبثا يكون عند باب الجنة من داخلها وحب النبى له بحب أهله وهم الانصار وقيل بحب اسمه المشتق من الأحدية وفيه قبر هرون أخى موسى كذا فى الروض للسهيلى واعادة العامل فى العطف مع كل ايماء الى استقلال كل من الوقائع الثلاث فى افادة الجواب المحصل للمراد وفصول جمع فصل مرادبه الضرب والنوع على التجوز وهو المفعول الثانى للسؤال أى المسؤل عنه والحتف الموت ولهم صفة للحتف وضميره للعدا وهم الكفار وأدهى صيغة تفضيل من دهاه الامر أصابه بداهية وهى الأمر العظيم والوخم مرادف للوباء وهو فساد جوهر الهواء الذى هو مادة الروح ومدده فتحدث عنه الامراض الوبائية المختلفة تبعا لاختلاف تأثير التعفن الموجب للفساد فى أحد الأخلاط الاربعة واذا كان السبب فساد الهواء تكون أمراضه عامة والمعنى سل تلك الأماكن التى هى مواقع مشهورة لبعض حروب الصحابة رضى الله عنهم عن أنواع الحتوف التى لحقت الكفار بسبب تلك الحروب ما بين طعن بالنبال وضرب بالسيوف وغيرهما مما عم جميعهم أمره حتى كان عليهم أدهى وأعظم من الوباء اذ قد ينجو منه من لم يكن مزاجه قابلا للانفعال أو يتحرز عنه بما ينفع فى تأثيره من الأدوية والتمائم بخلاف وقع الصحابة فانه لا ينفع فيه تميمة غير تميمة الاسلام وسؤال الاماكن والديار أمر مشهور مستعذب فى الأدبيات وزاده الناظم هنا حسنا بوصف الحتف بكونه أدهى من الوخم فان فساد الهواء أعلق بالأمكنة كما هو معلوم واقتصار الناظم على هذه الوقائع لانها أشهر غزوته صلى الله عليه وسلم وبها ظهر عز الاسلام ونزل فى شأنها الآيات القرآنية وترتيبها فى الوجود على غير ترتيب النظم ﴿فأولها بدر﴾ كانت يوم الجمعة السابع عشر من رمضان عام اثنين من

الهجرة وكانوا على غير تواعد للحرب كما قال تعالى ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا وانما القصد للرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر التعرض لعير لقريش قدم بها أبو سفيان من الشام وأعلم صلى الله عليه وسلم أن الكفار يخرجون من مكة لحمايتها ووعده الله أن يظفره بالعير أو ناصريها فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفراء أرسل بسيس بن عمرو الجهنى وعدى بن أبى الزغباء يتحسسان أخبار العير فلا نحل أعقبهما فيه أبو سفيان فوجد بعر بعيرهما ففته فوجد فيه نواة فقال هذا تمر يثرب فعدل الى طريق الساحل وقد كان أنذر بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين اليه فارسل الى أهل مكة يستنجدهم لحماية العير ثم لما علم أن قد نجا بعيره لأخذه طريق الساحل أرسل الى قومه أن ارجعوا فقال أبو جهل عند ذلك وقد حاوله أصحابه على أن يرجع فأبى وقال لا نرجع حتى نصل بدرا فنقيم به وننحر فتسمع بنا القبائل ويرهبنا الناس وكان عدد المسلمين رضى الله عنهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر وعدد المشركين ألفا أو تسعمائة ولما علم المسلمون بنجاة العير استشارهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى اللحاق بالقوم ومقاتلتهم فتكلم المهاجرون وانما أراد النبى صلى الله عليه وسلم ما عند الانصار فقال المقداد يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو اسرائيل اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن انا مقاتلون فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وقال امضوا على اسم الله تعالى وأخبرهم بما وعد الله تعالى من النصر على القوم فسار واتحو بدر ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم دون ماء بدر فقال بعض الصحابة يا رسول الله نزولك هذا المنزل بوحى أمر هو الرأى والمكيدة فقال بل هو الرأى فقال يا رسول الله الرأى ان نقطع القوم عن الماء فننزل وراءه فتردو ولا يردون وذلك عون عليهم ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من نعم الله على المسلمين أن نزل المطر فلبد طريقهم وثبت أقدامهم لان ذلك الموضع تسوخ فيه الأرجل ويصعب فيه المشى قال الله تعالى مذكرا لهذه المنة وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ولما اجتمع القوم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الدعاء والاجتهاد فيه حتى سقط رداؤه عن منكبه وجعل أبو بكر يقول يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فانه منجز لك ما وعدك ومن دعائه صلى الله عليه وسلم يومئذ وهو ساجد يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث ثم تلا صلى الله عليه وسلم سيهزم الجمع ويولون الدبر وقال هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فما أخطأ أحد منهم المصرع الذى عينه له وتلك من آيات بدر ومنها أنه عليه السلام رمى بكف من تراب فى وجوه القوم وقال شاهت الوجوه فما غادرت أحدا الا وقد أصابت عينيه قال الله تعالى وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ومنها قتال الملائكة ذلك اليوم فان كثيرا من الصحابة رضى الله عنهم يريد أن يضرب الكافر فيسبق ضربته زوال رأسه بضرب الملك وكانوا فى غير هذه الوقعة يحضرون ولا يقاتلون على المختار من الاقوال ومنها أن عكاشة اندق حسامه فناوله صلى الله عليه وسلم عودا ليقاتل به فعاد فى يده سيفا صقيلا ولقد فاز أهل بدر بأكرم المزايا فى البخارى من حديث رفاعة بن رافع وكان أبوه بدريا قال جاء جبريل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال

ما تعدون أهل بدر فيكم قال من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها قال كذلك من شهد بدرا من الملائكة وفيه من حديث على حين بعثه النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى مرثد والزبير بن العوام رضى الله عنهم فى طلب المرأة التى حملت كتاب حاطب بن أبى بلتعة يخبر كفار قريش ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى آخر الحديث قال عمر رضى الله عنه دعنى يا رسول الله فلأضرب عنقه فقال أليس من أهل بدر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو فقد غفرت لكم فدمعت عينا عمر وقال الله ورسوله أعلم * قال شيخ الاسلام ومن آيات بدر الباقية ما كنت أسمع من غير واحد من الحجاج أنهم ان اجتازوا بذلك الموضع يسمعون كهيئة طبل ملك وربما أنكرت ذلك أو تأولته بأن الموضع صلب يستجيب لحوافر الدواب فقال لى انه دهس رمل وغالب ما يسير فى ذلك الابل وأخفافها لا تصوت فى الارض الصلبة فكيف بالرمال ولما من الله على بالوصول الى ذلك الموضع المشرف اتفق أن نزلت عن الراحلة أمشى وقد كان فى يدى عود طويل من شجر السعدان المسمى بأم غيلان وقد نسيت ذلك الخبر فما راعنى وأنا أسير فى الهاجرة الا وواحد من عبيد الاعراب الجمالين الذين كانوا معنا يقول أتسمعون الطبل فأخذتنى لما سمعت كلامه قشعريرة وتذكرت ما كنت أخبرت به فسمعت الطبل سماعا محققا وذلك عن ناحية اليمن ونحن سائرون الى مكة المشرفة ثم نزلنا ببدر المذكور فظللت أسمع ذلك الصوت يومى أجمع المرة بعد المرة وقد أخبرت أن ذلك الصوت لا يسمعه كل أحد من الناس فلله المنة والفضل انتهى ﴿تتمة﴾ قال السهيلى فى الروض الأنف اجتهد صلى الله عليه وسلم فى الدعاء لانه رأى الملائكة تجتهد فى القتال وجبريل على ثناياه الغبار وأنصار الله يخوضون غمار الموت والجهاد على ضربين جهاد بالسيف وجهاد بالدعاء ومن سنة الامام أن يكون من وراء الجند لا يقاتل معهم فكان الكل فى اجتهاد وجد ولم يكن يريح نفسه من أحد الجدين والجهادين انتهى

﴿الثانية غزوة أحد﴾ كانت فى شوال عام ثلاث من الهجرة وذلك أن قريشا لما رجعوا من بدر على الحالة الخبيثة قالوا لأبى سفيان ومن كان له فى العير مال ان محمدا قتل خياركم فأعينونا بهذا المال لعلنا ندرك بعض الثار ففعلوا وفيهم نزل قوله تعالى ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله الآية واجتمعت قريش بأحابيشها ومن أطاعها من كنانة وغيرهم وحملوا معهم النساء لئلا يفروا ولما قربوا من المدينة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى رأيت والله خيرا رأيت بقرا تذبح ورأيت فى ذباب سيفى ثلما ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأما البقر فناس من أصحابى يقتلون وأما الثلم فرجل من أهل بيتى يقتل والدرع المدينة ثم قال صلى الله عليه وسلم فان رأيتم أن أقيم بها وندعهم حيث هم فان أقاموا أقاموا بشر مقام وان نزلوا علينا قاتلناهم فيها فاختلف آراء الصحابة فى ذلك ولا زال من أحب لقاء الله منهم ممن فاتهم بدر برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بيته ولبس لامته وذلك يوم الجمعة بعد الصلاة فلما خرج صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك فان شئت فاقعد فقال صلى الله عليه وسلم ما كان لنبى اذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل فخرج صلى الله عليه وسلم فى ألف من أصحابه فلما كان بين المدينة وأحد انخزل ابن أبى بثلث الناس ممن

أطاعه من المنافقين وسار صلى الله عليه وسلم حتى جعل ظهره الى جبل أحد ونهى عن القتال حتى يأمر به وأمر صلى الله عليه وسلم على الرماة وهم خمسون عبد الله بن جبير وقال انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا واثبت مكانك كانت لنا أو علينا وظاهر صلى الله عليه وسلم بين درعين ودفع اللواء الى مصعب بن عمير وقريش ثلاثة آلاف معهم مائتا فرس على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل وقال صلى الله عليه وسلم من يأخذ هذا السيف بحقه فقام اليه رجال فامسكه عنهم وأعطاه أبا دجانة سماكا الساعدي قال وما حقه يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم أن يضرب به في العدو حتى ينحني فأخذه وكان رضي الله عنه شجاعا له عصابة حمراء اذا لبسها علم أنه مقاتل فلبسها وجعل يتبختر بين الصفين فقال صلى الله عليه وسلم انها لمشية يبغضها الله الا في هذا الموطن وأبلى في ذلك اليوم بلاء شديدا ووفى عاصم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتل حمزة رضي الله عنه في ذلك اليوم قتالا شديدا حتى ضربه وحشي غلام جبير بن مطعم كان يقذف بالحربة فلا يخطئ قال له جبير حين أراد الخروج ان قتلت حمزة بعمي طعيمة وكان قتله حمزة رضي الله عنه يوم بدر فأنت عتيق وقتل يومئذ حنظلة بن عامر الذي يدعى الغسيل لقوله صلى الله عليه وسلم ان صاحبكم لتغسله الملائكة فما شأنه فقالت زوجته خرج وهو جنب ثم نصر الله المسلمين فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة لا شك فيها وأخذ المسلمون يتبعونهم فصرخ الشيطان ألا ان محمدا قتل فرجع أول المسلمين واجتلدوا مع آخرهم وانكشفوا فأصاب منهم العدو وكان يوم بلاء أكرم الله فيه من المسلمين بالشهادة من شاء وكسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم وشج وجهه وكلمت شفته فجعل يمسح الدم ويقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم فنزل قوله جل اسمه ليس لك من الامر شئ الآية وظهر منه صلى الله عليه وسلم في ذلك اليوم من الشجاعة ما ليس في مقدور البشر رمى عن قوسه حتى اندقت وقتل أبي بن خلف لعنه الله وصدق الله مقالته صلى الله عليه وسلم فيه أنا أقتلك ان شاء الله وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر قاعدا من الجراح وصلى المسلمون خلفه قعودا وكانت هذه الغزوة ابتلاء للمؤمنين وتمحيصا كما قال تعالى ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * ومن المعجزات الواقعة فيها رده صلى الله عليه وسلم عين قتادة بن النعمان حين أصيبت فكانت أحسن عينيه وأحدهما وقد وفد رجل من ذريته على عمر بن عبد العزيز فسأله من أنت فقال

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه * فردت بكف المصطفى أيما رد
فعادت كما كانت لاول أمرها * فيا حسن ما عين ويا حسن ما خد

فوصله عمر وأحسن جائزته

(الثالثة غزوة حنين) وتسمى غزوة أوطاس باسم الموضع الذي كانت فيه الوقعة من وطست الشئ اذا أثرت فيه والوطيس التنور وفي هذه الغزوة قال صلى الله عليه وسلم الآن حمي الوطيس وذلك حين استعرت الحرب قال السهيلي في الروض الأنف وهذه الكلمة في المثل

لم

لم يسبق اليها صلى الله عليه وسلم كقوله مات حتف أنفه ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين وكان رئيس المشركين في هذه الغزوة مالك بن عوف بن سعد النصري وذلك أنه لما سمع فتح مكة اجتمع اليه مع هوازن ثقيف وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال وحمل الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم وكان معهم دريد بن الصمة الجشمي وكان يومئذ له مائة وستون سنة وقيل مائة وعشرون فلما نزلوا بأوطاس قال دريد بأي موضع أنتم قالوا بأوطاس قال نعم مجال الخيل لا حزن ضرس ولا سهل دهس مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء قالوا مالك فعل ذلك فقال يا مالك هذا يوم كائن له ما بعده فلم سقت مع الناس المال والعيال قال أردت أن يقاتل كل رجل عن ماله وأهله فقال دريد راعي ضأن والله وهل يرد المنهزم شئ ان كانت لك لم ينفعك الا رجل بسيف أو رمح وان كانت عليك فضحت في أهلك ومالك ارجع من معك الى عليا بلادهم ثم الق الصباة على متون الخيل فان كانت لك لحقك من وراءك وان كانت عليك أحرزتها فأبى مالك وقال كبرت وكبر عقلك وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ثم قال يا معشر هوازن لتطيعنني أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري فقال دريد هذا يوم لم يفتني ولم أشهده ثم قال مالك للناس اذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم وشدوا شدة رجل واحد وبعث عيونا فأتوه وقد تفرقت أوصالهم رعبا فقال ويلكم ما شأنكم قالوا رأينا رجالا بيضا على خيول بلق فلم يرده ذلك وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في اثني عشر ألفا عشرة آلاف من أصحابه الذين فتحوا معه مكة وألفان من أهل مكة واستعمل على مكة عتاب بن أسيد وقد استعار صلى الله عليه وسلم من صفوان بن أمية مائة درع بما يكفيها محمولة له فقال أغصبا يا محمد فقال صلى الله عليه وسلم بل عارية مضمونة حتى نؤديها اليك فقال ليس بهذا بأس وأعاره وحملها ولما استقبل الناس وادي حنين في عماية الصبح وكان الكفار سبقوا الى الوادي وكمنوا في مضايقه فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد وهم منحدرون فرجع المسلمون لا يأوي بعضهم على بعض وانحاز صلى الله عليه وسلم ذات اليمين يقول هلم الي أيها الناس ولم يبق معه الا نفر من المهاجرين والانصار منهم العباس رضي الله عنه قال لما رأى صلى الله عليه وسلم الناس لا يلوون على شئ وأنا آخذ بحكمة لجام بغلته البيضاء أمرني أن أصرخ يا معشر الانصار يا معشر أصحاب السمرة فصرخت فأجابوا لبيك لبيك فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك فيقتحم عن بعيره ويأخذ سلاحه ويؤم الصوت حتى اذا اجتمع منهم مائة اقتتلوا فنظر صلى الله عليه وسلم الى القوم فقال الآن حمي الوطيس فوالله ما رجع الناس من الهزيمة حتى وجدوا الاسارى مكتفين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي ذلك اليوم قال صلى الله عليه وسلم من قتل قتيلا له عليه بينة فله سلبه ونهى صلى الله عليه وسلم عن قتل المرأة والوليد حين مر بامرأة قتلها خالد بن الوليد وحدث ابن اسحق عن أبيه عن جبير بن مطعم قال لقد رأيت قبل هزيمة القوم مثل البجاد الاسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم فنظرت فاذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي لم نشك أنها الملائكة وفي هذه الغزوة قال صلى الله عليه وسلم

أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبد المطلب

ثم جمعت اليه صلى الله عليه وسلم سبايا القوم وأموالهم فأمر بها فحبست بالجعرانة حتى فرغ صلى الله عليه وسلم من غزوة الطائف ورجع الى الجعرانة فلحقه وفد هوازن بها وقد أسلموا وقالوا يا رسول الله انا أهل وعشيرة وقد أصابنا ما لا يخفى عليك فامنن علينا من الله عليك وانما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللائى كن يكفلنك ولئن نزل بنا هذا مع غيرك من الملوك لرجونا عطفه فأنت خير المكفولين فقال صلى الله عليه وسلم اختاروا اما النساء والاولاد أو المال فاختاروا السبى فقال صلى الله عليه وسلم ما كان لى ولعبد المطلب فهو لكم واذا صليتنا الظهر فقولوا انا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسلمين وبالمسلمين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أبنائنا ونسائنا ففعلوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ما كان لى ولعبد المطلب فهو لكم فقال المهاجرون وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الانصار وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتمسك ناس فقال صلى الله عليه وسلم أما من تمسك فله بكل انسان ست فرائض من أول ما يفىء الله علينا فردوا الى الناس أبناءهم ونساءهم ثم قسم صلى الله عليه وسلم المال فى الناس ولم يعط الانصار شيأ فوجد بعضهم فى نفسه من ذلك فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا معشر الانصار أما ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله صلى الله عليه وسلم الى رحالكم لو سلك الناس واديا أو شعبا لسلكت وادى الانصار أو شعبها الانصار شعار والناس دثار اه من نقل شيخ الاسلام وفيه أمران الاول ظاهره أن طلب هوازن المن كان قبل قسم السبايا والذى فى الروض الانف أنه كان بعد ومن ثم استطاب صلى الله عليه وسلم نفوس القوم وعوّض من لم تطب نفسه ولو كان قبل القسم لكان له الخيار بين الفداء والقتل والمن والاسترقاق وهو الصواب فيصرف ظاهر كلام شيخ الاسلام اليه * الثانى أن ظاهر قوله ثم قسم صلى الله عليه وسلم المال الخ أنه قسم رأس الغنيمة ومن ثم تكلم الانصار وقالوا يعطى صناديد العرب ولا يعطينا وأسيافنا تقطر من دمائهم ومن ثم استطاب صلى الله عليه وسلم نفوسهم بما عوّضهم به وألان لهم القول وأظهر لهم مزاياهم وأنهم أعلق الناس به كما استطاب نفوسهم فى ردّ السبايا ولعل هذا هو الصواب فى محمل فعله صلى الله عليه وسلم وقال السهيلى فى الروض الانف ان للعلماء فى ذلك ثلاثة أقوال أحدها أنه أعطاهم من خمس الخمس وهذا مردود لان خمس الخمس ملك له ولا كلام لأحد فيه الثانى أنه خصهم بالغنيمة وأن ذلك خاص بالنبى صلى الله عليه وسلم لقول الله قل الانفال لله والرسول وهو مردود بنسخ هذه الآية غير أن بعض العلماء احتج لهذا القول بأن الانصار لما انهزموا يوم حنين فأيد الله رسوله وأمدّه بملائكته فلم يرجعوا حتى كان الفتح ردّ الله أمر مغانمها الى رسوله من أجل ذلك قلت ولا يخفى على كل ذى لب فساده فان الهزيمة لا توجب منع استحقاق الغنيمة ولو كان الأمر كذلك لما احتاج صلى الله عليه وسلم الى استطابة نفوسهم وذلك بين القول الثالث وهو الذى اختاره أبو عبيد أن أعطاءهم كان من الخمس وأنه جائز للامام أن يصرفه عن الاصناف المذكورة فى الآية حيث يرى أن فيه مصلحة للمسلمين اه وفيه أنه لو كان كذلك لما

كان قول الانصار مقبولا اذ لم يدلوا فى الاستحقاق بصفة أحد الاصناف المذكورين فى آية الخمس كما هو بين ولما استطاب نفوسهم صلى الله عليه وسلم فالوجه ما ذكرناه ان شاء الله والله أعلم

﴿المصدرى البيض حمرا بعدما وردت * من العدا كل مسودّ من اللمم﴾

الاصدار الارجاع يقال صدر عن الماء اذا رجع عنه وأصدره غيره أرجعه وذلك بعد ريه منه واسم المجرد الصادر والمزيد المصدر والجمع المصدرين حذفت نونه للاضافة ونصبه بتقدير العناية تفسير الصفة الصحابة التى تنوعت منها فصول وأنواع المقاتلة كما أشرنا اليه قبل والبيض جمع الأبيض مرادا به هنا السيف والحمر جمع الأحمر ونصبه على الحال والورود ضد الصدور واللمم جمع لمة وهى الشعر المجاوز شحمة الاذن فاذا بلغ المنكبين فهو الجمة والمعنى أعنى بالموصوفين بتنويع الحتوف فى تلك الوقائع الذين يصدرون السيوف البيض حمرا من دم الكفار بعدما وردت أعناقهم وفعلت فى لممهم ورؤسهم ما هو فعلها وفى اختيار الاصدار والورود ايماء الى أن للسيوف رغبة فى دم أعدائهم بحيث تردها وان لم توردوا أنها لشدة رغبتها فيها لا تصدر عنها بنفسها ولا ترجع الا بالاصدار ولا يخفى ما فى البيت من التضادّ ومراعاة النظير وهو مأخوذ من قول عمرو بن كلثوم التغلبى

أبا هند فلا تعجل علينا * وأنظرنا نخبرك اليقينا
فانا نورد الرايات بيضا * ونصدرهن حمرا قد روينا

﴿والكاتبين بسمر الخط ما تركت * أقلامهم حرف جسم غير منعجم﴾

الكاتبين جمع كاتب من كتب بمعنى خط مستعار هنا لتخطيط الاجسام بأسنة الرماح والسمر جمع أسمر بمعنى الرمح والخط بمعنى الكتاب والمراد هنا موضع باليمامة تجلب اليه الرماح من الهند فتقوم واليه تنسب الرماح الخطية ففيه تورية مرشحة والاقلام جمع قلم الكتاب مستعار هنا للأسنة وحرف كل شئ طرفه وسميت حروف التهجى بذلك لانها تقع أطراف الكلمات والجسم فى المتعارف هو الجوهر المركب الممتدّ فى الجهات ومنعجم اسم فاعل من انعجم مطاوع أعجم بمعنى أزال عنه العجمة فالهمزة للسلب والمعنى والموقعين سهامهم فى جميع أطراف أجسام العدا موقع الاعجام فى حروف التهجى بحيث انه ما أصابت سهامهم الا مقاصدهم بالرمى ولم تكن الاصابة اتفاقية وذلك شأن الكاتب المعجم للحروف ولا يخفى حسن استعارة الكتابة لفعلهم وترشيحها بملائمات الكتابة مع حسن الايهام فى الخط والحرف ومن معنى البيت قول أبى العشائر

أأخا العشائر لو رأيت مواقفى * والخيل من تحت الأسنة تخط
لرأيت منها ما تخط يد الوغى * والبيض تشكل والأسنة تنقط

﴿ان قام فى جامع الهيجاء خاطبهم * تصامت عنه أذناه ة الصمم﴾

الجامع المكان يجتمع فيه القوم يدعوهم لذلك أمر مهم ومنه جامع الصلاة والهيجاء الحرب والخاطب والخطيب من خطب كطلب خطبة بالضم وهى كلمات تتضمن طلب شئ فان كان

المطلوب نكاح امرأة كسرت الخاء والضمير للصحابة رضى الله عنهم والتصامم تطلب الصمم والظهاره ممن ليس به صمم واذنا تثنية أذن والاسناد مجازى والصمة بكسر الصاد وتشديد الميم الشجاع ومنه دريد بن الصمة وجمعه صمم والمعنى أنه اذا قام فى ميدان الحرب واحد من الصحابة رضى الله عنهم يدعو الكفار الى البراز والمقاتلة بما يثير الحمية ويبعث النفوس الأبية أعرض عنه أشجع الشجعان من الكفار وأظهر من نفسه الصمم عن سماع كلامه ورضى بمعرة التقاعد لما ملأ قلوبهم من الرعب وقاسوه من مواقعهم المشروحة قبل ولا يخفى حسن استعارة الخطبة للدعاء الى البراز بجامع أن كلا شأنه التأثير

﴿شاكى السلاح لهم سيما تميزهم ❋ والورد يمتاز بالسيما من السلم﴾

شاكى السلاح تامه أو حاده وهو من اضافة الصفة الى الموصوف أى السلاح التام أو الحاد والسيما بالقصر والمد العلامة والتميز البيان والايضاح والورد الزهر المعروف والسلم شجر له شوك يشابه شجر الورد والمعنى أن السلاح التام الحاد مختص بالصحابة رضى الله عنهم حتى صار علامة لهم يمتازون بها عن غيرهم من الكفار واختصاصه بهم من حيث ظهور أثره فان المراد من حمل السلاح العمل به والاظهار بسببه وترتب الغلبة على فعله وقد تقدم من حال الصحابة رضى الله عنهم فى الوقائع المتعددة ما دل على أن السلاح بيدهم سلاح وأن وجوده بيد الكفار كالعدم وقد قيل

كل السلاح جميع الناس تحمله ❋ وليس كل ذوات المخلب السبع

وقيل وعادة السيف أن يزهو بجوهره ❋ وليس يعمل الا فى يدى بطل

وحمل السلاح بدون عمل يرونه مشقة وشغلا بلا فائدة قال عمرو بن معديكرب

علام تقول الرمح يثقل عاتقى ❋ اذا أنا لم أطعن اذا الخيل كرت

وشرح المثل فى عجز البيت بين بما شرحناه

﴿تهدى اليك رياح النصر نشرهم ❋ فتحسب الزهر فى الأكمام كل كمى﴾

تهدى بضم التاء مضارع أهدى اليه هدية وهى اسم ما يعطى والنصر التأييد وفى كليات الكفوى هو أخص من المعونة لاختصاصه بدفع الضر اه والنشر الرائحة الطيبة والاكمام جمع كم بكسر الكاف وهو وعاء الزهر والكمى الشجاع المتكمى فى سلاحه واستعار الرياح للاحاديث بجامع أن كلا منهما يصور البعيد قريبا والنشر لمدحهم بأفعالهم الجميلة ومواقعهم الجليلة بجامع التذاذ النفس وارتياحها بكل والتشبيه على مقتضى الف العادة وتمثيل المعنى بالمحسوس كما فى قوله جل اسمه مثل نوره كمشكاة الآية والافارتياح النفس بالاحاديث الجميلة أشد من ارتياحها بالروائح الطيبة ولقد أحسن من قال

وليس فتيق المسك ما تجدونه ❋ ولكنه ذاك الثناء المخلد

وقال أبو الطيب فى سيف الدولة

ألذ من الصهباء بالماء ذكره ❋ وأحسن من يسر تلقاه معدم

وفى قوله فتحسب الزهر الخ تشبيه معكوس ان كان اعرابه على ترتيبه فافهمه ومعنى البيت

واضح مما بيناه واختيار صيغة المضارع للدلالة على التجدد كما لا يخفى

﴿كأنهم فى ظهور الخيل نبت ربا ❋ من شدة الحزم لا من شدة الحزم﴾

الظهور جمع ظهر خلاف البطن والنبت النبات والربا جمع ربوة بالضم والفتح وهى ما ارتفع من الارض والشدة بكسر الشين القوة من شد الله أسره قواه والحزم ضبط الامر والاخذ فيه بالثقة والشدة بالفتح وأظنه مولدا من شده أوثقه والحزم جمع حزام ككتب جمع كتاب وهو هنا ما يشد به سروج الخيل ونحوها والمعنى أن الفرسان من الصحابة رضى الله عنهم فى حال القتال ثابتون فى ظهور خيلهم ثباتا لا تغيره صواعق الحرب وبوارقها كأنما هم فى تلك الحالة نبت فى ربا لا تغيره السيول ولا تدفعه المياه وذلك الامر من قوة الحزم والضبط وليس من شدة وثاق الحزم فانه مع عدم الحزم غير نافع ولله در أبى الطيب حيث يقول فى ذلك

ولكن اذا لم يحمل القلب كفه ❋ على حالة لم يحمل الكف ساعد

وما ألطف ما جانس به الناظم فى هذا البيت

﴿طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا ❋ فما تفرق بين البهم والبهم﴾

طارت قلوب العدا اضطربت اضطرابا شبيها بخفقان أجنحة الطائر والبأس العذاب والشدة والفرق بالتحريك الخوف والتفريق التمييز والبهم بفتح الباء وسكون الهاء أولاد الضأن وقيل أولاد الضأن والمعز والبقر والبهم بضم الباء وفتح الهاء جمع بهمة بضم فسكون قال أبو عبيدة هو الفارس الذى لا يدرى من أين يؤتى من شدة بأسه والمعنى أن الكفار لشدة ما نزل بهم من بأس الصحابة رضوان الله عليهم امتلأت قلوبهم رعبا فاضطربت اضطراب الطائر وزال عنها انبعاث أشعة الادراك فلم تميز أصحابها بين الضدين أضعف المخلوق وهو ولد الضأن وأقواها وهو الشجاع الباسل وفيه ايماء لطيف الى سوء ما خامر عقولهم فى معاودتهم الحروب وعدم الاذعان من ترقبهم الغلبة وما ذلك الا لاحتقارهم حال المحارب الناشئ عن اختلال العقول بما أدهشها من الخوف ولا يخفى دقته وان لم يهتد اليه شيخ الاسلام فتحير فى تصحيح معنى البيت

﴿ومن تكن برسول الله نصرته ❋ ان تلقه الأسد فى آجامها تجم﴾

النصرة بضم النون اسم للنصر وقد تقدم والاسد بضم الهمزة وسكون السين وتضم جمع أسد والآجام جمع أجمة وهى مغيض الماء ينبت فيه الشجر ملتفا بعضه ببعض تأوى اليه الأسود وتجم تسكت فلا يسمع لها صوت خوفا من أن يفطن بها وخص الأسد بكونها فى الآجام لانها فيها أخبث وأشجع اذ هى محل منعتها ومسكن صولتها ومعنى البيت أن الصحابة لما كانوا يقاتلون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن دين الله القويم وصراطه المستقيم وأن ما وقع لهم من النصر سببه التام هو ذلك فلا عجب أن تمتلئ القلوب منهم رعبا فلو دخلوا مساكن الاسود بذلك الوجه وأتتهم فيها لسكتت خوفا من بأسهم وتعقيب ما تقدم بهذا المعنى لرفع ايهام أن ما وقع من النصر كان سببه ما حكاه من حالة الصحابة فى حزمهم وقوة أسلحتهم وتمام شجاعتهم فان ذلك وان كان من الاسباب العادية الا أن السبب الحقيق هو القتال لاعلاء

كلمة الله ونصرة نبيه ودينه فلا يعتمد العاقل على قوة عدده وكثرة عدده انما الاعتماد الحقيق على اخلاص النية الصالحة فلو لم يكن نصر من الله تعالى وكان العمدة هو العدد والعدد لكان فى المقابل مقاومة ولله در أبى تمام اذ يقول فى مدح المعتصم بفتح عمورية

رمى بك الله برجيها فهدمها * ولو رمى بك غير الله لم يصب
من بعد ما أشبوها واثقين بها * والله مفتاح باب المعقل الأشب

وتأمل السر الالهى والحكمة الربانية فى تداول الحرب بين الصحابة والكفار ووقوع الهزيمة فى بعض المواقف كما تقدم اعطاء لحكم الأسباب العادية وكان مآل الامر الظفر والغلبة والنصر اعتبارا بالسبب الحقيق وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم

﴿ولن ترى من ولى غير منتصر * به ولا من عدو غير منقصم﴾

الولى ضد العدو والمنتصر من انتصر مطاوع نصر والمنقصم من انقصم مطاوع قصمه والمعنى أن كل من والاه صلى الله عليه وسلم بالايمان به واتباع سنته ونصر شريعته والذب عنها فهو منصور بالتأييد الالهى على ضده وكل من عانده وعاداه والعياذ بالله فهو منقصم مغلوب فنفى الرؤية جعلها الناظم كناية عن نفى الوجود وفيه تصريح بأن النصر بسببه صلى الله عليه وسلم غير خاص بمن شاهده وقاتل معه بل هو عام لكل ناصر له وولى فى كل زمان ولذا أردفه بقوله

﴿أحل أمته فى حرز ملته * كالليث حل مع الأشبال فى أجم﴾

أحل أنزل من حل بالمكان نزل به والأمة الجماعة من الناس والمراد أمة الاجابة الذين آمنوا به واتبعوه صلى الله عليه وسلم والحرز الموضع الحصين والملة الدين والشريعة والليث الأسد والشبل ولده والأجم جمع قلة للاجمة وتقدم معناها والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم أنزل أمته حصنا من ملته الزكية لا يرام وعصمهم بحبل الله الذى ليس له انفصام وضمهم اليه باتباعه فى ذلك الحصن ضم الليث لأشباله فى محل منعته وهذا حكم عام كما يقتضيه لفظ الامة وذكره عقب البيت السابق العام الحكم فى كل موال شاهد بذلك فما دامت الامة فى ذلك الحصن الحصين والحرز الشامخ المتين لا يضرهم من ناواهم فاذا خرجوا منه وأهملوا فى التمسك به صاروا نهبة كل ناهب ومطمع كل طالب وفى الحديث الشريف من معالم نبوته صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وتلك الطائفة هى المتمسكة بحصن الملة فلا يشكل على مدلول البيت ما لحق بعض الامة من الهوان ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وبهذا يتضح شأن دعائه صلى الله عليه وسلم المجاب أن لا يسلط على أمته عدوا من سوى أنفسهم

﴿كم جدلت كلمات الله من جدل * فيه وكم خصم البرهان من خصم﴾

كم خبرية مراد بها التكثير وهى مفعول جدلت بالتشديد والتخفيف بمعنى صرعت على الجدالة أى الارض وهو استعارة من صورة الغلبة الحسية الى الغلبة المعقولة وكلمات الله تعالى آياته القرآنية والجدل بالتحريك الالد فى الخصومة وخصمه غلبه فى الخصومة والبرهان الحجة الواضحة قال شيخ الاسلام وفى بعض الشروح القرآن بدل البرهان والخصم

بكسر الصاد الشديد الخصومة والمعنى كثيرا ما أرغمت آى الكتاب أنوف المعاندين المجادلين فتركتهم صرعى الغلبة وكثيرا ما خاصمت البراهين الواضحة والمعجزات الباهرة من خاصمه فى دعوى النبوة حتى غلبته وأفحم ولما كانت مخاصمة آى الكتاب أقوى من مخاصمة غيرها من المعجزات نسب الى الاولى التجديل الذى هو أقوى غلبة والى الثانية مطلقها * فان قلت على نسخة القرآن بدل البرهان ما الفرق بين الاول والثانى * قلت الفرق باعتبار ما نطقت به الآيات من نبوته وبعثته وتصديقه وذكره فى التوراة والانجيل وغير ذلك وباعتبار البلاغة المعجزة فيحمل الاول على الاول والثانى على الثانى وظهر سر الفرق فى التعبير فى الاول بالكلمات وفى الثانى بالقرآن كما لا يخفى على ذى لب سليم فيكون حاصل المعنى أن آى القرآن جدلت بمدلولاتها ومعانيها وبحالتها البلاغية التى هى نهاية الاعجاز غير أن نسخة البرهان أوضح وأشمل لعمومه جميع المعجزات وبه ينتظم الكلام ويظهر ربط البيت بقوله

﴿كفاك بالعلم فى الأمى معجزة * فى الجاهلية والتأديب فى اليتم﴾

كفاك بمعنى حسبك والخطاب عمومى كما تقدم غير مرة وبالعلم فاعله زيدت فيه الباء على ما هو الكثير والامى صفة لمحذوف تقديره النبى الامى وهو منسوب الى أمة العرب اذ كانوا ليسوا من أهل الكتابة والعلم قال جل ثناؤه هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم أو منسوب الى الام أى أنه على الحالة التى ولدته عليها وهى حالة الجهالة والمعنى به الذى لا يقرأ ولا يكتب وهو فى غيره صلى الله عليه وسلم من الصفات الذميمة أما فيه صلى الله عليه وسلم فهو من كمالاته الخارقة لأن ذم وصف الأمية لما يقتضيه من كمال الجهالة وحيث صحب فى ذاته الشريفة كمال العلم البشرى ونهايته كان من أعز الصفات وأشرفها ومن ثم كان من المعجزات والجاهلية هى أمة العرب وهو زيادة تأكيد للاعجاز والتأديب مصدر أدبه فتأدب أى صار ذا أخلاق حسنة وشيم جميلة واليتم بسكون التاء وضمت فى النظم اتباعا لضمة الياء لضرورة النظم وهو فى الناس فقد الأب وفى البهائم فقد الام والمعنى يكفى من معجزاته الدالة على صدق نبوته ما له من العلوم والمعارف التى بعضها علم اللوح والقلم كما سيقول الناظم رحمه الله مع كونه أميا لا يقرأ ولا يكتب ونشأ فى أمة جاهلية لا يمكن حصول العلم بالسمع منها قال جل ثناؤه وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون كما يكفى من كراماته الخارقة للعادات ما نشأ عليه من مكارم الاخلاق وحسن الشيم المشهود له به فى الكتاب والسنة كما تقدم فى شرح قوله أكرم الخ مع صفة اليتم التى شأنها فى مجارى العادة الاهمال وعدم اكتساب المحامد وما ذاك الا بتأديب الله عز وجل ولقد قال له صلى الله عليه وسلم أبو بكر رضى الله عنه يوما من أدبك يا رسول الله فقال أدبنى ربى وتقدم معنى قول عائشة رضى الله عنها كان خلقه القرآن فتذكره

﴿خدمته بمديح أستقيل به * ذنوب عمر مضى فى الشعر والخدم﴾

الخدمة معروفة ومفعوله ضمير النبى صلى الله عليه وسلم والمديح المدح وهو الثناء الحسن مطلقا وان كان فى الاصل خاصا بالسجايا وتنكيره للتقليل والاستقالة طلب الاقالة وهى فى

الاصل فسخ البيع استعيرت هنا للخلاص من الذنوب كأنها لما اكتسبت باختيار العبد أشبهت المشترى والعمر مدّة الحياة ومضى ذهب والشعر تقدم شرحه أوّل الكتاب والخدم بكسر الخاء وفتح الدال جمع خدمة مصدر خدمته والمعنى خدمت جنابه صلى الله عليه وسلم وتقرّبت اليه بهذا المديح المشتمل على النزر من صفاته الكاملة أطلب بذلك التوسل بجنابه المرفع الى الله أن يتجاوز عما مضى من الذنوب فى الزمن السالف الذى الباقى بالنسبة اليه كالعدم كما هو مقتضى تسميته عمرا ومن جملة تلك الذنوب قول الشعر ومدحه الناس به فان ذلك وان كان فيه ابتياح لكنه تضييع لحصة من العمر فى غير المطلوب منه ولقد أحسن رحمه الله ماشاء اذ ذكر من الذنوب الشعر والخدم فناسب الوسيلة التى هى خدمته صلى الله عليه وسلم بمديح الشعر وقد جاء فى الشريعة أن بعض السيآت يكفر بحسنة من جنسها لقوله صلى الله عليه وسلم من حلف باللات والعزى فليقل لا اله الا الله ومن قال تعال أقامرك فليتصدق وشرحت الناظم اذ جعل ماذكره من المدح خدمة وتقرّ بالما طبعت عليه النفوس الكريمة [illegible] المديح واقبالها على صاحبه وقد عهد ذلك منه صلى الله عليه وسلم كما تقدم أوّل الكتاب [illegible] وبذلك نفع نفسه لا المديح المجرّد وهذا شأن كل مادح له اذ مقامه صلى الله عليه وسلم [illegible] أن يظهر شمائله مخلوق ولله درّ محمد بن هانئ اذ يقول

[illegible] قد خط فى اللوح أنني * مديح له انى اذا لعنود

[illegible] مستوى مدح من الله منزل * وقافية فى الغابرين شرود

﴿اذ قلدانى ماتخشى عواقبه * كأننى بهما هدى من النعم﴾

قلده الأمر جعله له قلادة وهى ما يوضع فى العنق ثم كثيرا ما يستعار للمعانى اللازمة كما هنا وضمير التثنية للشعر والخدم وتخشى من خشى الامر خافه والعواقب جمع عاقبة وهو ما يئول اليه الامر والشأن فيه أن يكون على خلاف المترقب كما فى قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزنا والمراد بما تخشى عواقبه مالا يسلم منه الشاعر المادح من زخرف القول والهدى ما يهدى الى الحرم والنعم اسم جنس يقال على الابل قال السهيلى فى الروض الأنف فى شرح قول حسان رضى الله عنه

وكانت لايزال بها أنيس * خلال مروجها نعم وشاء

النعم الابل فاذا قيل الانعام دخل فيه البقر والغنم والشاء والباء فى بهما سببية واذ فى صدر البيت تعليلية والمعنى انما طلبت بمدحه صلى الله عليه وسلم الخلاص من مواقع الشعر والخدم لانهما وسمانى بسمة مخوفة العواقب الدنيوية والاخروية حتى صرت بسببهما كالهدى المقلد الذى مآله النحر وحاله غير خفى بشعاره مما يعلق فى عنقه للدلالة على كونه هديا ولا يهتدى الى وجه الخلاص وفى هذا التشبيه ايماء الى أن تعاطى ذلك وان كان قصديا لكن صاحبه لما لم يتدبر فى العواقب كان بالانعام أشبه وقد ضرب الله المثل لمن لا يهتدى بنور عقله بالأنعام فى قوله جل اسمه أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا

﴿أطعت غىّ الصبا فى الحالتين وما * حصلت الاعلى الآثام والندم﴾

أطاعه انقاد اليه والغىّ الضلال والصبا بالكسر جهلة الفتوة والشباب والحالتين الشعر والخدم والآثام جمع اثم والندم الأسف ومعنى البيت اعتذاره عن ارتكاب الحالين مع كونهما مؤدّيين الى عدم النجاة فان ضلالة الشباب وجهل الفتوة دعياه الى ارتكاب ما ارتكب منهما لان الشباب شعبة من الجنون اذ لم يكمل العقل حينئذ وبه يقوى داعى الهوى لوجود القوّة والبطالة وطول أمل العيش وتزيين الباطل بصورة الحق وتخييل الشهوة ما فى الفعل من الحسن حتى اذا أدركه الكبر ورجع الى حكم العقل وجد ما كان يخيل حسنا قبيحا وألفى ما طامعه نار حباحب ولم يحصل له من آثار ما فعل الا ما يسوءه من ترتب الآثام والتأسف على الفائت حيث انقضت عواقبه وفى ضمن هذا الاعتذار اقرار وتوبة وفيه ايماء لطيف الى أن المعصية وان كانت فى نفسها معصية الا أنه ربما يعذر صاحبها فى مجارى العادات وذلك بتوفر الدواعى وقوّة الاسباب حتى لا يكون الوقوع فيها لمجرد المخالفة كاتباع الشهوات فى زمن الشباب كما قدمنا ومن ثم عظم شأن الطاعة فيه حتى عدّ صاحبه من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله وعظم أمر المعصية فى غيره كما ورد فى الشيخ الزانى وانه لا يكلمه الله كما فى حديث ثلاثة لا يكلمهم الله الحديث

﴿فيا خسارة نفس فى تجارتها * لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم﴾

الفاء للتفريع والخسارة فى التجارة الغبن فيها والنقص والتجارة البيع والشراء ولفظ النفس روى بالاضافة الى ياء المتكلم يعنى نفسه وعليه فجملة لم تشتر بيان لوجه الخسارة وروى بالتنكير على معنى أى نفس كانت وعليه فجملة لم تشتر حال هى مناط التعجب من الخسارة وفيه تأكيد لحكم نفسه فى ذلك لنفى احتمال الخصيصى الشخصية والسوم بذل الثمن لارادة الشراء والمعنى عظمت خسارة نفس وضل سعيها حالة كونها متمسكة بزهرات الدنيا ولذاتها ولم تبتذلها بالدين والطاعة ولا أخذت فى مسالك ذلك واختارت اتباع الشهوات واستبدلتها من المطلوب منها من أنواع العبادات فشبه هذه الحالة بحالة الخسارة فى البيع بسوء تدبير التاجر واستعار لها تركيبها اقتباسا من قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين وفيه ايماء لطيف الى أن حالة الحياة الدنيا غير مقصودة لذاتها انما المقصود منها بذلها فى الطاعات واكتساب الحسنات كما تبذل الاموال فى شراء ما ينمى المال ويكثر المكاسب وبقوله لم تسم يترجح عندى رواية الاضافة فى نفسى اذ على التنكير تتعين الحالية فى جملة لم تشتر كما أشرنا اليه فيلزم أن يكون عظم الخسران من مجموع عدم الشراء والسوم وفساده بين كما أنه يلزم التكرار فى عموم الحكم فى البيت بعده وقد تبين بما شرحناه أن النفس باعت واشترت وسعت فى المكاسب وتجرت غير أنها ارتكبت طريق الغبن والخسران واستبدلت ما يوجب العز بموجب الهوان كما صرح بذلك فى البيت بعده ولشيخ الاسلام ههنا كلمات غير ملتئمة فتدبرها مع ما ذكرناه

﴿ومن يبع آجلا منه بعاجله * يبن له الغبن فى بيع وفى سلم﴾

البيع معروف و يطلق على الشراء قال الجوهرى ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ولا يبع على بيع أخيه أى لا يشتر لان النهى للمشترى لا للبائع والآجل المتأخر والعاجل ضده والغبن فى البيع المخادعة فيه والسلم أصله لغة السلف وفى عرف أهل الشرع بيع ماليس بحاضر يتقرر فى ذمة البائع مع تعجيل الثمن على شروطه المقررة فى كتب الفروع والمعنى كل من استبدل الآجل بالعاجل ورضى بما يحصل له عاجلا عوض ما يؤول اليه آجلا فلا بدّ من غبن له ونقص ضرورة انه لا بدّ للمتأخر من فرط فالبائع يخدع ويغترّ بلذة ما يحصل بيده من الثمن الحال ويغفل عما ينقص له لو باعه فى وقته الذى لم يقته فيه الا عدم تعجيل تلك اللذة الآتية ثم انه يدخل فى مخاطرة حيلولة العوائق بينه وبين حصول المبيع فى آجله فيتجرّع مع مرارة الغبن حرارة الطلب وربما كان عاقبة ذلك سوأ ولما كان هذا البيع يتأخر قبض المبيع فيه مع تنجيز الثمن كان سلما فعطف على البيع السلم للبيان وضرب الناظم هذا المعنى مثلا لمن يغترّ بزهرات الدنيا معرضا بها عن الطاعات المحمودة العواقب والضمائر فى البيت عائدة على من ونسبة العاجل والآجل لما صدقت عليه لا ستره فيه

﴿ان آت ذنبا فما عهدى بمنتقض * من النبىّ ولا حبلى بمنصرم﴾

آت مضارع أتى الشئ جاءه والفاء جزائية والعهد غاية الحرمة والامان والذمة ومنتقض منكوث من النقض ضد الابرام والحبل معروف استعمل هنا فى الوصلة وهى استعارة شهيرة والمنصرم المنقطع ومعنى البيت انى وان كنت أجرمت ومن كؤس المآثم تجرعت فلا يوجب ذلك ابا سى من المغفرة ولا يقطع منى رجاء العفو والرحمة لان لى عهدا محكما وصلة وثيقة بالنبى صلى الله عليه وسلم لا ييأس معهما صاحبهما ولو كان صاحب اجترام وحيث تعين أن المراد من الشرطية بيان أن الذنب لا يسطو على عهده صلى الله عليه وسلم ولا يخفى أن ذلك حكم لذات عهده صلى الله عليه وسلم فلا اعتبار بينئذ بما تقتضيه الشرطية من الاستقبال وترتب اشكال فى النظم وتكلف الجواب كما وقع والقيه ويعنى بالعهد ما بينه البيت بعده ومن العجب أن شيخ الاسلام حمله على عهد الايمان مع تكفل الناظم ببيانه وأنه تكلف ربطه به بما لا ينبغى من مثله وفيه مع ذلك بعد عن مرامه فانه مقرّ بتدنيس عهد الايمان بارتكاب المخالفات ومن ثم التجأ الى الوصلة بكونه بسميا له صلى الله عليه وسلم حيث قال

﴿فان لى ذمة منه بتسميتى * محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم﴾

فانه استدلال على احكام العهد وبيان لطريقه والذمة العهد كما تقدم وضمير منه للنبى صلى الله عليه وسلم والتسمية مصدر سماه يسميه اذا جعل له اسما والوفاء بالذمة اعتبارها وأداء حقها والمعنى ان لى ذماما منه صلى الله عليه وسلم لا يخفر واعتلاقا لا يجحد اعتباره ولا ينكر وهو التسمية باسمه الشريف والتطفل بها على خصوصية القسمة الى مقامه الشامخ المنيف اذ المقصد من التسمية بأسماء العظماء التعلق بهم والانتساب بذلك اليهم اذ ذلك أدنى ما يعكر من مراتب الاشتراك وهو عند النفوس الكاملة يستدعى اعتباره نسبة وذمة واعتلاقا يوجب رعاية لصاحبه وحرمة ولما كان الوفاء بالذمم من مكارم الاخلاق وقد ثبت ثبوتا

لا يعتريه ريب أنه صلى الله عليه وسلم حصل من تلك الصفة على ما لا مطمع لمخلوق فيه كان صلى الله عليه وسلم أوفى الناس بالذمم وأحقهم برعاتها ومن أحسن ما قيل فى منزع الناظم من الاعتماد على العهد والذمة قول أبى نواس يمدح المهدى محمدا

أخذت بحبل من حبال محمد * أمنت به من نائب الحدثان
تغطيت من دهرى بظل جنابه * فعينى ترى دهرى وليس يرانى
فلو تسئل الايام باسمى مادرت * وأين مكانى ماعرفن مكانى

ويعجبنى فى المدح بذلك قول ابراهيم بن العباس بن صول

ولكن الجواد أبا هشام * وفىّ العهد مأمون المغيب
بطىء عنك ما استغنيت عنه * وطلاع اليك مع الخطوب

وفيه اشعار بأن الاغاثة عند الخطوب من الوفاء بالعهد وهو ملاق لمعنى البيت بعد وفى صنيع الناظم ترغيب فى التسمية باسمه صلى الله عليه وسلم تيمنا وذمة وفى الاكمال للقاضى عياض روى عن جعفر بن محمد اذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا ليقم من اسمه محمد فيدخل الجنة بكرامة اسمه صلى الله عليه وسلم وفى لفظ آخر ينادى يوم القيامة يا محمد فيرفع رأسه فى الموقف كل من اسمه محمد فيقول الله جلّ جلاله أشهدكم أنى قد غفرت لكل من اسمه على اسم محمد نبيى وروى ابن وهب فى جامعه عن مالك سمعت أهل مكة يقولون ما من بيت فيه اسم محمد الا رزقوا وقد ذهب طائفة الى منع التسمية بمحمد صونا له عن الاذى اللاحق فى الخطاب وهو ظاهر مذهب عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذ قال لمن تسمى باسمه لا أسمع محمدا يسب بك أبدا وهذا من باب سدّ الذرائع

﴿ان لم يكن فى معادى آخذا بيدى * فضلا والا فقل يا زلة القدم﴾

المعاد النشأة الثانية وهو الحشر يوم يقوم الناس لرب العالمين والاخذ باليد كناية عن التخليص من الأوحال والشدائد والفضل الاحسان وانتصابه كما بعده على التعليل والا بالتنوين والنصب عطفا على العلة الاولى والالّ بكسر الهمزة العهد والحلف والقرابة ومنه قوله تعالى لا يرقبون فيكم الا ولا ذمة والعجب من شيخ الاسلام أنه عدل عن هذا وزعم ان الا فى النظم ان الشرطية ولا النافية وتكلف لصحة المعنى تقدير جواب الشرط مناسبا للاخذ باليد وهو تعسف لا داعى اليه مع ما فيه من تضييع ما مهده الناظم قبل من الذمة والخطاب فى قوله قل لنفسه والنداء للتهويل والتعظيم وادراج القول للدلالة على كونه على ذلك جديرا بذلك القول حقيقا به وزلة القدم كناية عن الوقوع فى المهالك والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم ان لم يكن مخلصا له يوم القيامة من جزاء ما اقترفه من الآثام وضيع فيه عمره مما لم يحصل منه الا على الندم فقد وقع فى المهالك وظلمة ليل آثامه الحالك وتقديم الفضل على الذمة تعبيد للادلاء بالاستحقاق والاعتماد على الاسباب ووقوف عند باب المنحة والاحسان وذلك من آداب الاستعطاف قال علىّ بن الجهم

ليس عندى وان تغضبت الا * طاعة حرة وقلب سليم

وانتظار الرضا فاترضا النسا * ذات عز وعتهم تقويم

﴿حاشاه أن يحرم الراجي مكارمه * أو يرجع الجار منه غير محترم﴾

حاشا كلمة تستعمل بمعنى التنزيه والتبرئة وحرمته الشئ منعته اياه والراجي اسم فاعل من رجا يرجو اذا أمل والمكارم جمع مكرمة من الكرم ضد اللؤم والجار هنا المستجير من مس المكاره ومنه قول الهذلي

وكنت اذا جاري دعا لمضوفة * أشمر حتى ينصف الساق مئزري

ومنه يتعلق بيرجع على أن من ابتدائية ومحترم اسم مفعول من احترمه جعل له حرمة والمعنى أنزه مقامه الرفيع وجاهه السامي المنيع أن يمنع مكارمه عمن يرجوه أو ان لا ينال حرمة من استجار به كيف وان حماية المستجير وتحقيق رجاء المؤمل من الشيم التي جبلت عليها النفوس الكريمه والطباع السليمه حتى كانت أعلى المفاخر وأسنى المآثر وفيهما تتنافس الهمم خصوصا الفئة العربية فان ذلك عندهم من أجل ما به يتمادحون وأنفس ما به يتفاخرون قال السموأل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا * عزيز وجار الأكثرين ذليل

لنا جبل يحتله من نجيره * منيع يرد الطرف وهو كليل

رسا أصله تحت الثرى وسما به * الى النجم فرع لا ينال طويل

وقال الأقرع بن معاذ

ونجعل للجار القليل سوامه * سواما ونحمي سربه أن يفزعا

وقال ابن الرومي

اذا تمملك العافي فكوكبه * سعد ومرعاه في واديك سعدان

وقد قام البرهان القاطع على أنه صلى الله عليه وسلم حاز من المكارم ما لا طمع فيه لمخلوق فكيف لا يحترم جاره ويمنع راجيه ولله در من يقول

قرأنا في الضحى ولسوف يعطى * فسر قلوبنا ذاك العطاء

وحاشا يا رسول الله ترضى * وفينا من يعذب أو يساء

﴿ومنذ ألزمت أفكاري مدائحه * وجدته لخلاصي خير ملتزم﴾

منذ كلمة يراد بها ابتداء غاية الزمان وتستعمل اسما مبتدأ خبرها الزمان بعده وحرف جر تجر لفظ الزمان فهو مقدر في النظم أي منذ زمن مخفوض أو مرفوع والالزام جعل الشئ ملازما لا ينفك والافكار جمع فكر بكسر الفاء اعمال النظر في الشئ وجمعه باعتبار أنواعه والمدائح جمع مديح وهو ما يمدح به من أنواع الثناء الجميل ولفظه ثاني مفعولي ألزم ووجد هنا بمعنى علم مفعوله الاول الضمير العائد على المدح المفهوم من المدائح أو هو ضمير النبي صلى الله عليه وسلم وخير ملتزم مفعوله الثاني وملتزم بصيغة المفعول ان كان الضمير للمدح أو للنبي صلى الله عليه وسلم على تقدير وجدت مديحه ويصح أن يكون بصيغة اسم الفاعل والضمير للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى أنه من حين ما توجه بفكره لمديحه صلى الله عليه وسلم

وصرف كل همته اليه علم يقينا أنه متخلص من أوحال ما قلده الشعر والخدم وأوجب له الاثام والندم وذلك لما قام عليه البرهان وبلغ مبلغ المشاهدة والعيان أنه صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق محتبه وأوسعهم رجاء وعطيه وأنه لا يخيب قاصده وسائله ولا ترد على مؤمله وسائله علم ذلك يقينا من شمائله وأخباره وتواترت به الوقائع الجمة من آثاره كيف لا وانه صاحب الخلق العظيم والمشهود له بأنه بالمؤمنين رؤف رحيم واذا كان المتطبع بالمكارم من غيره من البشر تأخذه حمية الحماية عند الالتجاء اليه ويصرف عنان همته لمن عول عليه فكيف بمنبع الكرم والجود صلى الله عليه وسلم وبهذا يظهر أن حمل ملتزم على اسم الفاعل أنسب بمراد الناظم أي اني التزمت مدائحه فالتزم صلى الله عليه وسلم خلاصي من أوحالي حتى تيقنت منه بلوغ آمالي

له نعم تؤب بآمليه * اذا آبت الى أحلى مآب

ألذ من انتصار بعد ظلم * وأحلى من دعاء مستجاب

﴿ولن يفوت الغنى منه يدا تربت * ان الحيا ينبت الأزهار في الأكم﴾

فات الشئ يفوت فوتا سبق فلم يدرك والغنى بكسر الغين مقصور اليسار وتربت يده افتقر وأصله من ترب اذا لصق بالتراب لفاقته والحيا بالقصر المطر والخصب والازهار جمع زهر بالفتح وهو زهر النبت وقد تقدم ونسبة الانبات اليه تجوز والأكم جمع أكمة وهي الجبال الصغار والمعنى اني وان لم أفعل من الطاعات ما أرجو معه نيل الثواب كما قال صدر النظم ولا تزودت البيت فلا أكون آيسا من نيل الاحسان والتنعم بالنعيم الأكبر بجاهه صلى الله عليه وسلم فان عظيم الجاه يكسب المعدوم وينعم المحروم كالمطر النافع فانه ينبت المحل الذي ليس من شأنه الانبات لصلابته وعدم قبوله الماء حق القبول وهو صلى الله عليه وسلم أعظم نفعا من الحيا بل الحيا فرد من أفراد أنواع نفعه ولقد أجاد كل الاجادة في ضرب هذا المثل لنفسه وقد علمت مما بيناه أن المراد الغنى يوم القيامة وأن المراد بالفقر المكني عنه بترب اليد هو الفقر من الطاعات وقد رفع توهم ارادة الغنى الدنيوي بالبيت بعده ﴿واعلم﴾ أن الناظم رحمه الله أمل من النبي صلى الله عليه وسلم أمرين الاول الخلاص من مهالك ما كسبت يمينه من الآثام وهو مضمون الأبيات السابقة الثاني نيل النعيم المقيم وهو مضمون هذا البيت ولما كانت النجاة من العقاب والتخلية منه أسبق اعتبارا من التنعم والتحلية به قدم الاول مصرحا به وجاء بالثاني على طريقة التعريض الذي هو ألطف في باب الاستعطاف

﴿ولم أرد زهرة الدنيا التي اقتطفت * يدا زهير بما أثنى على هرم﴾

أرد مضارع أراد بمعنى شاء وزهرة الدنيا زخرفها واقتطفت معناه قطفت وزهير هو ابن أبي سلمى أبو السيد كعب صاحب بانت سعاد وهو أحد الشعراء الثلاثة المتقدمين في الشعر ثانيهم امرؤ القيس وثالثهم النابغة الذبياني وروى عن عمرو بن عبد الله الليثي قال قال لي عمر ابن الخطاب رضي الله عنه هل تروي لشاعر الشعراء شعرا قلت ومن هو قال الذي يقول

ولو أن حمدا يخلد الناس خلدوا * ولكن حمد الناس ليس بمخلد

قلت ذلك زهير قال هو شاعر الشعراء وهرم هو ابن سنان بن حارثة المزنى كان ممدوح زهير وكان يصله بالصلات الجزيلة حتى أنه أقسم أن لا يسلم عليه زهير الا أعطاه غرة عبدا أو أمة فلما كثر ذلك على زهير صار اذا مر بالنادى وفيه هرم قال انعموا صباحا غير هرم وخيركم تركت فكان فعله هذا أمدح له من شعره والمعنى لم يكن قصدى من التوسل بجاهه صلى الله عليه وسلم زخرف الحياة الدنيا الذى ناله زهير بمدح هرم وانما القصد النفع بذلك فى الاخرى التى لا يفنى نعيمها وقدمنا أنه دفع بهذا ما يوهمه البيت قبل من ارادة الحياة الدنيا كيف وانه فزع الى ذلك الجناب الرفيع للتخلص مما أوقعته فيه ارادة زهرات الدنيا وفيه ايماء الى أن العظيم لا يلجأ اليه الا فى عظيم والا كان تنقيصا فى عظمته ثم لا يخفى أن المراد بالنفى مال الدنيا وشهواتها من الجاه والذكر ونحوهما مما لم يكن مقصودا من عبودية العبد فلا ينافى أن من مقاصده بهذا النظم الشفاء من داء الفالج كما تقدم صدر هذا الشرح فان سلامة الجسم مطلوب للشارع ومن ثم ورد الأمر بالتداوى فافهمه

﴿يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به * سواك عند حلول الحادث العمم﴾

لاحظ أحواله عند باب المصطفى الكريم وأيس فى نيل مطالبه من كل وسيلة سوى جانبه العظيم وتوجه بكليته اليه وناداه نداء المضطر المعتمد عليه فالتفت من غيبته الى شهوده وشافهه بمرامه ومقصوده واستعمل كلمة البعد تحقيرا لنفسه وتعظيما للجناب المرفع والاكرم أفعل من الكرم ضد اللؤم ويراد به العزيز ومنه

يا أكرم الخلق على ربه * يا خير من فيهم به يسئل

وكل من المعنيين صالح للمقام ويؤيد الاول فان من جودك البيت ويؤيد الثانى ولن يضيق البيت ولاذ بالشئ التجأ اليه وسواك بمعنى غيرك والحلول النزول والحادث فى الاصل المسبوق بالعدم ثم كثيرا ما يستعمل فى الامر الهائل كهول يوم القيامة المراد للناظم هنا والعمم بكسر الميم الاولى اسم فاعل من عم الشئ اذا لم يخص والمعنى يا أكرم الخلق على ربه أو يا أنفعهم ليس لى غيرك ملاذ اذا حل هول يوم القيامة الذى يعم كل أحد

﴿ولن يضيق رسول الله جاهك بى * اذا الكريم تجلى باسم منتقم﴾

ضاق الشئ عن الشئ لم يسعه والجاه القدر والمنزلة والكريم من أسمائه تعالى قال الشيخ لطف الله كرم الله تعالى صفة كمال يعبر عنها بالفيض تسوق خزائن آلائه الى المستحق وغيره سواء طلب وانتفع وشكر أولا وقال أبو حامد الكريم هو الذى اذا قدر عفا واذا وعد وفى واذا أعطى زاد على منتهى الرجا ولا يبالى كم أعطى ولا لمن أعطى واذا رفعت حاجة الى غيره لا يرضى ولا يضيع من لاذ به ويغنيه عن الوسائل والشفعا فمن اجتمع له ذلك فهو الكريم المطلق وذلك لله تعالى عز وجل فقط اه والتجلى الظهور واضافة اسم لمنتقم للبيان والمعنى باسم هو منتقم ومعنى التجلى به انكشافه وظهوره باظهار آثاره فانه تعالى متصف بجميع صفاته التى هى على قدم واحد فى الثبوت والحكم ولها مظاهر وتجليات بحسب الحكمة البالغة وارادة اظهار بعض الآثار يعبر عن ذلك تارة بالظهور وأخرى بالتجلى وآونة بالتعلق

فالتفضل

فالتفضل والاحسان مظهر وتجل لاسمه تعالى الكريم والعقاب والمؤاخذة مظهر وتجل لاسمه المنتقم وهكذا سائر الاسماء الكريمة وهذا وان كان بحيث لا يخفى فقد خفى على شيخ الاسلام فأكثر الكلام والاعتراض والمنتقم المؤاخذ لمن خالف الامر والنهى بأشد سطوة وأعظم عقوبة قال لطف الله وذلك حكمة بالغة فلولم يؤاخذ لأفضى الى شر ونوائب أمر وأدهى مما وجد وقهر الله تعالى بعض عباده وانتقامه منهم عين لطفه ومحض عنايته فى نظر التحقيق فلا يوهم شيأ فى سبق رحمته على غضبه ورأفته المتزايدة فى حق عباده ومعنى البيت يا رسول الله ان جاهك ومكانتك عند الله تسعنى وتشملنى حماها يوم لا حمى الا حماك وهو اليوم الذى يتجلى فيه من عود عباده مظاهر الكرم والجود باظهار الانتقام والعقوبة وهو اليوم الذى يقول فيه جميع الانبياء سواه صلى الله عليه وسلم ان ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله نفسى نفسى

﴿فان من جودك الدنيا وضرتها * ومن علومك علم اللوح والقلم﴾

الفاء للتعليل والجود السخاء وضرة الدنيا الآخرة لتضاددهما وتنافيهما كالضرائر واللوح هو اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه ما كان وما هو كائن والقلم هو القلم الوارد فيه أنه أول ما خلق الله والمعنى كيف يضيق جاهك بى وأنت أكرم الخلق على ربك قد خصك بالمزايا العظام الدالة على مكانتك عنده منها أنه خلق الدنيا والآخرة لأجلك كما قدمه الناظم وتقدم شرحه ومنها أنه علمك ما لم يحط به غيرك علما حتى أن ما فى اللوح والقلم بعض علومك وقد قدمنا شرح هذا فى شرح قوله وكلهم الخ عن لطف الله محررا فراجعه هناك ومن كانت هذه مكانته عند ربه فلا يرجى لوسيلة سواه ولا يخيب من وقف بباب فضله وعلاه وبما شرحنا تعلم ما وقع لشيخ الاسلام فى شرحه

﴿يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت * ان الكبائر فى الغفران كاللمم﴾

نفس بكسر السين منادى مضاف الى ياء المتكلم حذفت لفظا لدلالة الكسر عليها والقنوط اليأس من قنط بفتح النون يقنط بالضم والكسر والزلة الذنب وعظمت كبرت والكبائر جمع كبيرة وهى من الذنوب ضد الصغائر منها وقد ورد فى الكتاب المجيد الاشارة الى تنويع الذنوب الى الكبائر والصغائر فى قوله جل اسمه ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم والاجماع على أن أكبر الكبائر الشرك بالله وفى تعيين ما عداه اضطراب كثير شحنت به كتب الكلام وغيرها بلا طائل والذى أخذ بزمام ضبطها حبر هذه الامة أبو حامد الغزالى فى كتاب الاحياء فانه ضبطها بضبط المقصود للشارع من العبد وهو معرفة الله ومعرفة رسله وحياة النفوس وما به قوام المعيشة فى الدنيا فكل ما يرجع الى هدم واحدة من هذه الثلاث فهو كبيرة وان شئت تفصيله فراجع كتاب التوبة منه فان فيه شفاء الغليل والغفران ستر الذنب وعدم المؤاخذة به واللمم بفتح اللام صغائر الذنوب ومعنى البيت تطمين نفسه بباب الرجاء وعزائم التوسل والالتجاء وصدق الوعد الذى لا خلف فيه وعموم الفضل الذى لا حجر عليه كى لا يسوقها شدة الخوف الى اليأس من الرحمة فتقع فى مهلكته الدهماء المذكورة فى الكتاب

قوله بفتح النون الخ هو مثلث النون فى الشافى والمصباح وانظر القاموس

المجيد قائلا لها ان الذنوب وان عظمت فهى بالنسبة الى مغفرته تعالى تساوى الصغائر فاذا صادفت العبد النفحة الصمدية كانت كبائر العبد فى سعة رحمته كالصغائر حيث يعمها الغفران وفى الكتاب المجيد والوعد الذى ليس عن وجوب صدقه محيد ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وقال جل ثناؤه قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا وقد قال القاضى عياض فى الاكمال مذهب السلف الصالح وأهل الحديث والفقهاء والمتكلمين على مذهبهم من الاشعريين أن أهل الذنوب فى مشيئة الله وأن كل عاص لا يقطع فى أمره بتحريمه على النار ولا باستحقاقه لأول حالة الجنة بل يقطع أنه لابد من دخول الجنة آخرا وحاله قبل فى ظهر المشيئة وبرزخ الرجاء والخوف اه وبما بينا يعلم أن المراد كبائر المؤمن فانه خطاب لنفسه المؤمنة فلا يرد على عمومه كبيرة الشرك ولله دره ما ألطف نكاته فانه خاطب نفسه بهذا ببيان جاهه صلى الله عليه وسلم ومنزلته عند ربه وبين عموم غفرانه تعالى فكأنه يقول كيف يكون الخوف والحذر من عواقب الذنوب بين غفران عميم وجاه حبيب كريم وقد أجاد من يقول

مابين حرمته ورحمة ربنا * تمحى الذنوب عن العصاة وتمحق

واذا رجعت بمعنى هذا البيت والذى بعده من الرجاء الى ماصدر به نظمه من حالة التخوف تيقنت الاشارة منه رحمه الله تعالى الى أن العبد ينبغى أن يكون فى أول أمره على الخوف ويختم عمله بالرجاء فقد جمع فى نظمه بين الحالتين المطلوبتين من العبد على الترتيب المأمور به

﴿لعل رحمة ربى حين يقسمها * تأتى على حسب العصيان فى القسم﴾

لعل كلمة ترج وهو طلب محبوب مطموع فى حصوله والرحمة رقة القلب وفى حقه تعالى كمثلها مما يستحيل حقيقته محمولة على ارادة الانعام أونفس الانعام والرب المالك والمراد مالك الملك جل جلاله والحسب بفتح الحاء والسين القدر والقسم بكسر القاف وفتح السين مصدر قسمت الشئ وزعته والمعنى أنه رضى الله عنه ترجى أن تكون رحمة الله تعالى وقت تعلقها بالعباد يوم القيامة الذى ادخرت له كما فى حديث ان لله مائة رحمة وضع منها رحمة واحدة فى الدنيا فبها يتراحمون ويتعاطفون حتى ان البهيمة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تطأه وأخر تسعة وتسعين رحمة رحم الله بها عباده يوم القيامة تعم أنواع الآثام والمعاصى بحيث لاتذر ذنبا الا شملته فلا يخشى صاحبه عاقبته وهذا وان كان مما لايخفى فقد خفى على كثير بن كما فى شيخ الاسلام وفيه ايماء لطيف الى كمال كرمه تعالى وحديث لولم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم اذ مواقع الذنب مظاهر غفرانه وقليل الاعمال موقع فضله واحسانه واذا كان الكريم من الحوادث يحب اظهار تجاوزه وعفوه عن المسئ ويطرب للمديح به حتى كان ذلك من أنفس المدائح قال السرى الرفاء

تلك المكارم لا أرى متأخرا * أولى بها منه ولا متقدما
عفو أظل ذوى الجرائم كلهم * حتى لقد حسد المطيع المجرما

فما الظن بأكرم الكرماء وأرحم الرحماء القائل فى كتابه المجيد ورحمتى وسعت كل شئ

﴿يارب

﴿يارب واجعل رجائى غير منعكس * لديك واجعل حسابى غير منخرم﴾

الرجاء الامل فى الشئ والمنعكس منه مالا يحصل به المؤمل والحساب بمعنى الظن من حسبته كذا ظننته اياه ومنه * حسبتك فى الوغى بردا حروبا * وقوله

واخوان حسبتهم دروعا * فكانوها ولكن للأعادى

وهو مراد الناظم هنا والواو فى واجعل للعطف على جملة مقدرة والمعنى يارب حقق ظنى واجعل رجائى عموم الرحمة بجميع ذنوبى محققا غير خائب واجعل ظنى بك ظنا تاما يحقق جميع مظنونى كما قال نبيك فيما يرويه عنك أنا عند ظن عبدى بى فان قيل مع هذا الاخبار الصادق كيف يصح للناظم طلبه قلت المطلوب مايرجع الى صحة الظن وعزيمته وتمام ذلك ونقصه من قبل الطالب فافهمه

﴿والطف بعبدك فى الدارين ان له * صبرا متى تدعه الأهوال ينهزم﴾

اللطف الرفق ومنه تعالى بعباده الانعام وترك المؤاخذة وبمراعاة مايقتضيه اللطف لغة من الدقة يختص الانعام فى اللطف بما دق منه كرزق الجنين وغيره من الانعامات التى لاتدرك الا بالتأمل مع موافقة الظاهر منها الباطن واللطف الخفى ما كان ظاهره غير ملائم كجميع الشرور والمضرات الخلقية ووقائع العالم وفتنها كما أشار اليه فى قوله العزيز ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض كذا قال لطف الله واختار عنوان العبد للاستعطاف والصبر حبس النفس عن الجزع والأهوال جمع هول وهو الامر العظيم الشأن والانهزام فى الجيوش انكسارها استعير هنا لتضعضع الصبر عند مظنته وهو حلول الاهوال المعبر عنه بالدعاء مجازا والمعنى أطلب منك يارب أن تعاملنى بلطفك فى الدنيا بالعافية وتيسير الرزق ودفع المؤلمات كالمرض الذى توسل بهذا النظم لدفعه وغير ذلك فانه لا طاقة لى على تحمل المشاق والصبر عليها فان ماعندى من الصبر على حرف بحيث مانازلته الاهوال الا وتضعضع فان لم يكن منك اللطف وقعت فى الجزع المخوف العاقبة كما أطلب منك اللطف فى الدار الآخرة بمعاملتى بالعفو والغفران وبما بينا علم أن قوله ان له يتعلق باللطف فى الدنيا وأن مطلوبه اللطف الظاهر فان الخفى كما بينا محمول للاهوال والمشاق فيقع لو كان فيما خاف منه وقد سلك رحمه الله فى هذا الطلب الأدب النبوى فانه صلى الله عليه وسلم كثيرا ماحث على سؤال العافية اذ قال اذا سألتم الله شيأ فاسألوه العافية وقال للصحابى الذى رآه كالفرخ من المرض ما كنت داعيا به قال كنت أقول اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا فقال له صلى الله عليه وسلم لو سألت الله العافية فانك لا تطيق ذلك وسمع صلى الله عليه وسلم رجلا يقول اللهم هب لى الصبر فقال له طلبت من الله البلاء فاطلب العافية * قلت وهذا الحديث الأخير مأخذ مايقوله علماء الاسرار من أن اعمال ذى الخاصية للدفع من الاسماء والآيات قبل حلول المدفوع جلب له فافهمه

﴿وائذن بسحب صلاة منك دائمة * على النبى بمنهل ومنسجم﴾

الاذن من الله يكون بمعنى التمكين من الشئ و يكون بمعنى الأمر به وهو المراد هنا والسحب

بضم السين والحاء وسكن فى النظم للضرورة جمع سحابة بمعنى الغيم والصلاة لغة الدعاء ومن الله رحمته ومن المخلوق الدعاء ومنهل يتعلق بائذن وهو اسم فاعل من انهل المطر اشتد انصبابه والمنسجم السائل والمعنى ائذن يارب لخزائن صلواتك ورحمتك أن يصل منها على رسولك صلى الله عليه وسلم الحظ الوافر الكثير الدائم وهذا الطلب منه هو الصلاة المطلوبة من العبد عليه صلى الله عليه وسلم كما علمها أصحابه حين سألوه وختم الناظم مطالبه بها لكونها مرقاة الدعاء روى عن علىّ رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مامن داع الا بينه وبين الله حجاب حتى يصلى على محمد وعلى آل محمد فان فعل انخرق ذلك الحجاب ودخل الدعاء وان لم يفعل رجع ذلك الدعاء وقال ابن عطاء الله للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات فان وافق أركانه قوى وان وافق أجنحته طار فى السماء وان وافق مواقيته فاز وان وافق أسبابه أنجح فأركانه حضور القلب والرقة والاستكانة والخشوع وتعلق القلب به وقطعه من الاسباب وأجنحته الصدق ومواقيته الاسحار وأسبابه الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم

﴿ مارنحت عذبات البان ريح صبا * وأطرب العيس حادى العيس بالنغم ﴾

ما مصدرية ظرفية ورنحت أمالت من رنحته الريح فترنح أمالته فتمايل وعذبات البان أغصانه من عذبة اللسان بمعنى طرفه والبان والريح تقدما فى النظم وقدمنا هناك مسمى الصبا منه وهى الريح الشرقية والطرب خفة فى النفس سببها ادراك الملائم وشدة السرور به والعيس جمع أعيس للذكر وعيساء للانثى وهى الابل البيض التى يخالط بياضها شقرة والحادى سائق الابل بالغناء والنغم بفتح النون ترنم الاصوات والمعنى أصلى على النبىّ مادام الصبا يهب على أغصان البان فيميلها ومادام الحادى يحدو العيس بنغماته فيطرب بها ولا يعزب عن ذى مخالطة للمعانى الأدبية والاغراض الشعرية أن الغرض من مثل هذا التكنية عن التجدد والدوام وعدم الانقطاع فلا يرد أن ذينك الامرين غير لازمين فى الوجود اذ كثيرا ما يخلو الزمان عنهما واختارهما عن غيرهما فى التكنية ليكون نسجه بدويا فان السير والحداء واعتبار الريح والاشجار البدوية مناط نظر العربىّ القح وقد طابق بذلك بين بداية نظمه ونهايته اذ بنى تغزله على ذكر المنازل العربية والاشجار البدوية من البان والعلم وجيران كاظمة وذى سلم وختم بمثل ذلك فكان فيه شبه ردّ العجز على الصدر وللحداء تأثير قوىّ فى الابل ولقد أكثر الشعراء من ذكر العيس والحدا وتوعوا فيه طرائق قددا ومما يعجبنى من ذلك قول ادريس بن أبى حفصة

أمالنا منك نور يستضاء به * ومن رجائك فى أعجازها حادى
لنا أحاديث من جدواك تذهلها * عن الربوع وتلهيها عن الزاد

وقال الآخر

وحثحث العيس حاد صوته غرد * بنغمة دونها المزموم والرمل
حدا بهم ثم حيا عيسهم مرحا * وقال سر مسرعا حييت يا جمل

ليت

ليت التحية كانت لى فأشكرها * مكان يا جمل حييت يا رجل

وههنا أبيح لليراع أن يلف عنان جواده حيث ساعده القدر ببلوغ مراده ونال من التعلق بالجناب المرفع مقصوده وبذل فى الخدمة مقدوره ومجهوده ولولا فضل الرحيم الرحمن ما كان يأمل أن يجرى فى ذلك الميدان لكن العناية التى ليس عليها حاجر اذا صادفت ألحقت العاجز بالقادر والمرجوّ من جناب المصطفى صلى الله عليه وسلم والمسؤل أن يكون هذا الشرح كأصله فى الرضا والقبول فان ذا الخلق الكريم يلحق لديه الحقير بالعظيم نسأل الله تعالى أن يجعله من التجارة الرابحه والأعمال المقبولة الصالحه والوسائل النافعة الناجحه بجاه حبيبه سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحابته أجمعين والحمد لله رب العالمين

﴿ يقول المتوسل الى الله بخير من وطئ البساط طه بن محمود قطرية المنسوب الى دمياط ﴾

ان أفسح مجال تسابقت فيه جياد البراعة وفرسانها وأفيح فناء تحط به رحال البلاغة وأظعانها وأشهى سلافة أترعت منها كؤس الاطراء والاطراب وأثبت وتد مجموع تشد به أطناب الاطناب حمد الله على ما أسبغ من غيوث النعم وأسبل من أذيال الكرم وشكر المنعم الواجب فهو الذى يسكن اليه كل قلب واجب ﴿ نحمده ﴾ الحمد المطلوب ونشكره وبذكره تطمئن القلوب ونشهد أن لا اله الا هو ونقدسه عما لهج به المبطلون وماهوا ونشهد أن سيدنا محمدا درة تاج الانبياء وواسطة عقدهم وفص خاتم المرسلين ومطلع سعدهم فاقض لنا اللهمّ بالاستظلال بظل رعايته الوارف وامنن علينا بالدخول تحت كنفه يوم تراكم المخاوف وصل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه وكل منتسب اليه ﴿ أما بعد ﴾ فان منن الله وان كانت كلها عظيمه ونعمه وان كان أيسرها أدوم من الديمه متباينة المزايا والأقدار متفاوتة الفضل فى التجدد والاستمرار وعلى حسب وظائفها يكون وقعها فى النفوس ويكثر بقليل الرخاء عند اشتداد البوس وان أعظم نعمة بعد الايمان وقرة العين بصحة الابدان نعمة العلم والبيان ولما كان السيد الرسول هو الواسطة فى كل نعمه وجب على القلوب والألسنة أن تثابر على وظائف حبه ومدحه المهمه بل افترض علينا ايثاره بالنفس والولد وقد سبق أعيان الاسلام الى ذلك فأنجز الله لهم ما وعد وناهيك من الصدر الاوّل بكل ذى قدم راسخة وجأش ثابت مثل عبد الله بن رواحة وحسان ابن ثابت ممن نافح بلسانه بعد سنانه وناضل ببيانه اثر بنانه ونشر مكارم أخلاقه المرضيه وخلد عقائل مدحه فى مقاصير القصائد والمقاطع الشعريه وكان مدحه منجا من الهم والضير وجوارا لا يخفر لكعب بن زهير فقد استنشده قصيدته وأجازه عليها بردته وقد نسج على منوال هذه البرده شرف الدين البوصيرى الذى بذل فى المدح جهده بقصيدته التى هى غنية عن المدح فقد كفانى مؤنة ذلك هذا الشرح الذى استخرج من قشر ألفاظها لباب المعانى ولم يحوج من وقف عليه الى أن يعالج فهمها ويعانى فلله درّ مؤلفه المؤلف

لشمل الأدب المتمسك من المعارف بأقوى سببه المحقق الماهر الشيخ محمد بن عاشور الطاهر وقد سعدت بقدومه اليها الديار المصريه وعنى بطبعه بالمطبعة الوهبيه الفاضل الأمثل ذو السعى المشكور نجل حضرة المؤلف المذكور وقد بذلت فى تصحيحه الوسع بما ليس عليه مزيد وكانت عمدتى فيه نسختين بعث بهما الينا هذا النجل الرشيد حفظه الله وأبقاه ورعاه من المكاره ووقاه مشاركا لحضرة أنيسى الشيخ محمد البليبسى وكمل طبعه لخمس بقين من جمادى الاولى سنة ١٢٩٦ هجريه على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحيه وعلى آله الكرام وصحبه مناهج الاسلام ولما بزغت شمس تمامه انثلج صدرى للادلاء بخدمة مدحه مؤرخا طبعه بعامه فقلت

[illegible]ول ء عينى من لاوح الحسن برق * منذ جفانى بات دمعى ليس يرقا
[illegible]ن عينى واسكن لم يبن * عن فؤادى وعصا صبرى شقا
عا[illegible]يه مبلح والهوى * آمر ناه لقلب نسل عشقا
[illegible]ياعين بعد صفو العيش أن * قيل قد آن حثيث العيس سوقا
يا[illegible]ة العيس قرت عينكم * بالقوار ير ارفقوا بالله رفقا
[illegible]وحى يوسفيا حسنه * مصره قلبى وان أ ذكاه شوقا
ليته لما كسا جسمى الضنى * بردة طوقنى بالصبر طوقا
ليس للعارى من الصبر سوى * بردة المدح لخير الناس خلقا
سيد لو عاش يطرى مدحه * ألف عام أفصح الأقوام نطقا
لم ينل من وصفه الا كما * شام فى الأفق كليل الطرف برقا
قامت البردة من أعبائه * بالذى عز على الغير وشقا
يالها بردة مدح حاكها * شرف الدين الذى أحرز سبقا
واقتضت شرحا لها من فاضل * يكشف السر الذى رق ودقا
والذى استخرج منها كنزها * فاتحا من بابها ما كان غلقا
شرحها الوافى المسمى بالشفا * آخر الطب وما أحلاه ذوقا
حاكه شرحا بديعا طبعه * من يسوى بصناع الكف خرقا
تم طبعا فانجلى تاريخه * فى شفا القلب الشفا للطبع حقا

١٠٩ ١٤١ ٤١٢ ١٦٣ ٣٨١ ٩٠

سنة ١٢٩٦